تاريخ أوروبا في العصور الوسطى



الدكتورة
إيناس حسني البهجي

بالعلم نرتقي
مركز الكتاب الأكاديمي

تاريخ أوروبا

في العصور الوسطى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2016/4/1940)

940.1

البهجي، ايناس حسني

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى والحديثة/ ايناس حسني البهجي عمان:مركز الكتاب الاكاديمي، 2016

(308)ص.

ر.إ.: 2016/4/1940

الواصفات: /تاريخ أوروبا//العصور الوسطى//العصر الحديث

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى 2017

ISBN978-9957-35-220-2 (ردمك)

مركز الكتاب الأكاديمي

عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري

ص . ب : 11732 عمّان (1061) الأردن

تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+

الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net

A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

الدكتورة
إيناس حسني البهجي

مركز الكتاب الأكاديمي

إهـــداء

إلى أسرتي

المقدمة

يعتقد البعض أن اسم القارة الأوروبية مشتق من اسم الأميرة الفينيقية يوروبا التي كانت قد خطفت من قبل زيوس -إله السماء عند اليونان- على ظهر ثور وأخذت لجزيرة كريت حسب الميثولوجيا اليونانية. من بعد حادثة الخطف سميت اليونان باسم يوروبا وبحلول العام 500 ق.م امتد المقصود من الكلمة ليشمل الأراضي الواقعة شمال اليونان.

لأوروبا تاريخ طويل حافل بالأحداث والتغيرات الاجتماعية والثقافية والصراعات طويلة الأمد. العصر البليوليثي الذي اكتشفت بعض آثاره في مناطق في شبه الجزيرة الإيطالية وقدر تاريخها لحوالي 800 ألف سنة خلت هي أول فترة في تاريخ تلك القارة العريقة.

تنسب الحضارة الأوروبية الحديثة والتقدم الثقافي لبعض أجزاء تلك القارة لقدامى اليونان بشكل رئيس، كما أن للمسيحية تأثير كبير أيضا. قامت الإمبراطورية الرومانية على أجزاء واسعة من القارة الأوروبية وكان سقوطها في القرن الخامس الميلادي بوابة لكثير من التغيرات في القارة كان أبرزها ما حدث إبان عصر الهجرات. عانت أوروبا كثيرا في المعيشة في العصور المظلمة.

عصر الهجرات أو فترة الهجرات (Migrations Period) وتعرف أيضا بفترة الغزوات البربرية (Barbarian Invasions) أو(Völkerwanderung) هجرة الشعوب بالألمانية)، هي فترة من الهجرة البشرية المكثفة لأوروبا منذ حوالي عام 376 إلى 800 بعد الميلاد أثناء فترة الانتقال من العصور القديمة المتأخرة إلى فترة العصور الوسطى المبكرة. تميزت هذه الفترة بتغييرات عميقة في الإمبراطورية الرومانية و في المناطق المحيطة بها ما بعد الجبهة البربرية .(Barbarian frontier)الهجرات التي حدثت أولا

هي هجرات القبائل الجرمانية مثل القوطيون، الوندال، الأنجل، الساكسون، اللومبارديون، السويبيون، والفريسيون والفرانكيون؛ ومن ثم قامت شعوب الهون، الآفار، السلاف، البلغار والآلان لاحقاً بدفعهم للهجرة باتجاه الغرب. الهجرات اللاحقة مثل الغزو العربي، غزوات الفايكينج، النورمان، المجريون، المورو، الترك والمغول كان لها تأثير مهم (خصوصا في شمال إفريقيا، شبه الجزيرة الإيبيرية، الأناضول وفي أوروبا الوسطى والشرقية)؛ وعلى كل الأحوال كانت هذه المناطق خارج نطاق عصر الهجرات.

بعد دخول عصر النهضة الأوروبي وفترة الممالك الجديدة بدأت عصور الاستكشاف وازداد الاهتمام بالعلوم الإنسانية والتطبيقية. كانت البرتغال أول من بدأ بالاستكشاف في القرن الخامس عشر الميلادي وتبعتها بعد ذاك إسبانيا، جاءت بعدهما فرنسا والمملكة المتحدة وهولندا وقامت كل من هذه الدول بالاستيلاء واستعمار العديد من أراضي قارات آسيا وأفريقيا والأمريكيتين.

كانت شغل أوروبا الشاغل بعد عصر الاستكشاف هو بث أفكار الديمقراطية وكيفية تطبيقها. بدأت الشعوب الأوروبية بالمناداة بالحرية والمساواة الفردية وكان أبرز حدث توج تلك الأفكار والتوجهات هو الثورة الفرنسية التي أدت لشيوع وانتشار أفكار الثورة على الإقطاعيين أو رجال الدين في مختلف مناطق القارة. أدى نشوء القوميات -بمعناها الحديث- إلى تعزيز الصراع الدائر بين القوى العظمى في أوروبا على دول العالم الحديث. أشهر تلك الصراعات كانت عند استلام نابليون بونابرت السلطة في فرنسا وأنشأ ما عرف باسم الإمبراطورية الفرنسية التي سرعان ما انهارت.

بعد سقوط نابليون هدأت القارة الأوروبية نسبيا، وبدأ في تلك الفترة انهيار الممالك ونظم الحكم القديمة.

بدأت الثورة الصناعية في المملكة المتحدة في القرن الثامن عشر الميلادي والتي قادت الاقتصاد الأوروبي للتحول تدريجيا من الاعتماد على الزراعة فقط. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى نهاية الحرب الباردة كانت أوروبا مقسمة إلى قسمين سياسيين اقتصاديين رئيسيين اثنين: الشيوعيون في أوروبا الشرقية والرأسماليين في غرب القارة وأجزائها الجنوبية. بسقوط سور برلين وإعادة توحيد ألمانيا قضي على ما كان يسمى المعسكر الشرقي.

فصل تمهيدي

فترة من تاريخ أوروبا الغربية تقع مابين العصور القديمة والعصور الحديثة. قبل العصور الوسطى كانت أوروبا الغربية جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. أما بعد انتهاء العصور الوسطى، فقد اشتملت أوروبا الغربية على ماعرف بالإمبراطورية الرومانية المقدسة، ومملكتي إنجلترا وفرنسا وعلى عدد من الدول الصغرى. وقد عرفت العصور الوسطى أيضًا باسم فترة القرون الوسطى .وتدعى العصور الوسطى أحيانًا خطأ باسم العصور المظلمة .العصور المظلمة.

امتدت العصور المظلمة في الفترة من حوالي القرن الخامس الميلادي إلى القرن الحادي عشر الميلادي؛ حيث كان مستوى التعليم والثقافة خلالها في غاية الانحطاط، وكانت المعلومات الوثائقية حول تاريخ هذه الفترة قليلة ومتأثرة بالخرافات والأساطير.

ويمتد تاريخ العصور الوسطى من سقوط الإمبراطورية الرومانية حتى القرن السادس عشر الميلادي. ولايعطي المؤرخون، في الوقت الحاضر، تواريخ محددة عن نهاية الإمبراطورية الرومانية؛ لأن نهايتها كانت تدريجية وخلال فترة امتدت عدة مئات من السنين. وترى هذه المقالة أن القرن الخامس الميلادي هو بمثابة بداية لتاريخ العصور الوسطى. حيث كانت الإمبراطورية الرومانية، في ذلك الوقت، ضعيفة جدًا، لدرجة أن القبائل الجرمانية كانت قادرة على فتحها. واتحد أسلوب الجرمان في الحياة مع أسلوب الرومان في الحياة، تدريجيًا، وشكلا الحضارة التي نطلق عليها اسم حضارة العصر الوسيط.

البدايات

الغزوات الجرمانية

جاءت الشعوب الجرمانية من إسكندينافيا الواقعة في أوروبا الشمالية. وبدأت هذه الشعوب تتحرك نحو وسط أوروبا في حوالي سنة 1000ق. م. وفي حوالي القرن الثالث الميلادي احتل الجرمان أقاليم في حوضي نهري الراين والدانوب على طول الحدود الشمالية والشمالية الشرقية للإمبراطورية الرومانية. وتبنّى بعض الجرمان حضارة جيرانهم الرومان. كما تاجروا مع التجار الرومان، وتعلموا زراعة الأرض، واعتنقوا النصرانية ديانة لهم.

ولكن معظم الجرمان كانوا شعبًا فظًا وجاهلاً. وأطلق عليهم الرومان اسم الهمجيون (البرابرة) (أناس غير متحضرين). وعاش الجرمان على شكل قبائل يحكم كل منها زعيم. وقامت قوانينهم القليلة على أساس العادات والخرافات القبلية. كان مظهر رجال القبيلة يتسم بالعنف، حيث كانوا ضخام الجسم ويلبسون جلود الحيوانات أو الكتان الخشن. وكانوا يقاتلون بالرماح والتروس، وكانوا محاربين شجعانًا. عاش الجرمان، بصورة أساسية، على الصيد وعلى نمط متخلف للزراعة. وعبدوا آلهة الإسكندينافيين كأودين وثور، وكانت قلة قليلة منهم تستطيع القراءة أو الكتابة.

بدأت القبائل الجرمانية، خلال القرن الخامس الميلادي، بمهاجمة الأراضي الرومانية، حيث كانت الإمبراطورية الرومانية آنذاك قد فقدت الكثير من قوتها الكبيرة، ولم يكن بمقدور جيوشها الدفاع عن حدودها الطويلة. فقد هاجم القوط الغربيون أسبانيا، في حوالي سنة 416م. وبدأ الأنجلز والجوت والسكسون في الاستيطان في بريطانيا نحو سنة 450م. وأسس الفرانكيون (الفرنجة) مملكة لهم في بلاد الغال (فرنسا الحالية) في ثمانينيات القرن الخامس الميلادي. وهاجم القوط الشرقيون إيطاليا في سنة 489م .الأنجلز ؛ الفرانكيون؛ القوط؛ الجوت، قبائل؛ السكسون.

أوروبا البربرية.

قسمت الغزوات البربرية الإمبراطورية الرومانية الهائلة إلى ممالك متعددة، كان البرابرة لايدينون بالولاء إلا لزعماء قبائلهم أو لأسرهم. واحتفظت كل قبيلة بقوانينها وتقاليدها الخاصة. وترتب على ذلك اختفاء الحكومات الرومانية القوية، المركزية منها والمحلية.

دمّرت الغزوات البربرية أيضًا معظم التجارة الأوروبية التي كان قد وضع أساسها الرومان. قلة من الناس هي التي استخدمت تلك الشبكة العظيمة من الطرق المعبدة بالحجارة التي كانت قد شجعت التجارة والاتصالات بين المدن المزدهرة في الإمبراطورية الرومانية. ولولا التجارة لأُبطِل استخدام النقد نهائيًا. وقد اضطر معظم الناس إلى كسب قوتهم من الزراعة.

وقسمت معظم أوروبا الغربية، في حوالي القرن التاسع الميلادي، إلى إقطاعيات كبيرة من الأرض كانت تسمّى الضياع. وحكم هذه الضياع قلة قليلة من ملاك الأرض الأثرياء، أطلق عليهم اسم ملاك الأرض أو السادة. ولكن معظم الشعب كان من الفلاحين الفقراء الذين عملوا في الأرض. وكانت كل قرية في ضيعة من الضياع تنتج كل شيء يحتاجه الناس تقريبًا. وكان يطلق على هذا النظام، في الحصول على قوت العيش مما تنتجه الأرض، اسمنظام الإقطاع الأوروبي .الإقطاع الأوروبي.

الكنيسة.

كانت الكنيسة القوة الحضارية الرئيسية في العصور الوسطى المبكرة في أوروبا الغربية؛ فقد قدمت القيادة للشعب. وقامت، تدريجيًا، بتنصير البرابرة. ومع أن أبناء أوروبا لم يعودوا يدينون بالولاء لحاكم واحد، إلا أنهم بدأوا تدريجيًا يتحدون تحت ظل الكنيسة. وسافر أناس، أطلق عليهم المنصرون، مسافات كبيرة لنشر النصرانية. كما ساعد هؤلاء المنصرون على تحضير البرابرة عن طريق إدخال الأفكار الرومانية المتعلقة بالحكم والعدالة في حياتهم.

وتولّى البابوات والأساقفة، وآخرون من كبار النصارى، وظائف حكومية عديدة، بعد أن فقد الأباطرة الرومان السلطة. وجمعت الكنيسة الضرائب واحتفظت بالمحاكم التشريعية لمعاقبة المجرمين. هذا فضلاً عن أن المباني الكنسية كانت بمثابة مستشفيات للمرضى ونزل للمسافرين.

وأصبحت المؤسستان الكنسيتان ـ الكاتدرائية والدير ـ مركزين للتعليم في العصور الوسطى المبكرة. وكانت الكاتدرائيات كنائس للأساقفة، وكانت الأديرة لمجموعات من الناس، يطلق عليهم اسم الرهبان، قد تخلوا عن الحياة الدنيا اعتقادًا بأنها الطريق لخدمة اللـه بالصلاة والعمل. وساعد رهبان بعض الأديرة ورجال الدين في الكاتدرائيات على استمرار القراءة والكتابة باللغة اللاتينية، وحافظوا على عدد كبير من المخطوطات القديمة النفيسة. كما أنهم قاموا بتشييد معظم المدارس في أوروبا.

الإمبراطورية الكارولنجية.

وحدت هذه الإمبراطورية في أواخر القرن الثامن الميلادي، معظم أوروبا الغربية تحت سلطان حاكم واحد. وكان الكارولنجيون أسرة من ملوك الفرانكيين (الفرنجة) حكمت منذ أواسط القرن الثامن الميلادي حتى سنة 987م. وكان أعظم حكام الفرنجة أهمية هم شارل مارتل وابنه ببين وشارلمان بن ببين.

وحَّد شارل مارتل مملكة الفرانكيين في أوائل القرن الثامن الميلادي، وذلك عندما استولى على أراض كانت في قبضة سادة فرانكيين أقوياء. كما وطد ببين القصير سيطرة الكارولنجيين على المملكة الفرانكية. وفي سنة 768 م أصبح شارلمان حاكمًا على المملكة. وفتح شارلمان معظم أوروبا الغربية، ووحد أوروبا لأول مرة منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية.

واعتمد الحكام الفرانكيين، في إقامة إمبراطوريتهم، على مساعدة النبلاء الموالين لهم، والذين كان يطلق عليهم اسم المقطعين التابعين .وكان النبيل يصبح مقطعًا تابعًا

عندما يتعهد بالولاء للملك، ويقطع وعدًا على نفسه بالقيام على خدمته. وكان الملك يصبح بالتالي سيدًا على تابعه. وقد شغل معظم الأتباع مناصب مهمة في جيش الملك، وخدموا فرسانًا .كما كان لدى عدد كبير منهم فرسانهم الذين كانوا قد تعهدوا، بدورهم، بتقديم خدماتهم إلى الملك أيضًا.

وصلت العصور الوسطى المبكرة إلى أوجها خلال العهد الطويل لشارلمان. فقد عمل شارلمان على حماية الكنيسة من أعدائها، والحفاظ على وحدة الشعب الأوروبي في ظل الكنيسة. ومع أن شارلمان لم يتعلم الكتابة إطلاقًا إلا أنه أسهم، دون شك، في تحسين التعليم. فقد أسس مدرسة في قصره، في عاصمته آخن. وحشد فيها معلمين من أنحاء أوروبا كافة. ولقد نظم هؤلاء المعلمون المدارس والمكتبات، ونسخوا المخطوطات القديمة. وقد أدت هذه النشاطات إلى ظهور اهتمام جديد بالتعليم دعي باسم النهضة الكارولنجية .شارلمان.

لم تستمر إمبراطورية شارلمان والنهضة التعليمية طويلاً بعد موته. حيث قاتل أحفاده الثلاثة بعضهم بعضًا من أجل اللقب الإمبراطوري. وقسمت المعاهدة، التي وقعت في مدينة فردان سنة 843 م الإمبراطورية إلى ثلاثة أقسام، بحيث نال كل حفيد قسمًا منها. وسرعان ما هاجم المسلمون والمجر والفايكنج الإمبراطورية المجزأة. وفي أواخر القرن التاسع الميلادي لم يعد للإمبراطورية الكارولنجية وجود.

أوروبا الإقطاعية

النظام الإقطاعي.

قسمت أوروبا ثانية، بعد سقوط إمبراطورية شارلمان، إلى عدد كبير من الممالك. وكانت سلطة معظم الملوك على ممالكهم واهية. وترتب على ذلك أن مئات من المقطعين التابعين ـ الذين كانوا يحملون ألقابًا مثل: الأمير أو البارون أو الدوق أو الكونت ـ أصبحوا حكامًا مستقلين في إقطاعاتهم الخاصة. وحكم هؤلاء النبلاء إقطاعاتهم من خلال شكل من الحكم عرف بالنظام الإقطاعي.

وتمتع النبلاء الذين سيطروا على الأرض، في ظل النظام الإقطاعي، بسلطة سياسية واقتصادية وقضائية وعسكرية. وكان كل نبيل من النبلاء يجمع الضرائب والغرامات، ويقوم بدور القاضي في المنازعات القانونية، ويحتفظ بجيش من الفرسان داخل منطقته. كما أنه أشرف على زراعة الضياع في إقطاعه. وكان أصحاب الإقطاعات هؤلاء هم الطبقة الحاكمة في أوروبا لمدة تزيد على 400سنة.

كان العضو النموذجي للطبقة الحاكمة، في ظل النظام الإقطاعي هو النبيل والفارس والمقطع التابع والسيد، في آن واحد. وكان النبيل نبيلاً لأنه ولد في طبقة نبيلة. ويصبح فارسًا عندما يقرر أن يقضي حياته محاربًا محترفًا، ويضحي مقطعًا تابعًا عندما يتعهد بخدمة ملك أو شخصية مهمة أخرى مقابل الإقطاعة التي خصصت له، ويصبح في نهاية المطاف سيدًا، عندما يعطي جزءًا من الأراضي المقطعة له إلى أشخاصٍ يتعهدون بخدمته.

كان للسيد ومقطعه التابع حقوق وواجبات تجاه بعضهما بعضًا؛ فالسيد يتعهد له بالحماية والعدالة، وهو يقدم للسيد خدمات متنوعة، معظمها خدمات عسكرية. كانت الحرب الإقطاعية أمرًا شائعًا في أوروبا. إذا أدى كل من السيد والمقطع التابع واجباتهما، يعم السلام والحكم الصالح. ولكن إذا أخل أحدهما بواجباته تجاه الآخر كانت الحرب تندلع بينهما. كما حارب السادة بعضهم بعضًا؛ وذلك لأنهم كانوا يحاولون، في معظم الأحيان، الاستيلاء على أراضي بعضهم بعضًا، وكانت الكنيسة ـ التي كان لها أمراؤها وإقطاعاتها الخاصة ـ جزءًا من النظام الإقطاعي، وبالتالي فقد عانت هي أيضًا الحرب الإقطاعية .الإقطاع.

الحكم الإقطاعي.

انقسمت معظم أوروبا، خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، إلى دول إقطاعية. وكان يحكم كل دولة من هذه الدول سيد قوي وكأنه ملك عليها. ولم يحكم الملوك أنفسهم سوى أراضيهم الملكية الخاصة.

ففي فرنسا لم يحكم الملك سوى المنطقة التي دعيت باسم جزيرة فرنسا (إيل دو فرانس)، وهي قطاع ضيق من الأرض، كان آنذاك يقع بالقرب من باريس. أما بقية فرنسا فقد قسمت إلى دول إقطاعية، مثل أكيتين وأنجو وبريتاني وفلاندر ونورمنديا. ولم يكن في بعض الدول الإقطاعية سيدٌ يملك من القوة مايكفي ليقيم حكمًا قويًا. بينما استطاع السادة الأقوياء، في كل من آنجو والفلاندر ونورمنديا، أن يقيموا حكومات قوية. وقد احتفظ دوقات نورمنديا بسيطرة محكمة على النبلاء الذين يعيشون فيها؛ حيث لم يكن بإمكان أحد من هؤلاء النبلاء بناء قلعة أو جمع ضرائب أو القيام بتجارة منتظمة أو بإجراء محاكمات مهمة في بلاطه دون إذن من الدوق. وكان الدوق وحده الذي يستطيع أن يصدر الأمر للجيش بدخول معركة.

أصبحت إنجلترا في عهد وليم الفاتح، أقوى دولة إقطاعية في أوروبا. وكان وليم هذا دوقًا على نورمنديا، ثم هاجم إنجلترا سنة 1066م. وبعد أن هزم جيش الأنجلو ـ سكسون أصبح ملكًا على إنجلترا. ومن ثم أسس النظام الإقطاعي في إنجلترا بأن جعل ملاك الأراضي كافة مقطعين تابعين له .النورمندي، الغزو؛ نورمنديا.

لقد حققت الحكومات القوية، التي قامت في الدول الإقطاعية في كل من فرنسا وإنجلترا، بعض السلم والأمن للناس. أتاح الحكم الإقطاعي القوي للحكام، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، إقامة حكومات مركزية قوية في كل من فرنسا وإنجلترا.

لم يوفر النظام الإقطاعي الذي قام في كل من ألمانيا أو إيطاليا حكمًا قويًا، وذلك لأن الدوقات الأقوياء قاتلوا الملوك لمئات السنين. وقد حقق أوتو الأول، وهو واحد من أقوى الملوك الجرمان، سيطرة على الدوقات الآخرين في أواسط القرن العاشر الميلادي. ومن ثم حاول إقامة إمبراطورية مشابهة لإمبراطورية شارلمان. وبعد أن فتح أوتو أراضي تقع في شرقي ألمانيا، هاجم إيطاليا. وفي سنة 962م صار البابا إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا. ولكن ماعرف بالإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت

صغيرة وضعيفة واشتملت على ألمانيا وإيطاليا الشمالية فقط. وحاول دوقات ألمانيا، في وقت لاحق، السيطرة ثانية على ممالكهم، وبالتالي فقد كانت الإمبراطورية تنقسم بشكل متواصل بسبب الحروب الدائرة. ولم تحقق ألمانيا ولا إيطاليا وحدة لأراضيها حتى القرن التاسع عشر الميلادي.

سلطة الكنيسة.

أصبحت سلطة الكنيسة القوة الوحيدة الكبيرة التي ربطت أوروبا مع بعضها خلال الفترة الإقطاعية. فقد مست الكنيسة حياة كل فرد تقريبًا بأشكال عديدة ومهمة. فكانت تُعمِّد الفرد عند ولادته، وتقوم بمراسيم الزفاف عند زواجه، وتتولى مراسيم الدفن عند وفاته.

كما أصبحت الكنيسة أكبر مالك للأرض في أوروبا الغربية في العصور الوسطى؛ فقد منح عدد من السادة الإقطاعيين إقطاعات إليها مقابل خدمات يؤديها رجال الدين. وفي البداية هيمن السادة الإقطاعيون على الكنيسة، ولكن ظفرت الأخيرة، تدريجيًا، بقسط كبير من الحرية.

وعلى الرغم من أنه لم يكن لرجال الدين دور مباشر في الحروب الإقطاعية، إلا أنهم سيطروا على السادة بما كان لديهم من أنواع الأسلحة الأخرى الخاصة بهم. فكان الحرمان الكنسي (أي الطرد من الملة النصرانية) واحدًا من أعظم أسلحة الكنيسة. إذ إن طرد شخص من الملة النصرانية يعني فصله فصلاً كاملاً من الكنيسة، وحرمانه من أمل الذهاب إلى الجنة الموعود بها في نظرهم. وإذا استمر أحد السادة في التمرد بعد هذا الطرد، فإن السلطة الدينية تأمر بإغلاق كل الكنائس الموجودة في أرضه. وعندئذ لايستطيع أي إنسان يعيش في تلك الأرض، أن يتزوج أو أن يدفن بمباركة الكنيسة. كما أن أجراس الكنائس لاتقرع إطلاقًا فيها. وكان الناس ـ والحالة هذه ـ يتذمرون تذمرًا شديدًا إلى حد التمرد، الأمر الذي كان يجبر ذلك السيد، في نهاية المطاف، على الإذعان للكنيسة.

حياة الناس.

كانت أوروبا، خلال القرن العاشر الميلادي فقيرة ومتخلفة وقليلة السكان. ولم يكن بالإمكان زراعة نصف الأراضي، على الأقل، لكثافة الغابات والمستنقعات. أدت الحروب والأمراض والمجاعات وانخفاض نسبة المواليد إلى إبقاء السكان قليلي العدد. ولم يكن متوسط عمر الفرد سوى ثلاثين سنة. وكان السفر أو الاتصال قليلاً، وأقل من 20% من السكان هم الذين كانوا يذهبون لمسافة أبعد من 16كم عن مسقط رأسهم.

كان شعب أوروبا الغربية، في العصور الوسطى، يتألف من ثلاث فئات هي :السادة) اللوردات) الذين حكموا إقطاعات كبيرة وكان عملهم القتال.ورجال الدين الذين كانوا في خدمة الكنيسة .والفلاحون الذين كانوا يعملون في الأرض لكسب لقمة العيش لأنفسهم ولرجال الدين والسادة.

السادة. كان القتال محور حياة السيد؛ فقد اعتقد السيد أن الأسلوب الوحيد المشرِّف للحياة هو أن يكون المرء محاربًا محترفًا. وقاتل السادة وفرسانهم، وهم يلبسون الدروع الثقيلة، ويمتطون الخيول الحربية الضخمة، بالرماح أو السيوف الثقيلة.

وأصبح سلوك المقاتلين كافة محكومًا، تدريجيًا، بنظام عرف بنظام الفروسية .وكان نظام الفروسية يتطلب من الشخص الذي ينال لقب الفارس أن يخضع لفترة تدريب طويلة وشاقة. وكان يفترض في الفارس أن يكون شجاعًا في ميدان القتال، وأن يقاتل وفقًا لقواعد محددة، وأن يفي بوعوده، وأن يدافع عن الكنيسة. كما يشتمل نظام الفروسية على قواعد لحسن السلوك مع النساء. وكان السيد وفرسانه في أوقات السلم يستمتعون بالتدرب استعدادًا للحرب، حيث كانوا يشاركون في المطاعنات) بين فارس وآخر) والمبارزات) بين مجموعة من الفرسان وأخرى.(الفرسان والفروسية.

كان السيد يعيش في بيته الإقطاعي أو القلعة. وكانت القلاع الأولى حصونًا بسيطة محوطة بأسيجة من جذوع الأشجار. أما الحصون التي شيدت، فيما بعد، فقد

كانت ضخمة، وتم بناؤها من الحجر. وكان السيد وفرسانه يتناولون طعامهم وشرابهم ويقامرون في القاعة الرئيسية للقلعة بجانب المواقد. وكان هؤلاء جميعًا يمارسون لعبة النرد والشطرنج.

وكانت السيدة(الليدي) زوجة السيد، تتدرب على الخياطة والغزل والنسج، والإشراف على خدم المنزل، وكانت تتمتع بحقوق قليلة. وكان بإمكان السيد أن ينهي زواجه منها إذا لم تنجب له ولدًا واحدًا على الأقل. ولم يكن يرى السادة ولا السيدات أن التعليم أمرٌ ضروري، وبالتالي فإن قلة قليلة منهم كانت تستطيع القراءة والكتابة.

رجال الدين. كان معظم الأساقفة ورجال الدين، ذوي المراتب العليا، من النبلاء الذين كرَّسوا حياتهم للكنيسة. وحكموا إقطاعات كبيرة، وعاشوا كما كان يعيش النبلاء الآخرون تمامًا. وكان بعضهم في مستوى ثراء وسلطة أكبر السادة العسكريين.

كان الرهبان، الذين يعيشون في أي دير من الأديرة، مطالبين بأن يعيشوا وفقًا لقواعد ذلك الدير؛ فقد كان عليهم أن يمضوا عددًا محددًا من الساعات كل يوم في الدراسة والصلاة والقيام بجزء من المراسيم الدينية. وكان يغادر الدير بعض الرهبان، الذين كانوا من العلماء البارزين، ويصبحون مستشارين للملوك أو غيرهم من الحكام.

وعمل عدد من الفلاحين، الذين أصبحوا في سلك رجال الدين، قساوسة في القرى. وعاش قس القرية في كوخ صغير قرب كنيسته. وكان يقدم النصيحة والعون للفلاحين، ويسوِّي المنازعات فيما بينهم، ويقوم بالطقوس الكنسية. وكان القساوسة يجمعون أجور التعميد والزواج والدفن. ولكن معظم القساوسة كانوا فقراء مثل الفلاحين الذين يقومون على خدمتهم.

الفلاحون. كانت حقوق الفلاحين قليلة جدًا، وعاشوا تحت رحمة سادتهم بشكل كامل تقريبًا. وكانت أسرة الفلاح تعمل مع بعضها في زراعة حقول السيد وحقولها. كما قام الفلاحون بإنجاز الأعمال كافة التي كان يطلبها السيد منهم، مثل قطع الخشب وتخزين الحبوب أو إصلاح الطرق والجسور.

عاش الفلاحون في أكواخ بسيطة، وكانوا ينامون على أكياس مملوءة بالقش. ويأكلون الخبز الأسمر والبيض والدواجن والخضراوات، مثل الكرنب واللفت، ونادرًا ما كان باستطاعتهم شراء اللحم. كما لم يكن باستطاعتهم الصيد أو صيد السمك؛ لأن ملكية الطرائد في الإقطاع كانت تعود للسيد

العصور الوسطى الراقية

بلغت حضارة العصور الوسطى أوجها في الفترة الواقعة مابين القرن الحادي عشر والقرن الثالث عشر الميلادي. ويطلق على هذه الفترة اسمالعصور الوسطى الراقية.

تمكن عدد من السادة الأكفاء، خلال القرن الحادي عشر الميلادي، من إقامة حكومات قوية وتوفير فترات من السلام والأمن، في ظل النظام الإقطاعي. ونتيجة لهذا فقد كان بإمكان الناس أن يكرسوا أنفسهم لأفكار ونشاطات جديدة.

الانتعاش الاقتصادي.

تحسَّنت الظروف الاقتصادية بتحسن نظام الحكم؛ حيث أخذ التجار يرتحلون من جديد على الطرق البرية والمائية القديمة في أوروبا. ونشأت المدن على طول الطرق الرئيسية للتجارة. وبرزت معظم المدن الباكرة قرب القلعة المحصنَّة أو الكنيسة أو الدير. حيث كان بمقدور التجار حطّ الرحال قرب هذه الأماكن للحماية. واستقرّ في المدن تدريجيًا كل من التجار والحرفيين، الذين كانوا يصنعون السلع التي يبيعها هؤلاء التجار.

بدأ سكان أوروبا بالتزايد خلال القرن الحادي عشر الميلادي. وارتحل عدد كبير منهم إلى المدن بحثاً عن العمل. وبدأ الفلاحون، في الوقت نفسه، بمغادرة الضياع بحثًا عن حياة جديدة. وأصبح بعض هؤلاء الفلاحين تجارًا وحرفيين، في حين قام بعضهم الآخر بزراعة الأراضي الواقعة خارج المدن، وزودوا سكانها بالمواد الغذائية. وقد شجَّعت مدن العصور الوسطى التجارة، التي كانت قد برزت بشكل رئيسي نتيجة لنمو التجارة، فاشترى سكان المدن السلع، وأنتجوا سلعًا ليبيعها هؤلاء التجار بدورهم.

تعلّم الفلاحون أساليب تتعلق بالزراعة أفضل من قبل، وذلك بفضل اتصالهم بالمسلمين، وأنتجوا مواد غذائية بصورة متزايدة لمواجهة النمو السكاني. وبدأ الفلاحون في استخدام الطاقة المائية لتدوير طواحين الحنطة ومناشر الخشب. فاستصلحوا أراضي للزراعة، بقطع الغابات وتجفيف المستنقعات.

أخذ الأوروبيون، ولأول مرة منذ أيام الإمبراطورية الرومانية، يهتمون بالعالم الواقع خلف حدودهم. فقد ارتحل التجار بعيدًا للمتاجرة مع شعوب الإمبراطورية البيزنطية في جنوب شرقي أوروبا. كما شجّعت الحروب الصليبية التجارة الأوروبية مع الشرق الأوسط .الحروب الصليبية.

وبنى الإيطاليون، في كل من جنوه وبيزا والبندقية وغيرها من المدن، أساطيل ضخمة من السفن لحمل سلع التجار، عبر البحر المتوسط، إلى المراكز التجارية في كل من أسبانيا وشمالي إفريقيا. وكان الإيطاليون يجلبون معهم ـ بالمقابل ـ سلعًا من تلك الموانئ البحرية. كما كانت تصدر سلع كثيرة من مدن في كل من الهند والصين. وقد شكل زعماء في مدن شمالي ألمانيا العصبة الهنزية لتنظيم التجارة في أوروبا الشمالية.

وتبادل التجار سلعهم، في السوق التجارية الدولية الكبرى، التي كانت تقام في المدن الواقعة على طول الطرق التجارية الأوروبية الرئيسية. وكانت كل سوق تقام في وقت مختلف عن الآخر من كل سنة. وكان التجار يرتحلون من معرض إلى آخر. لقد

أصبحت مقاطعة شمبانيا، الواقعة في الشمال الشرقي من فرنسا، مكانًا لأولى الأسواق الأوروبية الكبرى، فمدن شمبانيا تقع على الطرق التجارية التي تربط إيطاليا بأوروبا الشمالية. جلب التجار الفلمنكيون الأقمشة الصوفية إلى هذه المعارض. وجلب التجار الإيطاليون الحرير والتوابل والعطور من الشرق الأوسط والهند والصين. كما جلب تجار من أوروبا الشمالية والشرقية الفراء والخشب والأحجار الكريمة. لم يقتصر نشاط التجار على نقل سلعهم فحسب، وإنما تبادلوا أيضًا الأفكار حول الطرائق الجديدة المتعلقة بالزراعة والصناعات الحديثة والأحداث، التي تقع في أوروبا وبقية العالم.

مدن العصور الوسطى.

كانت المدن الأولى مجرد مستوطنات صغيرة تقع خارج أسوار قلعة أو كنيسة. وعلى اعتبار أن المدن الصغيرة قد نمت، وأصبحت كبيرة، فقد تم بناء الأسوار حولها. وقام الجنود على الأسوار بالسهر على مراقبة الجيوش المغيرة. وسرعان ما ازدحمت المدن؛ لأن الأسوار حددت مساحة الأرض المتاحة للسكن. وانتصبت المباني متجاورة بصورة مكتظة. واضطر السكان أن يبنوا بيوتهم في طوابق، نظرًا لأن الأرض كانت باهظة الثمن. وكان العديد من المباني مؤلفة من خمسة أو ستة أدوار.

كانت الشوارع ضيقة ومتعرِّجة ومظلمة وقذرة، كما أنها لم تكن، حتى القرن الثالث عشر الميلادي، قد رصفت بعد. وكان السكان يرمون كل نفاياتهم وقماماتهم في الشوارع، وانتشرت الأمراض بسرعة. وبدأ السكان في بعض المدن خلال القرن الثالث عشر الميلادي برصف شوارعهم بحصى خشن. كما اتخذوا بعض الخطوات التي استهدفت زيادة الاهتمام بالصحة العامة.

كان المواطن الذي يخرج خلال الليل يصطحب معه خدمه لحمايته من اللصوص. وكان يحمل هؤلاء الفوانيس والمشاعل لانعدام الإضاءة في شوارع المدينة كلها. إن الاستخدام الواسع للفوانيس والمشاعل والشموع جعل الحريق واحدًا من

أكبر الأخطار التي تهدد المدينة في العصور الوسطى. وإذا كان المواطنون الأثرياء يملكون بيوتًا من الحجارة والقرميد، إلا أن معظم البيوت كانت مصنوعة من الخشب. وكان من الممكن بالنسبة إلى حريق هائل أن يمسح مدينة بأكملها من الوجود. فمدينة رون بفرنسا احترقت جميعها ست مرات ما بين 1200م و 1225م.

بعد أن استقر التجار والحرفيون في المدن قاموا بتأسيس تنظيمات أطلق عليها اسم النقابات .وقد حمت النقابة أعضاءها من الممارسات الجائرة التي يتعرضون لها في عملهم. وثبتت الأسعار والأجور، وسوت المنازعات بين العمال وأرباب العمل.

وقد أدت النقابات دورًا مهمًا في إدارة المدينة، فعندما تم تنظيم أولى النقابات لم يكن في المدن سوى قوانين قليلة لحماية التجار والحرفيين. وكان السيد ـ الذي يملك الأرض التي قامت عليها المدينة ـ يقوم بسن القوانين وفرضها على السكان. وعندما كان سكان المدينة يظفرون بالسلطة، فإنهم كانوا يطالبون بحق حكم أنفسهم بأنفسهم. وكانت النقابة، في حالات كثيرة، تجبر السيد على منح الشعب براءة تمنحه بعض حقوق الحكم الذاتي. وقادت النقابات نضال سكان المدن من أجل الحكم الذاتي، وأسهم أعضاؤها، في كثير من الأحيان، بإدارة الحكومات الجديدة للمدينة

النقابات

اضمحلال النظام الإقطاعي

أدى الانتعاش الاقتصادي إلى تغيرات كثيرة تتعلق بالتنظيم الاجتماعي والسياسي لأوروبا؛ فقد عادت الأموال للاستخدام مع نمو التجارة والصناعة ونشوء المدن والحروب الصليبية. وأخذ النظام الإقطاعي في الاضمحلال بسبب قلة اعتماد الناس على الأرض. وفرّ عدد كبير من الفلاحين من الضياع إلى المدن. كما اشترى فلاحون آخرون حريتهم بالمال الذي جمعوه ببيع المواد الغذائية لسكان المدن. وشجّع سادة بعض المدن المستوطنين الجدد للقدوم إلى مدنهم. كما منح عدد كبير من السادة الحرية للفلاحين الذين استقروا في مدنهم.

بدأ النظام الإقطاعي الذي تأسس على مبدأ نظام الضيعة في الاضمحلال أيضًا. وأصبح بمقدور السادة الحاكمين دفع الأموال للحصول على الخدمة العسكرية والسياسية بدلاً من أن يمنحوا الإقطاعات؛ حيث مكنتهم ثروتهم من دفع أجور أفضل للجند والموظفين الذين يستأجرونهم. وقد حصل السادة بالمقابل على خدمات أفضل. وبالتالي غدا هؤلاء السادة وحكوماتهم أكثر قوة

التعليم والفنون.

كرّس التعليم والفنون، خلال العصور الوسطى الراقية، لتمجيد الإله وتعزيز سلطة الكنيسة. وعكست الأفكار والإنجازات الفنية، في الفترة مابين سنة 1100 و1300م تأثير الكنيسة.

أسهم كل الأمراء والعمال على السواء بالأموال لبناء الكاتدرائيات الحجرية التي شمخت فوق مدن العصور الوسطى. وقد صورت النوافذ الزجاجية الملونة، والأشكال المنحوتة التي زخرفت الكاتدرائيات، أحداثًا مما ظن أنه من حياة السيد المسيح، فضلاً عن قصص أخرى مستمدة من نسخة الإنجيل التي بين أيديهم. ولاتزال

الكاتدرائيات الموجودة حاليًا في المدن الفرنسية، مثل تشارتر وريمس وأميان وباريس، تذكر بإيمان شعوب العصور الوسطى بالنصرانية.

وأعاد الاحتكاك المتزايد مع الحضارتين الإسلامية والبيزنطية قدرًا كبيراً من المعرفة، التي كانت قد فقدتها أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية؛ فقد ترجم بعض العلماء كتابات عربية وإغريقية إلى اللغة اللاتينية ودرسوا معانيها. وغدا الكثير من العلماء على دراية بمؤلفات الفيلسوف الإغريقي أرسطو بفضل شروح الفيلسوف العربي ابن رشد وغيره من العلماء العرب والمسلمين. وتناقش العلماء فيما إذا كانت تعاليم أرسطو تعارض تعاليم الكنيسة. وقد ظهر من جراء مناقشات هؤلاء العلماء وكتاباتهم ميدان فكري أطلق عليه اسم المدرسية .المدرسية .وكان من بين كبار الأساتذة والكتاب في هذه الفترة كل من بيتر أبيلارد، وألبرت الكبير، وتوما الأكويني.

احتشد الطلاب في الكاتدرائيات، حيث كان يحاضر هؤلاء العلماء. وشكل الطلاب والعلماء تنظيمات دعيت بالجامعات .وكانت تشبه نقابات الحرفيين. وتخرج في هذه الجامعات رجال قاموا بخدمة الكنيسة والدول الجديدة وممارسة القضاء والطب وكتابة الأدب والتعليم.

العصور الوسطى المتأخرة

فسحت أوروبا العصور الوسطى تدريجيًا الطريق لظهور أوروبا الحديثة، وذلك مابين 1300 و1500م. وتداخلت العصور الوسطى، خلال هذه الفترة، مع فترة من التاريخ الأوروبي المعروفة بعصر النهضة .حول مناقشة التطورات الكبيرة في الفن والتعليم خلال هذه الفترة، عصر النهضة.

توقُّف التقدم.

على الرغم من التقدم الذي حدث في ميدان الفن والتعليم، إلا أن هناك حقولاً أخرى في حضارة العصور الوسطى، ظلت على حالها أو تراجعت. لقد

تقدمت أوروبا إلى الأمام اقتصاديًا واجتماعيًا، دون انقطاع، تقريبًا، خلال العصور الوسطى الراقية؛ حيث استمر السكان في التزايد بشكل ثابت، وتحسنت الظروف الاجتماعية، وتوسعت الصناعة والتجارة توسعًا كبيرًا. ولكن هذه التطورات انتهت جميعها في القرن الرابع عشر الميلادي؛ حيث تناقص عدد السكان، وساد التذمر أوساط الشعب، وانكمشت الصناعة والتجارة.

أدت الحروب والكوارث الطبيعية دورًا كبيرًا في توقف التقدم الأوروبي؛ فقد اندلعت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا، التي استمرت منذ عام 1337م حتى عام 1453م. وأعاقت هذه الحرب التجارة واستنفدت اقتصاديات الأمتين .حرب المائة عام .كما أدى تحلل النظام الإقطاعي ونظام الإقطاع الأوروبي إلى حروب أهلية في شتى أرجاء أوروبا تقريبًا. وقام الفلاحون بثورات دموية للحصول على الحرية من السادة، كما قاتل العمال في المدن التجار الأثرياء الذين أبقوهم فقراء بلا حول ولا قوة.

وزاد في شقاء الناس ماعرف بالموت الأسود الذي أودى بحياة ربع سكان أوروبا، تقريبًا، مابين سنة 1347 وسنة 1350م. والموت الأسود هو شكل من أشكال الطاعون الدبلي، وكان واحدًا من أسوأ الأوبئة. كما جلبت سنوات القحط القاسية والفيضانات الموت والمرض والمجاعة.

تطور السلطات الملكية.

أضعف انهيار النظام الإقطاعي في القرن الرابع عشر الميلادي (1300 وما بعدها) النبلاء الإقطاعيين إلى حد بعيد. وفي الوقت نفسه فإن الازدهار الاقتصادي قد أثرى الملوك. وبمساعدة الجيوش المؤجرة فرض الملوك سلطاتهم على النبلاء. أما المشاة الملكية التي سُلِّحت حديثًا بأقواس طويلة، وبرماح كانت تسمى بايكس وبالمدافع، فإنها استطاعت أن تهزم جيوش الفرسان الإقطاعيين.

وفي الوقت نفسه فإن الملوك زادوا كثيراً من قوتهم وذلك عن طريق كسبهم لمساندة الطبقة الوسطى في المدن، فقد وافق سكان المدن على مؤازرة الملك وذلك بدفع ضرائب مقابل الحصول على أمن وسلام وحكومة جيدة. وكان من نتيجة هذه التطورات أن ولدت أوروبا الحديثة.

اضطرابات في الكنيسة.

تنامت سلطة البابوات مع تنامي سلطة الملوك، الأمر الذي أدى إلى ظهور نزاعات مريرة بين حكام الكنيسة وحكام الدولة. وأدى رجال الكنيسة دورًا متزايدًا في الشؤون السياسية، وكثر تدخل الملوك في شؤون الكنيسة. وكان البابوات يتنازلون أحيانًا عن استقلالهم ويستسلمون للملوك. وقد حدث هذا بخاصة مابين سنة 1309م وسنة 1377م؛ وذلك عندما حكم البابوات الكنيسة من مدينة أفينيون بفرنسا. وبعد أن عاد البابوات إلى روما تمزقت الكنيسة بسبب المنازعات الدائرة حول انتخاب البابوات؛ حيث ادعى اثنان، وفي بعض الأحيان ثلاثة، اللقب البابوي. وألحقت مثل هذه المنازعات الضرر بنفوذ الكنيسة، كما أدت إلى توجيه النقد لشؤون الكنيسة والتعاليم الكنسية. وضعفت الوحدة الدينية لأوروبا الغربية، وقادت إلى الإصلاح الكنسي الذي حدث في القرن السادس عشر الميلادي .البابا؛ النصرانية.

ظهور النزعة الإنسانية.

كان العلماء والفنانون خلال العصور الوسطى المتأخرة أقل اهتمامًا بالفكر الديني، وتركز اهتمامهم أكثر على فهم الناس والعالم. وقد أطلق على وجهة النظر الجديدة هذه اسم النزعة الإنسانية .وكان علماء الإغريق والرومان القدامى وفنانوهم قد ركزوا على الدراسات الإنسانية. أما علماء العصور الوسطى المتأخرة وفنانوها، فقد أعادوا اكتشاف المؤلفات القديمة واستوحوا منها إلهامًا. وبدأ المعماريون في تصميم أبنية غير دينية أكثر من تصميم الكاتدرائيات. وبدأ الرسامون والنحاتون بتمجيد

الإنسان والطبيعة في أعمالهم. وكانت دراسة أعمال المؤلفين الذين عاشوا في العصور السابقة للنصرانية مدعاة لبهجة العلماء. وخلال العصور الوسطى المتأخرة تزايد عدد كتاب الشعر والنثر لا باللغة اللاتينية، وإنما باللغات المحلية، بما في ذلك الفرنسية والإيطالية. وقد فتح هذا الاستخدام المتزايد للغات المحلية عصرًا أدبيًا جديدًا وقدم تدريجيًا التعليم والأدب إلى عامة الشعب.

تأثرت أوروبا تدريجيًا بالمتغيرات السياسية والاقتصادية والثقافية التي حدثت في العصور الوسطى المتأخرة. ومع أوائل القرن السادس عشر الميلادي لم يعد هناك عصر وسيط. لكن ثقافة العصور الوسطى ومؤسساتها ظلت تؤثر في التاريخ الأوروبي الحديث.

وبغرض مناقشة التطورات السياسية في أوروبا الغربية أثناء فترة العصور الوسطى، النمسا؛ بلجيكا؛ إنجلترا؛ فرنسا؛ ألمانيا؛ إيطاليا؛ هولندا؛أسبانيا؛ سويسرا.

والعصور الوسطي والعصور المظلمة

هو مصطلح يستخدم للدلالة على العصور الوسطى في أوروبا وهي الفترة ما بين الأعوام 400 - 1400 تقريبا. العالم الإيطالي فرانسيسكو بتراركا وضع هذا المصطلح منتقدا الأدب اللاتيني المتأخر ،والمؤرخ الإنجليزي جيبون وصف العصور المظلمة بألف سنة من الهمجية والدين. لاحقا قام المؤرخون بتوسيع المصطلح ليشمل أيضا غياب الكتابات التاريخية وانعدام الإنجازات الحضارية المادية والانحطاط في مختلف المجالات، ولم يبقى من معارف الاغريق والرومان التي ازدهرت في أوروبا سوى القليل محصورا بين الاديره والكاتدرائيات وبلاطات الحكام، وتميزت العصور المظلمه بتفشي الجهل والتزمت الديني الشديد وتعاظم دور الكنيسة في مختلف مجالات الحياة و أيضاً بانتشار الحروب العسكرية بين الشعوب الاروبية و الجرمانية.

العصور الوسطى أو القرون الوسطى في التاريخ الأوروبي هي التسمية التي تُطلق على الفترة التي امتدت من القرن الخامس حتّى القرن الخامس عشر الميلادي. حيث بدأت بانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية واستمرّت حتى عصر النهضة

والاستكشاف. وتعتبر فترة العصور الوسطى هي الفترة الثانية بين التقسيمات التقليدية للتاريخ الغربي: الفترة القديمة، والوسطى، والحديثة. وتنقسم العصور الوسطى نفسها إلى ثلاثة فَترات: الفترة المُبكّرة، والمتوسّطة، والمُتأخّرة.

في أواخِر العصور القديمة، بدأ السُكان بالهجرة والنزوح، وقلّ أعدادُهم، وقد استمرّت هذه الحالة في بدايات العصور الوسطى. وقد أقام الغزاة البرابرة، بالإضافة إلى العديد من الشعوب الجرمانية، ممالك جديدة على ما تبقى من الإمبراطورية الرومانية الغربية المنهارة. وخلال القَرن السابِع عشر في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا اللتان كانتا ذات يوم جُزءاً من الإمبراطورية الرومانية الشرقية أصبحتا تحت حُكم الدولة الأمويّة. وقد استمرّت الإمبراطورية البيزنطية لفترةٍ في الشَرق وبَقيَت كأحد القوى العُظمى هُناك.

اتّحدت مُعظَم المَمالِك في الغَرب بالمؤسّسات السياسية الرومانية القليلة التي كانت موجودةً آنذاك. وقد بُنيَت الأديرة على نِطاقٍ واسِعٍ كحملاتٍ لتنصير أوروبا الوثنيّة. كما ظَهرت في أواخِر القرن الثامن وبدايات القرن التاسِع الإمبراطورية الكارولنجية تحت سُلالَة الكارولنجيون الإفرنج، وقد غطّت مُعظَم أراضي أوروبا الغربيّة، ولكنّها انهارَت على وَقع الحروبِ الأهليّة إلى جانِب الغزوات الخارجيّة من فالفايكنج في الشمال والمجريّون من الشرق والسارسيون من الجنوب.

تزايد عددُ سُكّان أوروبا بشكل كبير خِلال الفترة المتوسّطة التي بدأت بعد عام 1000 ميلاديّاً بسببِ الإبتكارات التكنولوجية والزراعية التي سمحت بازدهار التجارة متصاحبة بحقبة القروسطية الدافئة التي سمحت بإزدياد المنتوج الزراعي. وقد كانَت المانورالية -وهي عملية تنظيم الفلاحين في قرى مدينة بالعمل والإيجار للنبلاء- والإقطاعيّة -وهي النظام السياسي حيث كان الفرسان والنبلاء من المستوى المتندني مدينون بالخدمة العسكرية للأسياد في مقابل الحق بإستئجار الأراضي والضيع- كانَ هَذان المَذهبان المُتّبعان في تنظيم المجتمعات خلال افترة المُتوسّطة من العصور الوسطى.

تخلّلت تلك الفترة كذلك ما يُعرف الآن بالحملات الصليبيّة، وكانَت بدايةُ التبشير بها عام 1095، وكانَت عبارَة عن مُحاولاتٍ عَسكريّة من مسيحيي غَربِ أوروبا للسَيطَرة على الأراضي المُقدّسة الشرق أوسطية من المسلمين. أمّا الحياةُ الفكريّة فقد تأثرت بالفلسفة المدرسية القائمة على ربط العقل بالإيمانيات. ومن أبرَزِ إنجازات ومشاهير تلك الفترة كان لاهوت وفلسفة توما الأكويني، ولوحات جوتو، وأشعار دانتي وتشوسر، ورحلات ماركو بولو، والفنّ المِعماري القوطي الجلي في هندسة الكاتدرائيات مِثلَ كاتدرائية شارتر.

الفَترة المُتأخّرة من العصور الوسطى اتّسمَت بالمصاعِب والمعاناة والكوارِث، فالمجاعات والطاعون والحروب قد هدّدت تعداد السكان في أوروبا الغربية، فبين عامي 1341 - 1350 سَلبَ طاعون الموت الأسود حياة ثُلثِ سُكّان أوروبا، كما لَعِبَ التنازُع والهرطقة والانشقاق داخِل الكنيسة الكاثوليكية والحروب الأهلية وثورَات الفلّاحين في الممالك، جميعُها كانَت أسباباً سيئة في الفترة المُتأخّرة. في النهاية، أدّى التَطوّر التِقَني والثقافي إلى إعادة تشكيل المُجتَمع الأوروبي، مما أسدَل السِتّارَ عن العصور الوسطى معلنةً بذلك بداية العصر الحديث.

الفصل الأول

أصل التسمية والحُقَب التاريخيّة

العصور الوُسطَى هي واحِدةَ من أحدى الحُقَب الثلاث الـذي يُقـسّم إليـه التـاريخ الأوروبي، وهي: العصر الكلاسيكي القديم، والعصور الوسطى، والعصر الحديث

قسّم مُؤرّخوا ذلك العصر التاريخَ المعروف إلى سِتّ عـصور أو مـا يُعـرَف بـِ عـصر الإمبراطوريّات الأربعة، وقد اعتَبروا عَصرَهُم هو الأخير قبلَ نهايَـة العـالم. وعِنـدما كـانوا يتحدّثون عن زمانِهم، كانوا يَصِفونَ أنفُسَهم أنّهـم مـن العـصر الحـديث. ففـي ثلاثينيّـات القرن الرابِع عشر، اعتَبَر الشاعِر فرانشيسكو بتراركا عصور ما قَبل المـسيحية عُـصوراً أثريّـة أو غابِرة، بينَما اعتَبَر مـا بَعـد ذلـك عَـصراً جديـداً. وقـد كـانَ ليونـاردو بـروني أوّل مُـؤرّخ يَستخدِم التَقسيم الزمني الثلاثي لتلك الحقبة في كتابه تاريخ الشعب المزدهـر History - of the Florentine People وذلك في عام 1442.

وظهر المُصطلَح الذي يُعبّر عن العصور الوسطى لأوّل مـرّة في اللغـة اللاتينيـة عـام 1469 وأُطلِـقَ عليـه اسـم media tempestas والـذي تعنـي ترجمَتُـه الحرفيّـة الموسـم الوسيط.

وكانَ المُصطَلح في تغيّرٍ مُستَمر على مَرّ التاريخ، حتّى ظهـر مُـصطَلح "العـصور الوسـطى medium aevum - middle ages" - بمعنـاه ولفظِـه الحـاليّ عـام 1604، وسُـجّل لأوّل مـرّة في 1625 ويُـشارُ أيـضاً في الإنجليزيّـة لهـذه الحُقبَـة بمُـصطَلح medieval period وهـي اشـتقاقٌ مـن اللفـظ اللاتينـيmedium aevum وقـد تـمّ اعتماد التقسيم الزَمَني الثلاثي على يَد المؤرخ الألماني كريـستوف سـيلاريوس في القَـرن الـسابِع عَـشر وذلـكَ عنـدما قـسّمها إلى ثـلاث عـصور: قديمـة، ووسـطى، وحديثـة

الشائعُ أنّ بدايَة العصور الوسطَى هو من عام 476 حيثُ أنّ أوّل من أشارَ إليها هو المُؤرّخ بروني.

وبِشكلٍ عام، يُعتَبر عام 1500 تقريباً نهايَةً للعصور الوسطى على خِلافٍ بين المُؤرّخين حولَ تاريخ محدد.

حيثُ أن ذلك يَعتَمِد على السياق التاريخي، فأحداثٌ كَرحلَة كريستوفر كولومبوس للأمريكتين عام 1492، أو فَتحُ القُسطَنطينِيَّة عام 1453 على يَد الدولَة العُثمانيّة، أو حركة الإصلاح البروتستانتي عام 1517 قَد تُستخدَم لتحديدٍ زمنيٍ أكثَر دقّة.

أمّا أغلّب المُؤرّخونَ الإنجليز يَعتَبِرون معركة بوسوورث عام 1485 هيَ نهايَة تلك الحقبة.[13] وبالنِسبَة للأسبان، فليسَ لديهم تاريخٌ يتّفقونَ عليه ليكونَ نهايَةً لتلكَ الحُقبَة، ولكن بشكلٍ عام، فالنهايَةُ المُعتَمدة لديهم هيَ خِلالَ أعوام 1516 (وفاة الملك فيرديناند الثاني) و1504 (وفاة الملكة إيزابيلا الأولى) و1492 (سقوط غرناطة).

يُذكَر أنّ مُؤرّخوا اللغات الرومانسيّة يَميلون إلى تَقسيم العصور الوسطى إلى عصور عُليا ودُنيا؛ بينما المُؤرّخونَ الناطِقون بالإنجليزيّة قد تأثّروا بِنُظرائِهم الألمان في تقسيمها إلى ثلاثة فَترات: الفترة المُبكّرة، والمتوسّطة، والمُتأخّرة. في القَرن التاسِع عَشر، تمّ تَسمية العُصور الوسطى باسم العصور المظلمة، ولكن مع اعتماد التقسيمات تمّ اقتصار استخدام هذا المصطلح على العصور الوسطى المبكرة، على الأقل بين المؤرخين.

الفصل الثاني

الإمبرطورية الرومانية المُتأخّرة

حقّقت الإمبراطوريّة الرومانية أقصى إتّساعٍ لها في القرن الثاني الميلادي، والقَرنين اللاحِقَين شَهِدا تراجُعاً بَطيئاً لِلسَطوَةِ الرومانيّة على مناطقها النائية. وقد كانَ القرنُ الثالِث الميلادي فَترة اضّطرابٍ سياسي، فالتَضخّم الاقتصادي والغزو والحروب الأهليّة، أدّى إلى عدمِ ثباتٍ في الحُكم فلا يأتي قيصر ويمكُث قليلاً حتّى يغتَصِب منه العرش قيصر جديد.

إضافةً إلى تَراكُم النَفقاتِ العسكريّة خصوصاً لمواجهة الساسانيين، التي تَجدّدت في أواسِط ذاك القرن.

حيثُ أنّ الجيشَ تَضاعَف، واستُبدِلَت الكتائِب بوحدات الخيّالة ووحدات أصغر.

وقد أدّت الحاجَة للدَخل إلى زيادَةٍ في الضرائِب وانخفاضٍ في ملكيّة الأراضي والمنزلةِ الإجتماعيّة، وهذا الانخفاض أدّى إلى تَحمّل الأفراد أعباءً أكثر.

كانت الإدارة المركزية تحتاج لموظفين أكثر ليتعاملو مع حاجات الجيش، مما أدى إلى شكاوي من المدنيين أن عدد جامعي الضرائب أكثر من عدد دافعي الضرائب.

قامَ القيصَر الروماني ديوكلتيانوس في عام 286 بتقسيم الإمبراطوريّة إداريّاً إلى نِصفَين شَرقي وغربي، غيرَ أنّها كانَت تُعتَبر واحِدة في نَظرِ سُكّانِها وحُكّامِها. حيثُ أنّ التشريعات القانونيّة والإداريّة الصادِرة من النِصفِ الغربيّ مَثلاً تكون مُعتَبرة في النِصفِ الآخر.

في عامِ 330، وبعدَ الحربِ الأهليّة، قام قسطنطين الأول بتحويلِ مدينَة بيزنطة لتُصبِحَ عاصِمةً للإمبراطوريّة الشرقيّة وصارت تُعرَفُ باسم القسطنطينية. يُذكَر أنّ

إصلاحات ديوكلتيانوس زادَت مـن قـوّة الحكومَـة مـن الناحيَـة البيروقراطيّـة، فأصلَحت الضرائِب، وزادَت من قوّة الجيش، مما أكسَب الحكومَة مزيداً من الوقت، لكـن لم يـؤدّي لِحَلّ مشاكِلها كالضرائب الجائرة، وانخفاض مُعدّلات الـولادة، بالإضـافة إلى الـضغوط مـن قبل الآخرين على حدود الدولة.

كَثرةُ الحروب بينَ القياصِرة المُتنـازعين في مُنتَـصف القـرن الرابـع أدّت إلى انـسياب الجنود من ثغور الإمبراطورية وبالتالي اختراق أعدائها لها.

وكانت مُحصّلة القرن الرابع استقرار المجتمـع الرومـاني عـلى أُسـس اختَلَفـت عـن العهد الكلاسيكي السابق، حيثُ اتّسعت الفجـوة بـين الأغنيـاء والفقـراء، وتآكلـت حيويـة المدن الصغرى.

وطرأ أيضاً تَغييرٌ آخر وهوَ التنصر، أو بالأحرَى تنصر الإمبراطورية، حيـثُ اسـتَغرَق ذلِك من القرن الثاني حتّى القرن الخامس على نحو تدريجي في عام 376، وإثرَ فِرارهِم من شُعوب الهـون، سَمَح الإمبراطـور فـالنس للقـوط الـشرقيين بالإسـتِقرار في ثراسـيا (تراقيـا) البلقانية الخاضعة للروم، لكنّ استقرارَهُم هُناك لم يَمرّ بِسلام؛ وعِندما أساء الـضُبّاط الـروم التعامُل مع الموقِف، بدأ القوط الشرقيّون حَملات الغزو والنَهب، وقَتلـوا الإمبراطـور أثنـاء مُحاوَلتـه قَمـع اضّـطراباتِهم وذلـك في معركـة أدريانوبـل في 9 أغـسطس 378 كـما كانَـت التهديدات الشماليّة من قِبَل التحالُفات القَبليّة والإنقسامات داخِـل الإمبراطوريّـة تُـشكّل خَطراً، خصوصاً تلكَ التي كانَـت داخِـل الكَنيـسَة. ففـي عـام 400، غَـزا القـوط الغربيّـون الإمبراطوريّة الغربيّة، وعلى الرُغمِ من صـدّهم عـن إيطاليـا بـادئ الأمـر، إلّا أنّهـم وَصـلوا مَدينَة روما عام 410.

وبحلولِ عام 406، عَبَرت شعوبُ الآلان والوندال والسوييبون بـلاد الغـال. وخِـلالَ السنوات الثلاث التالية، انتَشَروا خِلالَ الغال حتّى عَبَروا جِبالَ البرانس إلى ما يُعـرَف اليـوم بإسبانيا.

فابتـدأ حينهـا مـا عُـرِفَ تاريخيّـاً باسـم عـصر الهِجـرة، حيـثُ أنّ قبائِـلَ مُختَلفـة مُعَظَمهم من الجرمان قد انتَقَلوا عَبرَ أوروبا كُلّها، فالفرنج والألامانيون والبرغنديون انتهـى بِهم المُقام في شمالِ بلادِ الغال، أمّا الآنجل والساكسون والجوت استقرّوا فيما يُعرَف اليـوم ببريطانيا.

في ثلاثينيّـات القـرن الخـامِس، بـدأ الهونيّـون غـزوهم للإمبراطوريّـة يترأسُـهم مَلِكَهُـم أتـيلا الهـوني الـذي قـادَهُم إلى غَـزو البلقـان في 442 و447 والغـال في 451 وإيطاليا عام 452.

واستمرّ التهديد الهوني قائماً حتّى وفاةِ الملك أتيلا عام 453 ومـا تبعـه مـن تفكـك قبائـل الهـون وقـد أحـدَثت تِلـك الغـزوات تغيـيراً كـامِلاً للطبيعـة الـسياسيّة والـسُكّانيّة للإمبراطوريّة الرومانيّة الغربيّة مع نهايَة القَرن الخامِس، تقسّمت الإمبراطوريّة الغربيّة إلى فرقٍ سياسيّة صغيرة محكومَة من القبائِل الغازيَة في بدايات القَرن.

وكانَـت نهايَتُهـا عـام 476 وذلـك بعـدَ القـضاء عـلى آخـر أباطرتهـا رومولـوس أوغستولوس.

أمّا الإمبراطوريّة الشرقيّة التي عُرِفت فيما بعد باسم الإمبراطوريّـة البيزنطيـة بعـد سقوطِ ندّها الغربيّة، كانَ لها مِقدار ضئيل من الـسيطرة عـلى جارَتِهـا المُتـساقِطة. حـافظَ القياصِرة البيزنطيين على السيادَة على أراضيهم.

ولم يَجرؤ أحد من ملوك الممالِك التي ظَهرت على إثرِها أن يُعلِنَ نفـسَه إمبراطـوراً على النِصف الغَربي، ولم تستَمر سيطرة البيزنطيين على الأراضي الغربيّة باستثناءِ مُحـاولات جستينيان الأول استرداد شبه الجزيرة الإيطالية وأطراف البَحر المتوسّط.

العصور الوسطى المبكرة

التركيبَة السياسيّة والسُكّانيّة لأوروبا الغربيّة تغيّرت بعد تَفكّك الإمبراطوريّة الروميّة، وكانَت الهِجرات في تلك الفترة توصَف بأنّها غَزوات، فقد كانَت عبارة عن حَملاتٍ عسكريّة وهجرةُ شعوبٍ كاملة نحوَ الإمبراطوريّة، وقد واجَهت تلك الهجرات رَفضاً من عِليَة الشَعب الرومي الغربي تمثّلت في بذلهم للمال لدعم الجيش لإيقاف الهِجرة.

وكانَ القياصِرة في القرنِ الخامِس مُتَحكّمٌ بِهم من خلال القادة العسكريين من أمثال ستيليكو وأسبار وريسيمر وغوندوباد، وقد كانَ أغلَبُهم أصولُهم ليسَت روميّة، وعندما انهارَت الدولَة كانَ الملوكُ من بَعدِهم على هذه الحال أيضاً. والمُصاهرات بينَ الروم والملوك الجُدد صارَت شائعة.

أدّى ذلك إلى إمتزاجِ الثقافة الرومانيّة بعاداتِ القبائل الغازية وظهور سياسات جديدة، وشَمِل ذلك المجالِس الشعبيّة التي تُمّكن أفراد القبائل الأحرار من الخوض في موضوعات سياسية بشكل أكبر مما كان معروفاً وقت الدولة الرومانية.

ومن آثار ذلك الإمتزاج أنّ الأدوات التي كانوا يَستَخدِمونها صارت مُتشابهة.

وقد قلّت الضرائب كذلك، فكثيرٌ مِن الكيانات السياسيّة تَخلّت عن دَعمِ جِيوشِها عن طريق الضرائب واستَبدلتها بِمَنحها الأراضي والإيجارات؛ بمعنى أنّه كانَ هُناكَ حاجةٌ قَليلةٌ للضرائِب مما نَتَج عنه تآكل النظام الضريبي.

كما انتَشَرت الحروبُ بين وداخل الممالك، وانخَفضت العبوديّة إثر تدني الإمداد، وأصبحت المجتمعات ريفية.

نقود معدنيّة تعودُ لزمن مملكة القوط الشرقيين وعليها رسم ثيودوريك العظيم.

ما بينَ القرنِ الخامِس والثامن وبسبب الهجرات، قَدِمت شعوبٌ جديدة ملأت الفراغ السياسيّ الذي خلّفته حكومة روما المركزيّة.

إحداهم هم القوط الشرقيون، وقد استَوطنوا إيطاليا في أواخِر القرن الخامِس تَحت حُكمِ ثيودوريك الذي أقامَ مملكةً جَمعت بينَ القوط والطليان واستمرّت حتّى وفاتِه.

بلادُ الغال استوطنها البورغنديون، وبعدَ دمار حكومَتهم على يد الهون عام 436 أنشأوا مملكة جديدة في العقد التالي في المنطقة الواقِعة بين ما يعرف اليوم بجنيف وليون، قامت دولة قوية للبورغنديين في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس.

وفي شمال الغال، أقام الفرنجة والبريطينيون كيانات سياسية صغيرة، تَمركزت مملكة الفرنجة في شمال شرق الغال تحت حُكم أوّل ملوكها شيلدريك. وتحت حُكمِ ابنه كلوفيس، توسّعت مملكة الفرنجة، واعتَنقت النصرانية. أما البريطينيون فقد استوطَنوا بريتاني -تختلف عن بريتانيا-.

كما نشأت ممالِك أُخرى مثلَ مملكة القوط الغربيين في شبه الجزيرة الإيبيرية، والمملكة الوندالية في شمال أفريقيا وجُزر البحر المتوسّط.

استقرّت شعوب اللومبارد في شمال إيطاليا في القرن السادس. فجاءت بدلاً عن مملكة القوط، وأقاموا مملكتهم الخاصة، وفي نهايات القرن السادس، اعيد تشكيل تلك المجموعات الى نظام ملكي مستدام.

جَلبت تِلك الغزوات والهِجرات مَجموعات عرقيّة جديدة إلى أوروبا واختلَف توزيعُهم من مَنطقةٍ لأخرى. ففي الغال على سبيل المثال، استقرّ المُهاجِرون بكثافةٍ أكبر في الجُزء الشماليّ الشرقي عنه في الجنوب الغربي، واستقرّت شعوبُ السلاف في وَسط وشرق أوروبا والبلقان، وصاحَب ذلكَ الإستيطان إلى تَغيّرٍ في اللغات. فاللّغة اللاتينية للدولة الروميّة الغربية تمّ استبدالها بلغاتٍ مُختَلِفَة على الرُغمِ مِن كونِها مَبنيّة على تِلك اللاتينية، وقد عُرِفَت باسم اللغات الرومنسية. استغرق التحوّل من اللاتينيّة إلى تِلكَ اللغات عدّة قرون. أما في أوروبا الشرقيّة، فقد استمرّت اللغة اليونانيّة هي

لُغة الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ولكن هِجرات الشعوب السلافيّة أضافَت اللغة السلافية لأوروبا الشرقية

الإقطاع

كان الإقطاع هو النظام السائد، حيث كان الأمير الإقطاعي هو السيد المطاع يمتلك القلعة والأرض والمزارع والمراعي والناس الذين يعيشون على أرضه كذلك، ولذلك كان يسهل سوقهم إلى المعارك إذا مادعت الحاجة إلى توفير الجند و كان الأقطاعي واحداً من اعز الناس شأناً بين المجتمع.

الأدب في العصور الوسطى

بيوولف

ملحمة إنجليزية مجهولة المؤلف بطلها أمير سويدي يدعى بيوولف، تدور أحداثها في أوائل القرن السادس الميلادي، وتعتبر أقدم قصيدة إنجليزية كاملة معروفة، وأقدم ملحمة أوروبية منظومة باللسان القومي، ويعتقد أنها نظمت في شمال إنجلترا، ما بين سنة 700 إلى 750 للميلاد.

حكايات كانتربري

كانت الأرض التي يمتلكها الإقطاعي تسمى النطاق وكان للفلاحين جزءاً وجزء آخر خاص بالإقطاعي حيث أن السيد الإقطاعي سواء كان نبيلاً أو رجل دين فإنه يوزع أراضيه على الفلاحين مقابل حراثتهم ورعايتهم للجزء الخاص بالإقطاعي نفسه وكانت الأجزاء الموزعة على الفلاحين متناثرة وذلك للحفاظ على العدل في توزيع الأرض بين خصبة وفقيرة.

وكان الإقطاعي يفرض ضرائب على الفلاحين ورسم الولاية وهي أمقت شيء لدي الفلاحين حيث أنها كانت في بداية الأمر ضرائب تفرض على الفلاح رمزاً لتبعيته للسيد الإقطاعي ثم أصبحت بعد ذلك تفرض على الأرض نفسها بصرف

النظر عن الفلاح الذي يعمل بها وكان للسيد الإقطاعي حق فرض هذه الرسوم متي شاء وأيضًا دون السماح بتقدير رسمي لتلك الرسوم، وأيضاً كان هناك الأجور وتتضمن جميع ما على الفلاح من حقوق لتتصل بالأرض اتصالاً مباشرًا فإذا انتقل الفلاح إلى قطعة أرض أخرى ظلت تلك الأجور على الأرض مفروضة على الفلاح الجديد الذي يعمل عليها. وكانت تلك الأجور تقدر نسبيًا فمثلاً هناك قطعة أرض تؤخد أجورها غلالاً وأخرى تؤخد أجورها أموالاً وأخرى يقوم الفلاح بخدمة الإقطاعي والعمل في أرضه. وكان المجتمع الإقطاعي مجتمعاً طبقياً في الدرجة الأولى اختفت فية الطبقة البورجوازية

وظهر البارون وهو من صغار طبقة النبلاء وهو النبيل الذي منح أرضاً من الإقطاعي مقابل خدمات عسكرية فهو يُقسِم بالطاعة للإقطاعي والظهور معه ضد أعدائه من المقاطعات الأخرى. وعاشوا حياة مرفهة، فقد كانوا يقضون أوقاتهم في المغامرات وصيد الحيوانات وسماع الأغاني والأناشيد والحروب والنزال وكان مسكن النبيل عبارة عن قلعة تحميه هو وأتباعه من أخطار الخصوم وكان من الممكن أن يخضع لأكثر من قسم مقابل حصوله على قطع أرض من أكثر من إقطاعى، ومن مساوئ ذلك أنه عند تضارب المصالح بين الإقطاعيين يتحير البارون لأي صف يقف ولأي شخصية ينحاز.

وكانت أيضاً طبقة العبيد (الفلاحين) وهم أصحاب الحق المهضوم والطبقة الكادحة في المجتمع والعبد هو ذلك الفلاح الذي يقوم الإقطاعي باستغلاله كيفما شاء فلا يستطيع الحراك من بيته إلا بإذن من الإقطاعي ولم يكن مخول له أن يزوج أحد أبنائه إلا بعلم الإقطاعى وكان التدخل في حياته مباشراً وغير مباشراً من فرض ضرائب عليه وخضوعه بالاضطهاد وفلاحة أرض الإقطاعى، وكان الفلاح يعيش في بيت صغير لايسمو عن كونه كوخاً صغيراً وكان يأكل الخبز الأسمر والفول ولحم الخنزير.

وأما عن نظام الإقطاع في العصر الوسيط فهو نظام سياسي أكثر من كونه نظام اجتماعي ففي الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر أزدهر النظام الإقطاعي ككونه نظام سياسي مسيطر وأصبح النطاق وحدة سياسية في حد ذاتها وخاصة بعدما اختفت الحكومة الكارولنجية وحلت محلها نظام الوحدات المحلية وكانت فيها السلطة للأقوياء (الإقطاعين) وبالتالي أصبح من يمتلك أرضاً أكبر ذو سيادة أكبر

عمارة القرون الوسطى في أوروبا

ترجع عمارة القرون الوسطى إلى المنشآت التي بنيت في أوروبا خلال الفترة التاريخية التي امتدت بين القرنين الخامس والسادس عشر الميلاديين، وتشمل عمارة القرون الوسطى في آسيا وإفريقيا وأوروباو العمارة الإسلامية، بما فيها العمارة الأموية والعباسية والعمارة في الدويلات الإسلامية بعد ذلك (انظر: العمارة الإسلامية). وبالنسبة للمسيحية فقد تمركزت الحياة الروحية والفكرية في القرون الوسطى في أوروبا حول الكنيسة لذا صمم المعماريون الكنائس والأديرة والمباني الدينية الأخرى، كما صمموا القلاع والحصون والمنشآت الأخرى غير الدينية. وطور معماريو القرون الوسطى عددًا من الطرز، حيث غلب الطراز البيزنطي في أوروبا الشرقية. أما في أوروبا الغربية فكانت الطرز الرائدة هي الكارولنجي والرومانسك والقوطي. وقد سبقت هذه الأنواع الأربعة العمارة المسيحية المبكرة التي أزدهرت في الفترة بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين.

العمارة المسيحية المبكرة: تطورت أثناء القرون الأولى للمسيحية عدد من الثقافات والطرز المعمارية الإقليمية في أوروبا والشرق الأوسط، ولكن معظم المعماريين النصارى الأوائل اقتبسوا كثيراً من الرومان، واستخدموا العَقْد والقبو المعماري، واتخذوا تصميم القاعات الرومانية الكبيرة، التي كانت تُستخدم للاجتماعات العامة، كقاعدة لتصميم النوع الرئيسي من الكنائس، أي البازيليقا.

ويمكن اعتبار كنيسة القديس بطرس القديمة (بَدْءُ بنائها حوالي عام 330م) كأول وأهم بازيليقا مسيحية مبكرة، وهي تقع في نفس مكان كنيسة القديس بطرس

الحالية في روما. ويدخل المصلون إلى كنيسة القديس بطرس القديمة من الجانب الشرقي، وللوصول إلى المدخل يمرون بفناء كبير مكشوف يطلق عليه الأتريوم أو البهو الروماني (فناء صحن الدار أو البهو)، ويمرون كذلك بالدهليز، ويفصل الفناء والدهليز المدينة الصاخبة عن الكنيسة الهادئة، ويشبه المسقط الأفقي شكل الحرفT ، والجزء الرأسي للحرف هو الصحن الرئيسي، ويمتد ممران جانبيان على طول الصحن الرئيسي، ويشكل ذراعاً الحرف T الجناح الرئيسي للكنيسة، وهناك فراغ نصف دائري يطلق عليه القوصرة، مفتوح من جهة مركز الجناح الرئيسي في الجانب الغربي للكنيسة، ويوجد في هذه القوصرة المغطّاة بنصف قبة مذبح الكنيسة الرئيسي، وفي معظم البازيليقات، تفصل الممرات والأروقة الفراغ الداخلي إلى صحن رئيسي وممرين جانبيين، ويستخدم في بناء معظم البازيليقات طوب عادي أو حجر أما من الداخل فإنها تزدان بالفسيفساء والتصوير الجصي (الفريسكو)، وتتكون الفسيفساء من قطع من الزجاج والرخام أو الحجر تُجمع معًا وتشكل صورة أو تصميمًا ما، والتصوير الجصي لوحات تنفَّذ على الجص الرطب.

العمارة البيزنطية. في عام 330 م، نقل الإمبراطور قسطنطين الأكبر عاصمة الإمبراطورية من روما إلى مدينة بيزنطة فيما يُعرف الآن بتركيا، وغيّر اسم بيزنطة إلى القسطنطينية. وفي عام 395 م، انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين: الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والإمبراطورية الرومانية الغربية. وقد سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية في يد القبائل الجرمانية في القرن الخامس الميلادي، ولكنّ الإمبراطورية الرومانية الشرقية بقيت وعُرِفَت بالإمبراطورية البيزنطية.

وبحلول القرن السادس الميلادي، تطور طراز فريد من الفن البيزنطي. وكانت كاتدرائية أياصوفيا بقبتها الضخمة (532 ـ 537م) في القسطنطينية أروع إنجازات العمارة البيزنطية، وقد صممها أنثيميوس أوف تراليس وإسيدروس أوف ميليتوس. واستولى الأتراك على القسطنطينية عام 1453 م، وأعادوا تسميتها فيما بعد

بإسطنبول، وحولوا أيضًا كاتدرائية أياصوفيا إلى جامع. وكان التغيير الوحيد الذي قاموا به في المظهر الخارجي للمبنى هو إضافة أربع مآذن، وكان لجامع أياصوفيا قبة مركزية ضخمة ترتكز على قاعدة مربعة، وقد صار هذا التكوين سمة عامة للعمارة البيزنطية، وتحمل القبة أربعة مثلثات كروية معكوسة مبنية بالطوب، وتسمى هذه الركائز المعلَّقات. ويستطيع المعماري بناء قبة أعرض وأعلى عما كان ممكنًا عندما كانت الجدران تحمل القبة، وفي داخل أياصوفيا ممرات معقودة بارتفاع طابقين تحيط بالصحن الرئيسي، وقد زُيِّن الداخل بزخارف جميلة من الفسيفساء، وتمثل الفسيفساء أهم الزخارف في معظم الكنائس البيزنطية.

وهناك أمثلة أخرى للعمارة البيزنطية تشمل بازيليقا القديس مارك (منتصف القرن الحادي عشر الميلادي) في مدينة البندقية بإيطاليا، وكنيسة القديس باسيل (1554ـ1560م) في موسكو.

العمارة الكارولنجية. سميت العمارة الكارولنجية على اسم شارلمان الذي كان ملكًا على الفرانكيين (الفرنجة) بين عامي 768 و 814 م. ومن عاصمته في موقع آخر حاليًا في ألمانيا الغربية، حكم شارلمان مساحات شاسعة شملت معظم أوروبا الغربية.

أراد شارلمان وعائلته إحياء الثقافة المسيحية المبكرة في روما، وادعى المعماريون الكارولنجيون أنهم نقلوا عمارة المسيحية المبكرة، ولكنهم غيروا في النماذج حتى تناسب احتياجاتهم، وكانت لهم إسهامات شهيرة فيما يخص تصميم الكنيسة والدير، فقد اتبع المعماريون المسقط الأفقي للبازيليقا ولكنهم أضافوا أماكن للصلاة وأضرحة مطورة وأبراجًا عالية وابتكروا أيضًا مدخلا يعرف بالعمل الغربي (وستويرك) ضم ردهة ومصلى وأبراجًا صغيرة تسمى التورتات. طوّر الرهبان الكارولنجيون مسقط الدير الذي ترتبط به الكنيسة والمكتبة والمطبخ ومرافق أخرى بممرات مغطاة.

عمارة الرومانِسك. بدأت هذه العمارة أواخر القرن التاسع الميلادي، وحققت أعظم إنجازاتها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وأكثر مباني

الرومانسك أهمية هي الكنائس التي صُمِّمت في إيطاليا أولاً، ثم في فرنسا وألمانيا وإسبانيا وإنجلترا أخيرًا.

وابتكر العلماء في القرن التاسع عشر الميلادي مصطلح الرومانسك الذي يعني: مِثْل الرومان. ويعتقد هؤلاء العلماء أن عمارة الرومانسك هي أساسًا انعكاس للتصميمات الرومانية، ومع ذلك فإن عمارة الرومانسك هي في الواقع مزيج من العمارة الرومانية والبيزنطية وأنواع أخرى. وتختلف كنائس الرومانسك نوعًا ما من بلد لآخر، ولكن معظم الكنائس تشترك في ملامح معينة، فكنيسة الرومانسك النموذجية لها جدران سميكة وأعمدة مبنية متقاربة وعقود ضخمة مقوسة، ويرتفع برج من السقف عند النقطة التي يتقاطع فيها الجناح الرئيسي مع الصحن الرئيسي للكنيسة، وتحمل البرج أربع ركائز تسمى الدعامات، وهناك عقود محمولة على أعمدة تفصل الصحن الرئيسي عن الممرين الجانبيين، وقد بُنيت شرفة داخلية تطل على الممر الجانبي المعقود تسمَّى ترايفوريم (رواق ثلاثي العقود)، ويعلو الشرفة إضاءة علوية من خلال صف من النوافذ في داخل عقود.

وخلال فترة الرومانسك، جاء كثير من الناس إلى هذه الكنائس للزيارة، وكانت مجموعات من الزوار تسافر مخترقة أوروبا وفلسطين لزيارة الكنائس التي كانت تحتوي على رفات وممتلكات بعض القديسين. وكانت الكنائس المهمة ضخمة جدًا تستطيع أن تستوعب أعدادًا كبيرة، ومثال ذلك كنيسة سانت سرنين (حوالي 1080 - 1120 م) في تولوز بفرنسا، تضم هذه الكنيسة جناحين على جانبي الصحن الرئيسي، وتفتح على الممر الدائري المحيط بالقوصرة مصليات صغيرة، ويسمح هذا المسقط للزوار بالتحرك خلال المبنى على طول الممرات دون إزعاج للمراسم التي تقام عند المذبح الرئيسي انظر: فن العمارة الرومانسكي.

العمارة القوطية. ازدهرت في غربي أوروبا في الفترة الممتدة بين منتصف القرن الثاني عشر والقرن الخامس عشر الميلاديين. وكلمة قوطي أصلها مصطلح اشتُقَّ من

كلمة تعني الرَفْض، واستخدمها الفنانون والكتاب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، الذين أرادوا إحياء العمارة الكلاسيكة لقدماء الإغريق والرومان في أوروبا. وقد اقترن الطراز القوطي بالقوط وبالشعوب الجرمانية التي دمرت كثيراً من الفن الكلاسيكي في القرن الخامس الميلادي، وعارض كثير من الفنانين والكتاب التصاميم القوطية المعقدة وغير المنتظمة التي اختلفت كثيراً عن النمط الكلاسيكي المتناسق. وقد مكن نظام تشييد جديد المعماريين القوط من تصميم كنائس بجدران رقيقة ودعامات أخف من تلك التي كانت في كنائس الرومانسك، وكثير من الدعامات مكونة من مجموعات من الأعمدة بارتفاع عدة طوابق، وقد مد المعماريون القوطيون الدعامات إلى السقف، ثم قوّسوا كل عمود في شكل أضلاع مثل المظلة المفتوحة، وسدوا الفراغات بين الأضلاع بالحجر، وكانت تلك الأقبية المضلعة ضمن أهم الخصائص التي تميزت بها العمارة القوطية. وهناك مظهر آخر للطراز القوطي هو العقود المدبَّبة والاستعاضة عن أجزاء كبيرة من الجدران بنوافذ ذات زجاج ملون، وكان لمعظم الكنائس دعامات طائرة، وهي دعامات على هيئة عقود بشكل متعامد من الطوب أو الحجر تبُنى على الجدران الخارجية. نحت المثَّالون أشكال القديسين وأبطال المسيحية على أعمدة مداخل الكنيسة. وقد اعتقد النصارى في القرون الوسطى بأن هؤلاء القديسين والأبطال سكنوا مبنى الكنيسة ودعَّموه (انظر: الكاتدرائية؛ تشارتر؛ كاتدرائية نوتردام.

الفصل الثالث

في تاريخ أوروبا تبدأ العصور الوسطى المبكرة

بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية من سنة 500 للميلاد حتى 1000.

بعد العصور الوسطى المبكرة جاءت العصور الوسطى المتوسطة

الإمبراطورية الرومانية الغربية

الإمبراطورية الرومانية الغربية (Western Roman Empire) هي النصف الغربي من الإمبراطورية الرومانية منذ أن قام ديوكلتيانوس بفصله عام 359 ؛ وصار النصف الآخر من الإمبراطورية الرومانية يُعرف باسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ويعرف اليوم على نطاق أوسع بالإمبراطورية البيزنطية.

لم تعد روما العاصمة منذ الانفصال. في عام 286 أصبحت ميديولانوم (ميلانو الحالية) عاصمة الإمبراطورية الرومانية الغربية. وفي عام 402 نُقلت العاصمة مرة أخرى، وهذه المرة إلى رافينا.

وُجدت الإمبراطورية الغربية في عدة فترات متقطعة بين القرنين الثالث والخامس، نتيجةً لحكومة ديوكلتيانوس الرباعية وعملية إعادة التوحيد المتعلقة بقسطنطين الأول ويوليان المرتد (324-363). كان ثيودوسيوس الأول (379-395) آخر الإمبراطور الروماني حَكَم الإمبراطورية الرومانية الموحدة. وانقسمت الإمبراطورية الرومانية بعد وفاته عام 395 بشكل دائم. أنتهت الإمبراطورية الرومانية الغربية رسمياً بتخلي رومولوس أوغسطس تحت ضغط أودواكر في 4 سبتمبر 476، وبشكل غير رسمي مع بوفاة يوليوس نيبوس سنة 480.

رغم استعادة الإمبراطورية الرومانية الشرقية لها لفترة قصيرة، لم تكن الإمبراطورية الرومانية الغربية لتنهض مرة أخرى. وبسقوط الإمبراطورية الرومانية , بدأت حقبة جديدة في تاريخ أوروبا هي : العصور المظلمة.

بلغ اتساع الجمهورية الرومانية حداً لم تستطع الحكومة المركزية في روما حياله أن تحكم المقاطعات البعيدة بفعالية. كانت الاتصالات والنقل خصوصاً تشكل معضلة في الإمبراطورية المترامية الأطراف. فأخبار الغزوات أو التمرد أو الكوارث الطبيعية أو تفشي الوباء كانت تحملها إمّا سفينة أو النظام البريدي، وغالبا ما يتطلب ذلك الكثير من الوقت للوصول إلى روما، وكذلك الحال بالنسبة لأوامر روما الواجب تنفيذها في المقاطعة الأصلية. لهذا السبب فإن حكام المقاطعات بِحـُكم الواقع كانوا يحكمون باسم الجمهورية الرومانية.

قبل إقام الثانية المتكون من أوكتافيان وماركو أنطونيو وماركوس إميليوس ليبيدوس. تحصل أنطونيو على المقاطعات الشرقية : آخايا، مقدونيا وإبيروس (تقريبا اليونان الحالية)، بيثينيا، بونتوس وآسيا (مقاطعة الرومانية) (تقريبا تركيا الحالية)، وسوريا وقبرص وبرقة. هذه الأراضي سبق وأن غزاها الأسكندر الأكبر ؛ لذا فإن الكثير من الأرستقراطية ذات أصل يوناني ومقدوني. المنطقة بأسرها وخصوصاً المدن الكبرى استُوعِبت في الثقافة اليونانية، وغالباً ما استعملت اليونانية كلغة مشتركة.

أوكتافيان، من ناحيته تحصّل على مقاطعات الرومانية الغربية : إيطاليا (العصر الروماني) (إيطاليا الحالية)، بلاد الغال (فرنسا الحالية)، غاليا بلجيكا (أجزاء من بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ الحالية) وهسبانيا (إسبانيا والبرتغال الحاليتان). تشمل هذه الأراضي أيضاً المستعمرات اليونانية والقرطاجية بالمناطق الساحلية، رغم أن القبائل الكلتية كتلك الغالية والكلتية الإيبيرية كانت مهيمنة ثقافياً.

و تحصل ليبيدوس على مقاطعة إفريقيا الصغيرة (تقريبا تونس الحالية). وسرعان ما سلب أوكتافيان إفريقيا من ليبيدوس، كما استولى على مستعمرة صقلية اليونانية.

و بهزيمة ماركو أنطونيو، سيطر أوكتافيان المنتصر الإمبراطورية الرومانية المتحدة. بينما ميّزت الإمبراطورية الرومانية العديد من الثقافات، الكل دعى تجريب

الرومنة التدريجية. بينما عملت كل من الثقافة اليونانية السائدة شرقاً وثقافة اللاتينية السائدة غرباً بفعالية كمتكاملتين، كان من شأن التطورات السياسية والعسكرية في نهاية المطاف لم شمل الإمبراطورية على طول تلك الخطوط الثقافية واللغوية.

الحكومة الأربعة

كانت الحدود الخارجية هادئة بمعظمها فيما تبقى من أزمة القرن الثالث، رغم وجود عشرة سنوات بين موت أوريليان سنة 275 وارتقاء ديوكلتيانوس، وقُتل على الأقل ثمانية أباطرة أو من يحتمل أن يكونوا أباطرة، والعديد أُغتيل على يد قواته الخاصة.

في عهد ديوكلتيانوس، بدأ الانقسام السياسي في الإمبراطورية الرومانية. في عام 286 بإنشاء حكومة الأربعة أعطى الجزء الغربي لمكسيميانوس بلقب أوغسطس وسَمّى كونستانتيوس كلوروس كمرؤوسه (قيصر). قسّم هذا النظام الإمبراطورية بفعالية إلى أربعة أجزاء منفصلة وأوجد عواصم أخرى إلى جانب روما العواصم كوسيلة لتجنب الاضطرابات الأهلية التي ميزت القرن الثالث. في الغرب كانت العواصم مدينة مكسيميانوس "ميديولانوم" (ميلانو الحالية) ومدينة كونستانتيوس "ترير". في 1 مايو 305 أُزيح الأغوسطوسيون من مناصبهم وحل محلهم القياصرة.

الاستيلاء على روما وسقوط الامبراطورية

أعدم الإمبراطور هونوريوس الجنرال ستيليكو سنة 408، ورغم أنه حَكَمَ حتى وفاته عام 423، فإن حكمه كان مملوءاً باغتصابات والغزوات، لا سيما من قبل الوندال والقوط الغربيين. عام 410 نُهِبت روما لأول مرة من جانب قوى خارجية منذ الغزوات الغال في القرن الرابع قبل الميلاد. ساعد عدم الاستقرار الذي سببه المعتدون في أنحاء الإمبراطورية الغربية هذه القبائل في فتوحاتها، وفي القرن الخامس أصبحت القبائل الجرمانية أنفسها غاصبة. في سنة 475 أقصى فلافيو أوريستس

مساعد أتيلا الهوني الإمبراطور يوليوس نيبوس من رافينا وأعلن ابنه رومولوس أوغسطس إمبراطوراً.

في عام سنة 476، وبعد أن رفض أوريستس منح أودواكر والهيروليين وضعاً إتحادياً، قام أودواكر بِنهب روما وإرسال الشارة الإمبراطورية إلى القسطنطينية، ومنصباً نفسه ملكاً على إيطاليا. رغم استمرار جيوب معزولة تابعةً للحكم الروماني حتى بعد سنة 476، فإن مدينة روما نفسها كانت تحت حكم البرابرة، وقد انتهت سيطرتها على الغرب فعلياً. تبقت ثلاثة دول تحت الحكم الروماني بشكل أو آخر بعد عام 476 : فحكم يوليوس نيبوس دالماسيا حتى مقتله عام 480، وأُعلن سياغريوس ملكاً للرومان وحكم مملكة الغال حتى مقتله هو الآخر سنة 487 في السجن بعد أن هزم أمام كلوفيس الأول في معركة سواسون. وأخيراً المملكة الرومانية - الإفريقية التي نجت في شمال إفريقيا، وصمد هذا المعقل الأخير للسيادة الرومانية في الغرب أمام الغزو الوندالي واتحد من جديد مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية سنة 533 بإعاد باليساريوس لاحتلال شمال إفريقيا

الإمبراطور الأخير

حسمت اتفاقية تاريخية أمر سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية في الرابع من أيلول سبتمبر عام 476، عندما أطاح أودواكر برومولوس أوغسطس. ومع ذلك فالمسألة ليست واضحة.

فما زال يوليوس نيبوس يدعى بأنه الإمبراطور الغربي، حاكماً الدولة المتبقية في دالماسيا، وقد اعترف به كل من الإمبراطور البيزنطي زينون وسياغريوس الذي تمكن من الحفاظ على السيادة الرومانية في أرضٍ محاطة من كل الجهات شمال فرنسي، تعرف اليوم مملكة سواسون.

أعلن أودواكر نفسه حاكماً على إيطاليا وبدأ التفاوض مع زينون، الذي منح أودواكر في النهاية صفة نبيل روماني (patricius) اعترافاً بسلطته وقبِل به والياً له في إيطاليا.

بيد أن زينون أصر على أودواكر أن يبايع نيبوس إمبراطوراً غربياً. قَبِل أودواكر هذا الشرط وحتى أنه أصدر عملات معدنية باسم نيبوس في كافة أنحاء إيطاليا. ولكن هذا ظل أساساً لفتة سياسية فارغة فلم يُعِد أودواكر أبداً أي سلطة حقيقية أو أراضي إلى نيبوس. وشجع قتل نيبوس عام 480 أودواكر لغزو دالماسيا، ضماً إيّاها إلى مملكته ومنهياً أية مطالبات بالعرش الغربي.

ثيودوريك

تمثّل الأمل الأخير في إعادة توحيد الإمبراطورية سنة 493، لـمّا قام ثيودوريك العظيم ملك القوط شرقيين بإزاحة أودواكر. وكان زينون هو من أرسل ثيودوريك للتعامل مع أودواكر الخطير. بينما كان ثيودوريك شكلياً تابعاً وواليأ لإمبراطور الشرق، ولكن في الحقيقة كانا متساويين.

إثر موت ثيودوريك في سنة 526، لم يعد الغرب يشبه الشرق. فالغرب الآن تسيطر عليه تماماً القبائل الخارجية الغازية، في حين أن الشرق انحدر وتَهَلّن (أصبح يونانياً). ورغم قيام الشرق بمحاولات لإستعادة الغرب فإن الامبراطورية الرومانية لم تعد إطلاقاً كما كانت.

الفرنكيين

سمح الإمبراطور جوليان للفرنكيين وهم من القبائل الجرمانية بعبور نهر الراين والاستقرار على حدود الإمبراطورية الرومانية، وعندما بدأ الانحلال والتدهور في الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي توغل الفرنكيين في أراضي الإمبراطورية، واستعمروا الأجزاء الشمالية من غاليا ووصلوا إلى شمال مدينة باريس الرومانية، وكان من ملوكهم كلوديون الملتحي الذي انتصر على الجيوش الرومانية بقيادة أئسيوس ثم حكم بعده ميروفيوس الذي نسبت إليه السلالة الميروفنجية، ثم حكم من بعده ابنه شيلديريك الأول ثم جاء ابنه كلوفيس الأول (سنة481-511 م)

الفصل الرابع

دور النساء في العصور الوسطى بأوروبا

أدت النساء في العصور الوسطى عددًا من الأدوار الاجتماعية المختلفة. وشغلت النساء في العصور الوسطى، وهي فترة من التاريخ الأوروبي ممتدة من حوالي القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر، منصب الزوجة والأم والفلاحة والحرفية والراهبة، وكذلك شغلت بعض الأدوار القيادية الهامة مثل رئيسة دير أو ملكة حاكمة. وقد تغير مفهوم "المرأة" بشكل كبير للغاية من حيث عدة نواحٍ أثناء العصور الوسطى وأثرت عدة قوى على أدوارهن أثناء هذه الفترة.

العصور الوسطى المبكرة (476–1000)

كانت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ذات تأثير توحيدي وثقافي كبير في العصور الوسطى مع انتقائها من العلوم اللاتينية والمحافظة على فن الكتابة والإدارة المركزية من خلال شبكة الأساقفة الخاصة بها. وتاريخيًا في الكنائس الكاثوليكية وغيرها من الكنائس القديمة، كان دور الأسقف، مثله مثل الكهنوت، مقتصرًا على الرجال. كما نهى مجلس أورانج الأول (441) عن تنصيب (ترسيم) الشماسات، وهو الحكم الذي كرره مجلس إيباون (517) ومجلس أورليان الثاني (533).

ومع تأسيس الرهبنة المسيحية، باتت أدوار أخرى داخل الكنيسة متاحة للنساء. وابتداءً من القرن الخامس فصاعدًا، وفرت الأديرة المسيحية فرصًا لبعض النساء للهرب من مسار الزواج وتربية الأطفال واكتساب معرفة القراءة والكتابة والقيام بدور ديني أكثر نشاطًا.

وبات بمقدور رئيسات الأديرة أن يصبحن شخصيات مهمة بحكم حقهن الشخصي، وغالبًا ما كان لهن نفوذ على الأديرة وحيازة أراضٍ وسلطة. وأصبحت

شخصيات مثل هيلدا التي كانت تعيش في مدينة يتبي (614-680) من الشخصيات المؤثرة على الصعيد الوطني وحتى الدولي.

كان الغزل إحدى الحرف النسائية التقليدية في ذلك الوقت،[3] وكان يتم تنفيذه مبدئيًا باستخدام مغزل وفلكة المغزل؛ وتم تقديم عجلة المغزل بحلول نهاية العصور الوسطى المبكرة.

خلال معظم حقبة العصور الوسطى وحتى إدخال البيرة التي كانت تُصنع باستخدام حشيشة الدينار، كانت عملية التخمير تتم بشكل كبير بواسطة النساء؛وكان هذا شكلاً من الأعمال التي يمكن القيام بها في المنزل.

علاوة على ذلك، كان من المتوقع بشكل عام من النساء المتزوجات أن تساعد أزواجهن في الأعمال التجارية. وهذه الشراكة كانت تُسهل بفعل إمكانية القيام بكثير من الأعمال في المنزل أو بالقرب منه.

ومع ذلك، هناك أمثلة مسجلة من العصور الوسطى المبكرة لمشاركة النساء في أعمال تجارية غير الأعمال التجارية الخاصة بأزواجهن.

وكانت القبالة (توليد النساء) تُمارس بشكل غير رسمي وأصبحت تدريجيًا مهنة متخصصة في أواخر العصور الوسطى.

وعادة ما كانت النساء تموت أثناء الولادة، على الرغم من أنه إذا بقين على قيد الحياة بعد سنوات الولادة، فيمكن أن تطول أعمارهن مثل الرجال وتصل حتى إلى سن السبعين. وقد ارتفع متوسط العمر المتوقع للنساء خلال العصور الوسطى المبكرة، ويرجع ذلك إلى تحسين التغذية.

وكما هو الحال بالنسبة للفلاحين الرجال، كانت حياة الفلاحات صعبة. كانت المرأة في هذا المستوى من المجتمع تتمتع بقدر كبير من المساواة مع الرجل، ولكن كان

هذا غالبًا ما يعني الفقر المشترك. وحتى تحسين التغذية، كان متوسط العمر المتوقع للفلاحات عند الولادة أقل بكثير من نظيره عند الفلاحين الرجال: ربما 25 سنة.

ونتيجة لذلك، بلغت نسبة الرجال إلى النساء في بعض المناطق 4 إلى 3. وترسم القصيدة التي كُتبت في أواخر العصور الوسطى فلاح الأرصفة (Piers Plowman) صورة للحياة التي يُرثى لها للمرأة الفلاحة في العصور الوسطى هيلدغارد من بينغن أجرت عددًا من الجولات الوعظية في جميع أنحاء ألمانيا.

كانت إلينور التي كانت تعيش في أكيتين (1122-1204) إحدى أغنى وأقوى النساء في أوروبا الغربية أثناء العصور الوسطى العليا. وكانت راعية لشخصيات أدبية مثل ويس وبينوا دو سانت-مور وكريتيان دي تروا. وخلفت إلينور والدها لتكون دوقة أكيتين صاحبة الحكم وكونتس بواتييه في سن الخامسة عشر من عمرها ثم أصبحت العروس الأكثر تأهلاً في أوروبا.

كانت هيراد من ندسبرغ وهيلدغارد من بينغن وهيلواز دي أرغنتويل رئيسات أديرة ومؤلفات ذات تأثير خلال هذه الفترة. وكانت هادفيش من أنتويرب شاعرة وصوفية.

ومارست كونستانس من صقلية وأوراكا من ليون وقشتالة وجوان الأولى منافار وميسلندا من القدس وغيرهن من الملكات الحاكمات السلطة السياسية.

وكانت النساء الحرفيات في بعض المدن، مثل نظرائهن من الرجال، يتبعن تنظيميًا لنقابات.

أواخر العصور الوسطى (1300–1500)

كريستين دو بيزان أصبحت كاتبة محترفة بعد وفاة زوجها في عام 1390.

في أواخر العصور الوسطى، لعبت نساء مثل القديسة كاثرين من سيينا والقديسة تريزا من أفيلا أدوارًا مهمة في تطوير الأفكار اللاهوتية والمناقشة داخل

الكنيسة وتـم إعلانهـن لاحقًـا دكـاترة الكنيـسة الكاثوليكيـة الرومانيـة. وكانـت الـصوفية جوليان من نورويتش من الشخصيات المهمة في إنجلترا.

وحكمت إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة مملكـة مـشتركة مـع زوجهـا فردينانـد الثـاني ملك أراغون وقادت جان دارك بنجاح الجيش الفرنسي في عدة مناسبات أثناء حرب المائـة عام.

كانت كريستين من بيزان كاتبة بارزة في أواخر العـصور الوسـطى عُرفـت بكتاباتهـا عن قضايا المرأة. وانتقدت في كتابهـا كتـاب مدينـة الـسيدات كراهيـة النـساء، في حـين أن كتابهاكنز مدينة السيدات بين بالتفصيل الـصورة المثاليـة للفـضيلة النـسائية مـن منـاحي الحياة المختلفة من الأميرة إلى زوجة الفلاح. وتتضمن نصيحتها للأمـيرة توصـية باسـتخدام المهارات الدبلوماسية لمنع الحروب.

من آخر قرن من قرون العصور الوسطى فصاعدًا، بدأ وضع قيود على عمـل المـرأة وباتت النقابات تضم ذكورًا فقط على نحو متزايد. وبدأت حقوق الملكية الخاصـة بـالمرأة أيضًا في التقلص خلال هذه الفترة.

الفصل الخامس

النظام الفيودالي في أوروبا خلال العصر الوسيط

شكلت ظاهرة الفيودالية أحد أخصب المواضيع التي استأثرت باهتمام الباحثين في مختلف أقطار المعمور منذ القرن الثامن عشر. و لازالت إلى يومنا هذا مثار جدال بين المختصين، سواء فيما يتعلق بحيثيات نشأتها أو فيما يتعلق بمجال انتشارها و مستويات تبلورها هنا و هناك.

و قد انعكست ديناميكية البحث و سيولة التأليف في مختلف جوانب الظاهرة بالإيجاب على المكتبة التاريخية عموما و مكتبة التاريخ الأوربي الوسيط بشكل خاص.حتى أنه أصبح من الصعب - و ربما من المستحيل – على القارئ العادي أو الباحث المختص الإحاطة بجميع ما تم انجازه فيها من أبحاث منغرافية أو دراسات ذات طابع تركيبي أو مقالات أو مداخلات ألقيت في إطار الندوات و الملتقيات العلمية؛ نظرا لكثرة هذه التآليف من جهة و نظرا لاختلاف اللغات التي كتبت بها من جهة أخرى.

والملاحظ أن ظاهرة الفيودالية تكاد تكون ظاهرة كونية؛ انتشرت كليا أو جزئيا في مختلف أقاليم العالم القديم، و لذلك اهتم الباحثون الغربيون المحدثون و المعاصرون بدراسة مظاهرها في مجالات أوربية طبعا و في مجالات غير أوربية أيضا. و في هذا السياق انبرى عدد منهم لمعالجة بعض تجلياتها في المجال العربي-الإسلامي خلال العصر الوسيط أو خلال الحقبة السابقة على الاستعمار الأوربي. غير أن الباحثين العرب ظلوا، مع الأسف ، بمنأى عن هذه الحركية، باستثناء قلة قليلة منهم اقتحمت غمار هذا الموضوع. ومن ثم، فان ما كتب عن الفيودالية باللغة العربية ،أو ما تم تعريبه من مؤلفات أجنبية تناولتها،لا يمثل سوى نسبة هزيلة جدا. و يبدوهذا الأمرغير مفهوم إذا علما بأن التاريخ الأوربي الوسيط ، الذي تمثل الفيودالية إحدى أبرز

قضاياه ،يندرج ضمن برامج ومقررات أقسام التاريخ بالجامعات العربية. و من هذا المنطلق كان من المفروض أن تحضى الفيودالية (و تاريخ أوربا الوسيط ككل) باهتمام الجامعيين بحثا و تأليفا.

خصائص العصر الوسيط (عصر الفيودالية و النظام الفيودالي)

درج المؤرخون الأوربيون منذ عصر النهضة على تقسيم تاريخ أوربا إلى مجموعة عصور متعاقبة هي : العصر القديم بمرحلتيه اليونانية و الرومانية، و العصر الوسيط ثم العصر الحديث. واتخذوا من بعض الأحداث السياسية-العسكرية الكبرى مفاصل بين عصر و آخر.

ويجمعون في هدا الشأن بأن سنة 476 ميلادية، التي تم فيها وضع حد لسيادة الإمبراطورية الرومانية تمثل نهاية العصر القديم و بداية العصر الوسيط. بينما اعتبروا سنة 1453 ميلادية، تاريخ سيطرة الأتراك العثمانيين على القسطنطينية، نهاية العصر الوسيط و بداية العصر الحديث. ومن ثم، يكون العصر الوسيط قد استغرق حوالي ألف سنة. شهدت خلالها أوربا بوجه عام و مناطقها الغربية بوجه خاص أحداثا متميزة و تطورات متباينة، سواء من حيث الإيقاع أو من حيث المظاهر

تعود مقدمات تلك الأحداث و التطورات إلى الفترة الممتدة بين القرنين الثالث و الخامس. و هي فترة اصطلح على تسميتها بالعصر الإمبراطوري الأسفل. شهدت خلالها الإمبراطورية الرومانية أزمة متعددة المظاهر انتهت بسقوط روما سنة 476 م. على اثر موجة غزو أولى قامت بها شعوب قدمت من شمال أوربا عبر فترات، و استقرت على أطراف الإمبراطورية قبيل بداية الغزو.

وإذا كان ذلك الغزو قد أدى إلى نهاية وجود الإمبراطوربة الرومانية، فقد أدى من جهة ثانية إلى الإسراع بوتيرة تلك الأحداث و التطورات. إذ استطاعت تلك الشعوب، المعروفة بالشعوب الجرمانية، أن تسيطر على أقاليم غرب أوربا التي كانت ولايات تابعة للإمبراطورية. و أسست بها كيانات سياسية. فكان ذلك إيذانا

ببداية مسلسل التجزئة السياسية و تدهور المؤسسات العمومية.و هو مسلسل استفحلت حلقاته خلال السنوات و القرون التي تلت عمليات الغزو، رغم بعض المحاولات التي رامت العودة بأوربا إلى عهود الوحدة. و قد تمت تلك المحاولات في نطاق محدود و آلت إلى الفشل. و بالتالي، وجب الانتظار حتى أواسط القرن الخامس عشر لتبدأ محاولات الوحدة و لتشرع المؤسسات في التبلور في اطارالدول المركزية الناشئة.

و واكبت مسلسل التجزئة السياسية سلسلة حروب شبه متواصلة داخل أوربا و خارجها (كانت الممالك الأوربية طرفا فيها) استغرقت العصر الوسيط برمته. حدثت أولاها بين الممالك الجرمانية التي تأسست غداة الغزو. و تلتها حروب خاضها أكبر حكام هاته الممالك، كحروب شارلمان الملك-الإمبراطور في جرمانيا و ايطاليا و اسبانيا. ثم الحروب التي جرت فصولها بمناسبة الموجة الثانية من موجات الغزو التي قام بها هذه المرة السكندنافيون و الهنغاريون. و الحروب بين المسيحيين و المسلمين، و أبرزها الحروب الصليبية في المشرق و حرب الاسترداد في الأندلس. و انتهت سلسلة حروب العصر الوسيط بحرب المائة سنة بين فرنسا و انجلترا اللتان انضمت لهما ممالك أخرى.

ومن المفيد أن نذكرفي هذا المقام بأن العصرالوسيط في أوربا هو عصر الفروسية و الفرسان. فقد شكل الفرسان الشريحة السفلى في الأرستقراطية.وكانوا موزعين على شكل فرق(مليشيات). تعمل كل واحدة منها تحت إمرة أحد أفراد الشريحة العليا في الأرستقراطية .و تربط بين الطرفين روابط خاصة تعرف بالروابط الفيودو- فصلية liens les féodo-vassaliques). و قد مثلت هذه الروابط كنه ظاهرة الفيودالية.

وبما أن الحرب كانت اهتمام الفرسان الأول والأخير، فقد كانت الوقائع بين أفراد الأرستقراطيات المحلية أو الجهوية أمرا مألوفا. و قد بلغت الوقائع ذروتها

سنة 1337 حين اندلعت حرب المائة سنة المشارإليها آنفا. وكانت تتخلل سلسلة الحـروب و الوقائع، أو تسبقها أو تتلوها، حركـات اجتماعيـة- دينيـة كـان يقـوم بهـا الفلاحـون. و أبرزها حركات القرنين الحادي عشر و الرابع عشر.

وفي جميع الأحوال كان هؤلاء الفلاحون، الذين شـكلوا الـسواد الأعظـم في مجتمـع أوربا العصر الوسيط ، هم حصاد تلك الحركات و الحروب. كما كانوا في نفس الوقت هـم الحطب المغذي للحروب بما يقدمونه من خـدمات و ضرائـب و مغـارم و مكـوس لفائـدة الأرستقراطية العقارية التي سخر أفرادها كل الوسـائل القانونيـة و العـسكرية للاسـتفادة من فائض إنتاج عمل الفلاحين. الذين كان الواحد منهم ملزما بقضاء أكـثر سـاعات النهـار في وضعية انحناء نحو الأرض التي غدت خلال العصر الوسيط مصدر الإنتاج الرئيسي ، بـل مصدر حياة و وجود مجتمع بأكمله.

والجدير بالذكر في هذا الـصدد أن عمليـة إعـادة تـشكيل الخارطـة الـسياسية في أوربا بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية واكبتها عملية إعـادة تـشكيل مماثلـة « للخارطـة الاقتصادية » التي لم تعد مشكلة من أنشطة واضحة المعالم : نشاط فلاجي في الأريـاف و مبادلات تجارية و أنشطة حرفية و خدماتية في الحواضر. بل اختزلت كثيرا ، حتـى أنهـا لم تعد تشمل سوى النشاط الزراعي. في حين اختفت المبادلات التجارية و الأنشطة الحرفيـة و مختلف الخدمات ،بمـا فيهـا الأنـشطة الفكريـة التـي اشـتهرت بهـا مـدن الإمبراطوريـة الرومانية. و لم تعرف هذه الأنشطة الانتعاش إلا بعـد مطلـع القـرن الحـادي عـشر. حـين أفضت النهضة الزراعية التي شهدتها الأرياف إلى حـدوث تحـولات هائلـة شـملت جميـع مناحي الحياة.

بدأت تلك النهضة تسجل تراجعـا ارتـسمت معالمـه الأولى حـوالي 1316- 1317 .و أصبحت واضحة منذ حوالي 1320 ايذانا بحدوث انقلاب في الظرفية، سرعان مـا تحـول إلى أزمة اقتصادية و ديموغرافية و اجتماعية و سياسية و عسكرية و فكرية استغرقت القرنين الرابع عشر و الخامس عشر.

و انطلاقا مما تقدم نخلص إلى القول بأن مجمل أحداث و ظواهر و تطورات العصر الوسيط، بما فيها ظاهرة الفيودالية ،التي سنتناول جوانبها بتفصيل ،حدثت في الأرياف التي مثلت إطارها الرئيسي؛ على الأقل حتى مطلع القرن الحادي عشر. حيث ستشرع المدن الناشئة في الانضمام إلى الأرياف كفضاء لأحداث و تطورات ما بعد سنة 1000. و لذلك نؤكد منذ البدء بأن تاريخ العصر الوسيط في أوربا هو عموما تاريخ أرياف.

فمنذ القرن الثالث للميلاد شهدت الإمبراطورية الرومانية مشاكل متعددة المظاهر، ازدادت تفاقما حتى سنة 476 تاريخ سقوط روما. و كان من بين مظاهر تلك المشاكل تدهور المدن. و تواصل هذا التدهور خلال القرون اللاحقة حتى أن العديد منها اختفى تماما .و إن المدن القليلة التي استمرت في الوجود تقلصت مساحتها و تراجع عدد سكانها. و بالتالي، أصبحت الأرياف هي إطار جميع الأنشطة السياسية والاقتصادية و الاجتماعية و الفكرية حتى مطلع القرن الحادي عشر.حيث شهدت حركة التمدين بداية انتعاش سيتواصل خلال القرون الموالية. فشرعت المدن بموازاة تلك الحركة في استعادة جانب من وظائفها و جانب من الهيمنة التي كانت تمارسها على الأرياف قبل القرن الثالث.

ويجب التنبيه، بأن عملية الاستعادة تلك كانت محدودة نسبيا، حيث إن المبادلات التجارية التي تعتبر من أبرز الوظائف التي تحتضنها المدن ظلت مرتبطة بما كانت تقدمه الأرياف من منتجات زراعية ستشهد تراجعا منذ سنتي 1316-1317. و سيتأكد هذا التراجع بعد سنة 1320 و على امتداد قرنين من الزمان.

كما أن التشكيلة الاجتماعية التي تمنح المدن هوية مجتمعية تتطابق و تسميتها كمدن لم تأخذ في التبلور إلا بعد مطلع القرن الرابع عشر. لأن البورجوازية، التي كان يفترض أن تكون الطبقة السائدة في تلك المدن، كما سيحدث بعد مطلع القرن السادس عشر، ظلت هجينة بعد عودة حركة التمدين إلى الانتعاش.

مما لا شك فيه أن الفقرات السابقة تسلط بعض الضوء على خصائص العصر الوسيط ، و تساعد على فهم السياق العام الذي " نشأت " فيه و تطورت فيه الفيودالية في معناها الضيق كروابط و التزامات ذلت صلة بالفيف (le fief) أو في معناها الواسع كنظام اقتصادي و اجتماعي.

2- دلالات مفهومي " الفيودالية " و " النظام الفيودالي "

تعتبر كلمة " فيودالية " تعريبا للمصطلح الفرنسي " Féodalité " الذي شرع في استعماله بفرنسا ابتداء من مطلع القرن السابع عشر؛ في وقت أخذت تستعمل فيه بباقي أقطار أوربا مصطلحات مرادفة كمصطلح " Feudalismo " الذي استعمله الايطاليون و الإ سبانيون و مصطلح " Feudalism " الذي استعمله الأنجليزيون و مصطلح " Feudalismus" الذي استعمله الألمانيون. و يندرج هذا التعدد و التنوع في سياق تعدد و تنوع اللغات الناشئة في أقطار أوربا. حيث أصبح سكان كل قطر يستعملون لغة خاصة بهم ابتداء من هذه الفترة.

و قد تم اشتقاق جميع المصطلحات السالف ذكرها من الكلمة اللاتينية فيوداليس" Feodalis " أو من كلمة " Feodum " التي أصبحت الكلمة الأكثر تداولا في النصوص ابتداء من مطلع القرن الحادي عشر ، و تعني الفيف[1] " le fief ". و هو قطعة أرض كان شخص (و قد يكون أيضا مؤسسة دينية) يسمى " سنيورا " (un seigneur) يقدمها لشخص آخر. فيصبح المستفيد من قطعة الأرض تابعا للمانح و يسمى فصلا (un vassal). يلتزم بتقديم خدمات و التزامات معينة للسنيور. و تنشأ عن عملية تقديم الفيف و عن تلك الالتزامات روابط خاصة بين الطرفين.

1- ارتأينا ترجمة الكلمة الفرنسية fief بكلمة فيف (بعلامة سكون فوق الياء) لأنها أكثر دقة . في حين أن الكلمات مثل " اقطاعة " التي تجعلها بعض المعاجم العربية مقابلة لكلمة fief غير دقيقة و ذات دلالات خاصة تنطبق على المجال الإسلامي.

وقد ظلت كلمة فيودوم " Feodum " تعني منذ هذا التاريخ و حتى مطلع القرن الثامن عشر الفيف و الالتزامات المترتبة على التابع المستفيد منه. و بعد مطلع القرن الثامن عشر أخذ مفكرو أقطار غرب أوربا يعطون للمصطلحات الحديثة المشتقة من كلمة فيودوم مضامين و دلالات متنوعة. و تجلى هذا التنوع بشكل أكبر في فرنسا عاصمة فكر الأنوار الذي ساد في أوربا خلال القرن الثامن عشر.

فقد ظل رجال القانون و المهتمون بتاريخ المؤسسات حريصين على استعمال مصطلح " féodalité " بمعناه الضيق الأصلي، أي الفيف و ما يترتب عن الاستفادة منه من التزامات وروابط. أما أقطاب الفكر السياسي، أمثال لويس مونتسكيو (Charles Louis Montesquieu) (1689 - 1755) وهنري دي بولانفليي (Henri de Boulainvilliers)(1658- 1722) الذين عاصروا مرحلة سيادة السلطة المركزية في كل من فرنسا و انجلترا، فقد استعملوه عند الحديث عن التجزئة السياسية التي شهدتها أوربا بعد القرن التاسع، و ما نشأ عنها من طرق و أساليب خاصة في تدبير السلطة؛ التي أصبح يمارسها أفراد الأرستقراطية. كل واحد منهم يمارسها في حدود رفعة ترابية ضيقة. في حين أعطى الفلاسفة و المنظرون، أمثال فرانسوا ماري أروية (François Marie Arouet) المعروف بفولتير (Voltaire) (1698-1778) للمصطلح دلالات أوسع. فاستعملوه بمعنى نسق من التطور (un processus d'évolution). أو بمعنى نمط من أنماط الحياة (un mode de vie) كانت تتبناه مجتمعات غرب أوربا خلال العصر الوسيط . و يمكن أن يتبناه أي مجتمع في أي مجال جغرافي . فالفيودالية من وجهة نظرهم ليست مجرد ظاهرة خاصة شهدتها مجتمعات أوربا في العصر الوسيط ،بل هي نسق من أنساق التطور أو نظام حياة حدث في العصر القديم . كما حدث في العصر الوسيط . و له امتدادات في العصر الحديث .

وعلى غرار الفلاسفة و المنظرين أعطى المفكرون الاقتصاديون ، و أبرزهم الانجليزي أدم سميث (Adam Smith) (1723-1790)،لمصطلح فيودالية دلالات أوسع كذلك. فقد رأوا بأن الفيف الذي اشتق منه هو أولا و أخيرا عقار (un

(bien-fonds) اكتسى أهمية بالغة بالنظر إلى سيادة النشاط الزراعي في العصر الوسيط .و قد شكل تبعا لذلك مصدر ثروة بالنسبة للسيد و التابع. ومن ثم، لا يمكن الحديث عنه و عن الالتزامات و الروابط المتصلة به بمعزل عن الحياة الاقتصادية. فانكبوا على دراسة بنية ذلك العقار و مكونات تلك الثروة و مجالات صرفها و ما إلى ذلك من قضايا ذات صلة بالأوضاع الاقتصادية التي شهدتها أقاليم غرب أوربا زمن سيادة الفيودالية.

و قد شكلت طروحات الفلاسفة و المنظرين و المفكرين الاقتصاديين نقطة انطلاق بالنسبة لماركس و انجلز و أتباعهما الذين ذهبوا بعيدا. فجعلوا من الفيودالية نمط إنتاج،أي نظاما سوسيو- اقتصاديا نشأ بعد نهاية النظام العبودي. و انتهى عندما بدأت تترسخ قواعد النظام الرأسمالي.أي أن النظام الفيودالي نشأ في أوربا عندما تراجع دور العبيد كقوى منتجة و لم تعد العلاقات الاجتماعية قائمة على العبودية. وبدأ في الانحلال عندما هيمنت المبادلات التجارية على الحياة الاقتصادية؛ و بدأت العلاقات الاجتماعية تأخذ منحى منسجما مع تطور قوى الإنتاج. و معنى ذلك أن فترة سيادة نمط الإنتاج الفيودالي حدث خلالها تطابق بين قوى الإنتاج التي بلغت مستوى معينا من التطور و العلاقات الاجتماعية التي حققت بدورها مستوى معينا من التطور.

و تبعا لانتشار الفكر الماركسي، فقد تبنى هذا الطرح العديد من المفكرين والباحثين في أقطار أوربا و أمريكا و آسيا و إفريقيا. و أصبحوا يفضلون استعمال أحد المفهومين المركبين : " نمط الإنتاج الفيودالي" (mode de production féodal) أو " النظام الفيودالي " (système féodal) بدل مفهوم الفيودالية. لأن لهما دلالة شاملة تنطبق على جميع بنيات المجتمع السياسية و الاقتصادية والاجتماعية والفكرية. و يمكن استعمالهما عند البحث في بنيات مجتمعات أخرى غير المجتمعات الأوربية.

فيمكن حينئذ الحديث عن نمط إنتاج فيودالي في اليابان[1] أو في الصين أو في أحد أقطار إفريقيا.[2]

وانطلاقا مما تقدم، يتضح بأن المضامين و الدلالات التي أعطاها مفكرو أوربا لمصطلح فيودالية و للمصطلحات المرادفة له مضامين و دلالات مختلفة. و قد تحول الاختلاف إلى تباين حينما لجأ ثلة من المفكرين إلى استعمال مصطلحات مركبة هي نمط الإنتاج الفيودالي(le mode de production féodal) أو النظام الفيودالي (le système féodal). بحيث لم يعد ممكنا إحداث تقارب بين وجهات النظر.لأن المصطلحات ارتقت إلى مستوى المفاهيم، نظرا لصبغتها الإجرائية و الوظيفية و نظرا لما يعكسه استعمالها من مواقف و رؤى و مناهج في البحث. و لازال هذا التباين حتى اليوم أحد سمات الإنتاج الإسطريوغرافي المتصل بالموضوع.

و إجمالا يمكن التمييز في عموم الباحثين و المفكرين بين فئتين: فئة تتبنى و تستعمل مفهوم الفيودالية (أو أحد المفاهيم المرادفة له حسب لغة المفكر أو الباحث). و تلخص مضمونه في كونه الفيف و الالتزامات المرتبطة به و العلاقات القائمة بين الذي يقدمه و الذي يستفيد منه. و فئة تتبنى و تستعمل مفهوم نمط الإنتاج الفيودالي أو النظام الفيودالي بمعنى نسق من التطور شهده مجتمع غرب أوربا خلال مرحلة معينة من تاريخه تطابقت فيها قوى إنتاج، وصلت مستوى معينا من التطور، مع علاقات اجتماعية منسجمة معها.

---

[1] - يمكن العودة بهذا الخصوص إلى دراسة أصبحت اليوم كلاسيكية للباحث كوهاشيرو تكاهاشي(Kohachiro Takahachi) تحت عنوان :

La place de la Révolution de Meiji dans l'histoire agraire du Japon , in Du féodalisme au capitalisme Problèmes de la transition, traduction française, Paris Maspero,1977,Tome II.

و للاطلاع على أحدث ما كتب حول الفيودالية في اليابان و الصين و آسيا عموما نحيل القارئ على القسم الثاني من كتاب أنجزه مجموعة مؤلفين تحت إشراف جون- بيار بولي(Jean-Pierre Poly) واريك بورنازيل(Eric Bournazel) بعنوان :

[2] - انظر في هذا الشأن مداخلات الندوة التي نظمها مركز الدراسات و الأبحاث الماركسية بباريس يوم 27 أبريل 1968. وقد صدرت سنة 1974 ضمن منشورات سوي (Seuil) تحت عنوان : Sur le féodalisme

الفيودالية بمعنى الفيف و روابط الفصالة

يجمع جل الباحثين الغربيين، عامة و الفرنسيين بوجه خاص، بأن نشأة الفيودالية تعود إلى مطلع القرن الحادي عشر. و يربطون تلك النشأة بالتحولات السياسية التي بدأت تشهدها أقاليم غرب أوربا ابتداء من سنة 1000. و هي تحولات تمثلت في استفحال تدهور السلطات المركزية و نهاية الدور الذي كانت تقوم به المؤسسات العمومية في تدبير شأن القمطيات. مما أدى إلى حدوث فراغ سياسي و انعدام الأمن و الاستقرار.فوجد أفراد الأرستقراطية أنفسهم مضطرين إلى إيجاد صيغ جديدة للتآزر فيما بينهم. فظهرت من جراء ذلك الفيودالية – أي الروابط المتمحورة حول الفيف – كصيغة من صيغ التآزر المنشود. و قد شارك في تفعيلها جميع أفراد الأرستقراطية. بحيث أن كبار الملاكين العقاريين كانوا يقدمون قطع أرض لمتوسطي الملاكين، وهؤلاء كانوا يقدمون بدورهم قطع ارض للفرسان. و كانت هذه العملية تباشر وفق طقوس خاصة و في مراسيم احتفالية تتم فيها تسمية مانح قطعة الأرض سنيورا والمستفيد منها فصلا. يؤدي يمين الولاء للمانح و يتعهد بأداء خدمات والتزامات ذات صبغة عسكرية في المقام الأول. كانت تقتضيها الظرفية التي " نشأت " فيها الفيودالية. و إذ اتخذت تلك الروابط منحى عموديا، فقد اتخذت أيضا شكل علاقات أفقية. لأن الفصل كان بإمكانه أن يكون تابعا لأكثر من سنيور. و تفاديا لأي انزلاقات أو مشاكل قد تترتب عن تعدد علاقات الفصل الواحد ،فقد تم إيجاد ضوابط ملزمة، هي جزء من الروابط التي كانت تنظم الروابط بين كل سنيور و الفصل التابع له كما سنرى لاحقا. و لهذا الاعتبار و لغيره اتخذت الفيودالية طابع نظام متكامل (un régime).

و من هذا المنطلق يحق للمرء أن يتساءل كيف وصلت الفيودالية إلى هذا المستوى الأعلى من التطور و الاكتمال خلال هذه الفترة التاريخية، أي فترة ما بعد سنة 1000؟ ألم تسبقها أشكال و صيغ من الروابط هيأت لها إمكانية التطور؟ خاصة

إذا علمنا بأن الفرد الأوربي ،سواء كان ينتمي لعامة المجتمع أو لخاصته، لم يكن يعيش منعزلا عن الأفراد الآخرين المنتمين لفئته أو لطبقته أو لطائفته .كما لم يكن منعزلا عن الأفراد المنتمين لغير فئته. و لا يختلف اثنان في القول بأن أفراد الأرستقراطية ، الذين يهمنا أمرهم في هذا المقام، كانت تربط بينهم منذ عهود قديمة روابط اقتضتها المصالح المشتركة.

و نحن إذ نطرح هذه التساؤلات و نقدم هذه المعطيات ،فللتذكير بأن عددا من المؤرخين، وخاصة منهم الفرنسيون ،الذين سيأتي ذكر أسماء بعضهم لاحقا، ينكرون أن تكون الفيودالية – أي الروابط الفيودو – فصلية - امتدادا للروابط التي كانت قائمة بين أفراد الأرستقراطية قبل سنة 1000، أو شكلا متطورا لتلك الروابط . و دعواهم في ذلك هو أن الفيف بوصفه حجر الزاوية في تلك الروابط لم يظهر و لم يصبح محور الفيودالية إلا ابتداءا من مطلع القرن الحادي عشر. كما أن كلمة فيودوم نفسها التي اشتق منها مصطلح فيودالية لم يبدأ تداولها في النصوص إلا بعد سنة 1000.

و خلافا لهذا الاعتقاد، سنحاول في هذا القسم تأكيد فكرة مفادها أن الفيودالية تضرب بجذور عميقة في تاريخ غرب أوربا تعود على الأقل إلى القرن الثالث للميلاد. و قد تطورت لتصل إلى مرحلة النضج ابتداء من مطلع القرن الحادي عشر. و نميز في مسيرة الفيودالية الطويلة التي امتدت من القرن الثالث حتى نهاية العصر الوسيط[1] بين ثلاثة مراحل كبرى : أولاها مرحلة علاقات الرفاقة (leCompagnonnage) التي كان يقيمها أفراد الأرستقراطية الجرمانية مع مجموعة شباب. كانوا يتخذونهم رفقاء و حراسا لهم في نفس الوقت. و تمثل هذه العلاقات في

---

[1]- نعتبر تجاوزا بأن منتهى الفيودالية في معناها الضيق تطابق مع نهاية العصر الوسيط. و الحقيقة أن بعض مظاهرها القانونية و الاجتماعية استمرت في بعض أقاليم غرب أوربا إلى وقت متأخر. ففي فرنسا مثلا استمرت حتى سنة 1789. لذلك يعتبر بعض الباحثين الثورة الفرنسية ثورة ضد الفيودالية (une révolution anti-féodale).

اعتقادنا أصول الفيودالية. و ثانيها مرحلة علاقات الفصالة (le vasselage) التي أصبح يقيمها أفراد الأرستقراطية في الممالك التي تأسست بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية. و كانت هذه العلاقات قائمة بينهم و بين مجموعة أتباع (محاربين في المقام الأول). قامت في بادئ الأمر على عطاء غير الأرض يسمى بنفسيوم (beneficium)؛ ثم أصبحت الأرض أساس هذه العلاقات منذ منتصف القرن التاسع. و قد استغرقت الفترة الزمنية الممتدة من القرن السادس حتى نهاية القرن العاشر.أما المرحلة الثالثة، فهي مرحلة نضج الفيودالية. و خلالها أصبحت علاقات الفصالة التي سادت خلال المرحلة السابقة قائمة على الفيف. و لذلك نسمي العلاقات التي سادت خلال المرحلة الثالثة باسم الروابط الفيودو- فصلية تميزا لها عن علاقات الفصالة.

اولا: أصول الفيودالية : علاقات الرفاقة عند الجرمان

لا يمكن البحث في جوانب تاريخ أوربا خلال العصر الوسيط دون استحضار الجرمان، باعتبارهم إحدى أبرز القوى التي أثرت بشكل فعال في مجربات أحداث هذه الحقبة التاريخية. و أثروا تبعا لذلك في نظم و حضارة الحقبة المذكورة. و يكفي أن نذكر مجددا بأنهم هم الذين أجهزوا على الإمبراطورية الرومانية سنة 476. فساهموا بذلك في إعادة تشكيل خارطة أوربا السياسية. و تجاوز فعلهم حدود البنيات السياسية ليشمل البنيات الاقتصادية و الاجتماعية و عناصر السكان. و لا زالت مظاهر تأثيرهم في تاريخ و حضارة غرب أوربا سارية المفعول إلى يومنا هذا. بل تجاوز تأثيرهم حدود القارة الأوربية ليشمل مناطق من إفريقيا بعد أن نجحت مجموعة قبلية من الجرمان، متمثلة في الوندال، من إقامة مملكة ببعض أقاليم شمال إفريقيا.

وقد بات من المعروف اليوم بأن الشعوب الجرمانية تنحدر من أصول هندو-أوربية. كانت تقيم في المناطق المحيطة ببحر البلطيق ؛ و بالتحديد في الأقاليم التي تتشكل منها اليوم كل من السويد و الدانمارك و النرويج و الأقاليم المجاورة لها. و امتد

مجال تواجدها في اتجاه بحر الشمال و مصبي كل من نهر الألب و نهر الويزر.ثم شرعت بعد سنة 900 قبل ميلاد المسيح في القيام بحركة نزوح نحو الجنوب حتى أصبحت مستقرة حوالي القرن الثالث للميلاد في الأقاليم الواقعة شمال جبال الألب ونهر الدانوب و شرق نهر الراين.

يعد مصنفا سايوس يوليوس قيصر(Caius Julius Caesar) (100 ق.م. – 44 ق.م.) و بوبليوس كورنيليوس تاسيتوس (Publius Cornelius Tacitus) (55 ق.م. – 120 م.) أهم المصادر الخطية التي يعتمدها الباحثون في استقاء معلومات عن نمط حياة و تنظيمات الشعوب الجرمانية. فقد كان الأول قائدا عسكريا مارس السلطة و استكمل مشوار حياته المهنية كمدون للأحداث. خاض سلسلة حروب بين سنتي 58 ق.م. و 51 ق.م. لإخضاع غاليا (Gallia)[1] أو غالة (la Gaule). فوجد نفسه وجها لوجه أمام الجرمان الذين كانوا يشنون غارات على غاليا بين الفينة و الأخرى. فخاض ضدهم عدة وقائع. اضطر في إحداها إلى عبور نهر الراين لاستئصال شأفتهم في مواطنهم. و قد دون مذكراته عن تلك الحروب في مؤلف[2] نشره سنة 51 ق.م. يتضمن مادة طيبة عن السلتيين (les Celtes) أو الغاليين، سكان غاليا. كما يتضمن معلومات قيمة – و إن كانت ضئيلة – عن تنظيمات الجرمان العسكرية. بينما كان الثاني مؤرخا محترفا تجول في بعض مواطن القبائل الجرمانية. و دون هو الآخر مشاهداته في مؤلف نشره سنة 98 م.[3] يحفل بمعلومات غزيرة حولها تعد تكملة لما ورد في مذكرات يوليوس قيصر.

[1] - كانت غاليا تتكون قبيل سنة 58 ق.م من مجموع الأقاليم التي تتشكل منها فرنسا اليوم بالإضافة إلى الأقاليم التي تعرف حاليا ببلجيكا و أجزاء من شمال ايطاليا و بعض أقاليم ألمانيا. وكل هذه الأقاليم كانت خارج دائرة السيطرة الرومانية باستثناء أقاليم الجنوب التي كانت خاضعة للرومان منذ سنة 121 ق. م.

[2] - يعرف هذا المؤلف في ألأوساط الفرنسية باسمين : Commentaires sur la Guerre de la Gaule ou La Guerre des Gaules و قد اعتمدنا في هذا البحث على نسخة منه نقلها إلى الفرنسية و أعدها للنشر Charles Louandre. و صدرت بباريس سنة 1868 عن منشورات Charpentier. (تضم هذه النسخة النصان اللاتيني و الفرنسي).

[3] - يتعلق الأمر بكتاب Germaniae الذي اعتمدنا على نسخة منه حققها و نشرها Jacques Perret تحت عنوان La Germanie ؛ و صدرت سنة 1967 عن منشورات Les Belles Lettres بباريس. و تتضمن هذه النسخة النص اللاتيني و ترجمته الفرنسية.

يتضح من المؤلفين بأن الشعوب الجرمانيـة كانـت تتـألف مـن عـدة قبائـل. يمكـن التميز فيها بين ثلاث مجموعات كبرى تبعا لمجال استقرارها و هي : الجرمان الغربيون ، و يتألفون مـن قبائـل الألمـان والـسويق و الماركومـان و الفرنجـة. و الجرمـان الـشرقيون ، و يتألفون من قبائل الو ندال و القوط و البورغنديين و اللا نكوبـارديين. و أخـيرا الجرمـان الشماليون، و يتألفون من جرمان جبـال الألـب و جرمـان أقـاليم بحـر الـشمال و جرمـان العالم الاسكندناڤي.

كانت كل قبيلة، من مجموع القبائل، تتكون بـدورها مـن مجموعـة عـشائر تمثـل فيها العائلة (بالمعنى الواسع للكلمة) الخلية الأساسية. و قد كانت تعيش عـلى الزراعـة و تربية المواشي و القنص و الصيد و الحرب التي كانت من أبـرز اهتمامـات أفرادهـا مـن الذكور[1]. فقد كان محاربو إحدى القبائل يشنون غارات عـلى بعـض المراكـز الواقعـة عـلى الحدود مع الإمبراطورية الرومانية. وأحيانـا كـان مجموعـة محـاربين مـن إحـدى القبائـل يشنون غارات على قبيلة أخرى. فتقـع بـين أيـديهم غنـائم، وعـدد مـن الأسرى يبيعـونهم كعبيد في الأسواق الرومانية الواقعة بمحاذاة نهري الراين و الدانوب. و يحصلون على نقود يصرفونها في شراء سلع ترفيهية و مواد استهلاكية من تلك الأسواق.

وكان من الطبيعي أن تتزايد حاجياتهم باسـتمرار.فترتبـت عـن ذلـك زيـادة في غارات القبائل على بعضها البعض و ارتفاع في حدة الضغط الذي كانت تمارسه بعـض تلك القبائل على أطراف الإمبراطورية الرومانية. فدفع هـذا الـضغط الأبـاطرة و كبـار الموظفين الرومان إلى اللجوء إلى سياسة تقديم الهدايا العينية و النقدية لرؤسـاء تلـك القبائل و أعيانها و كبار محاربيها[2] بهدف استقطابهم و صرفهم عن شن غـارات عـلى الأقـاليم الحدوديـة. و بــذلك أخــذت تـراكم في حــوزة هــؤلاء الرؤسـاء و الأعيـان

[1] - Jules César,Guerre des Gaules,Op. Cit. Livre IV,pp. 143-144.

[2] - Tacite , La Germanie , Ibid. , p. 73.

وكبار المحاربين ثروات عينية ونقدية. أضافوها إلى ما كانوا يحصلون عليه من هدايا وأعطيات من لدن اسر القبائل التي كانوا ينتمون إليها بحكم مكانتهم السياسية والاجتماعية أو العسكرية. بوصف بعضهم رؤساء قبائل، و البعض الآخر أعضاء في مجالس القدماء (أو الشيوخ)(les conseils des anciens) أو محاربون كبار. فأصبحوا متميزين عن باقي أفراد القبائل التي ينتمون إليها. و شكلوا طبقة أرستقراطية وراثية. كما كونوا مجلسا دائما (un conseil permanent) أصبح يمارس السلطة في القبيلة. و استطاع بعض أعضاء هذا المجلس الارتقاء إلى مصاف الملوك. نعرف من بينهم اليوم أسماء أولائك الذين قادوا الجرمان إلى اقتحام أقاليم غرب أوربا و شمال إفريقيا أمثال شلدريك الأول (Childéric) ملك الفرنجة و ألريك (Alaric) ملك القوط الغربيين و جنسريك (Genséric) ملك الو ندال.

و كان من تبعات تنامي ثروة أفراد الطبقة الأرستقراطية و تميزهم عن سائر الأفراد، أن لجأ عدد منهم الر استقطاب مجموعات من الشباب أصبحوا يشكلون حاشياتهم. فكانوا يحضرون اجتماعاتهم و مجالسهم. واتخذوهم في نفس الوقت حرسا خاصا لهم. يسهرون على حمايتهم و حماية ممتلكاتهم و مرافقتهم في تنقلاتهم. و قد كان كل ارستقراطي يحرص على انتقاء الشباب المكونين لحاشيته و حرسه. فيشترط أن تكون سمعة الواحد منهم طيبة. وأن يكون على دراية بفنون الحرب و القتال.

وقد تحدث تاسيتوس عن هذه المجموعات من الشباب باسم" الرفقاء "(les compagnons) قائلا في نص تقتضي الضرورة إثباته رغم طوله :"(...) إن إحدى سمات النبالة هي أن يحضى بعض الأفراد برضى بعض الرؤساء.وهي رغبة بعض الأفراد من الشباب أيضا. إذ يسعون إلى الانضمام إلى بعض الأقوياء. و قد كان يتم التعبيرعن هذه الرغبة منذ قديم. و إن الفرد لا يخجل حين يجد نفسه من بين الرفقاء(...) بل إن الرفقاء يتنافسون ليكون الواحد منهم أكثر قربا من الرئيس. كما يتنافس الرؤساء ليكون للواحد منهم أكبر عدد من الرفقاء. انه المجد، إنها القوة أن

يكون الواحد محاطا دائما بمجموعة كبيرة من أفراد شباب يمثلون الصفوة. فهم زينة أوقات السلم و حرس أوقات الحرب(...)إن الحرص عليهم شديد، ومن أجله تقدم لهم الأعطيات. وغالبا ما يكفي اسمهم لتحديد نتيجة الحروب..."[1] و يقول في موضع آخر "(...)إن الرؤساء يحاربون من أجل النصر، أما الرفقاء فيحاربون من أجل رئيسهم".[2] و ينتصرون له ظالما أو مظلوما.

و مما لا شك فيه، أن النصوص التي يتضمنها مصنف تاسيتوس تأكد المنحى الحربي "العسكري" الذي أخذته علاقات الرفاقة بين الشباب المحاربين و الملوك و أعيان و رؤساء القبائل. و ينسجم هذا التطور، فيما يبدو، مع طبائع القبائل الجرمانية المعروفة بميلها إلى الحرب و القتال منذ أزمنة غابرة كما يوضح ذلك يوليوس قيصر في مذكراته[3]. و استمرت كذلك زمن تاسيتوس؛ الذي يذكر بأن الواحد من أفراد تلك القبائل لم يكن يباشر أمرا خاصا أو عاما إلا وهو يحمل سلاحه[4]. ومهما يكن من أمر،فإن تاسيتوس الذي خص مسألة الرفاقة بحديث مسهب في مصنفه لا يفصح عما إذا كانت تقدم للرفقاء الشباب قطع أرض أم لا؟ و الأكيد أن كل أرستقراطي كان يسهر على إيواء أفراد المجموعة التابعة له. و يقوم بتلبية حاجياتهم من ملبس و مأكل و مشرب. و يقدم لكل واحد منهم فرسا وقطع السلاح التي تتطلبها مهامه كمحارب.بالإضافة إلى بعض الهدايا و التحف أو أعداد من العبيد الذين يتم الحصول عليهم بعد كل غارة محلية على إحدى القبائل أوغارة على أحد المواقع الرومانية.ومن هذا المنطلق نعتقد أنهم لم يكونوا يستلمون قطعا أرضية. لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى مصدر عيش[5]،و لأن مهامهم كانت تقتضي بأن يظلوا بالقرب من سيدهم.

---

[1]- Ibid. , p. 78.

[2]- Ibid. , p. 79.

[3]- أنظر الكتاب الرابع من مؤلف يوليوس قيصر La Guerre des Gaules

[4] - Tacite , La Germanie, Op.Cit., p.78.

[5]- هذا ما يفهم من حديث مارك بلوك(Marc Bloch) حين يذكر في معرض حديثه عن الروابط خلال هذه الأزمنة بأنه كانت تفوح منها رائحة "خبز الدار"(le pain de ménage) أنظر في هذا الصدد كتابه :
La Société Féodale, Paris, Albin Michel, 1968, pp.233-249 et p.259.

ويبدو أن هذه الروابط التي تعود إلى ما قبل القرن الثالث استمرت في الوجود و التطور خلال القرنين الرابع و الخامس رغم أنه من الصعب تتبع مسارها خلال هذه الفترة نظرا للغموض و الاضطراب الذي ميزها. فقد تردت الأوضاع في الإمبراطورية الرومانية بسبب الفوضى السياسية والعسكرية والمصاعب الاقتصادية و الاضطرابات الاجتماعية. و زادت من تفاقم تلك الأوضاع عمليات الغزو الجماعي الذي قامت به القبائل الجرمانية.و من المعطيات الدالة على استمرارها و تطورها هو أن بعض الكلمات التي تؤلف اليوم ما يسمى بقاموس الفصالة، مثل كلمة ڤاسو (vasso) و كلمة ڤاسوس (vassus)، كانت مستعملة في اللغة اللاتينية المتداولة من قبل العامة قبل القرن السادس. وستدخل ضمن لغة المتن الذي تتألف منه القوانين " البربارية " (les lois barbares) التي أصبحت تنظم المعاملات في الممالك الجرمانية بعد القرن السادس،و خاصة المجموعة المعروفة بالقانون السالي (la loi Salique)[1] و المجموعة المعروفة بالقانون الضفي (la loi Ripuaire)[2]. ففي هذه القوانين أصبحت كل من كلمة ڤاسو و كلمة ڤاسوس تطلق على العبيد وكذلك على مجموع الأفراد المرتبطين عن طريق الولاء بأفراد آخرين[3]، أي أتباع. و يتضح من خلال القوانين المذكورة بأن هؤلاء الأتباع كانوا أفرادا متواضعين من الناحية الاجتماعية، و لكنهم كانوا،خلافا للعبيد، أحرارا من حيث الوضع القانوني. بدليل

[1]- يمثل القانون السالي مجموعة الأعراف التي كانت تحتكم إليها مجموعة من قبائل الفرنجة. و فد تم تدوينها بين سنتي 507 و 511 على عهد كلوڤيس (Clovis) أول ملوك الفرنجة في غاليا أو(غالة). فأخذت شكل مدونة قوانين مؤلفة من 65 بندا على شكل فقرات متفاوتة الطول. ثم خضعت لعمليات تكملة و تنقيح عدة مرات بين سنتي 511 و 533 و بين سنتي 567 و 593 ثم بين سنتي 763 و 764 . و تم تصحيحها أخيرا سنة 798. و صدرت بعد تحقيق نصها في عدة طبعات من بينها طبعة 1828 التي تضم مجموعة القوانين السالية و مجموعة القوانين الضفية باللغتين اللاتينية و الفرنسية في كتاب واحد تحت عنوان :
Lois des Francs (contenant la loi Salique et la loi Ripuaire), texte traduit et annoté par Jean François- Aimé Peyré , Paris, Imprimerie de Firmin Didot, 1828.

[2]- نسبة إلى مجموعة قبائل من الفرنجة كانت مستقرة قبيل عمليات الغزو بمناطق محاذية لنهر الراين. فسموا بالفرنجة الضفيين (Francs Ripuaires les)

[3]- أنظر الفقرة 35 ، البند6 من القانون السالي ضمن الكتاب المشار إليه في الهامش السابق.

أن القانونان السالي و الضفي يوضحان بأنهم كانوا يحضرون الاجتماعات العمومية (les plaids). و من المعلوم أن حضور الاجتماعات خلال فترة سيادة الممالك الجرمانية الناشئة في أقاليم غرب أوربا، كان مقتصرا على الأفراد الأحرار،كيفما كان موقعهم في علاقة التبعية.

تسمح المعطيات التي أوردناها بتأكيد وجود روابط تبعية قبل القرن الثالث للميلاد. نشأت في أطراف أقاليم غرب أوربا. ثم انتقلت في مرحلة لاحقة، أي بعد سنة 476 ، إلى قلبها. فهل معنى ذلك أن الفيودالية ذات أصول جرمانية؟ هذا ما نميل إليه رغم أن قلة من الباحثين هم وحدهم الذين أثاروا هذه المسألة. ومن بينهم الفرنسي فرنسوا ڭيزو (Francois Guizot) الذي يؤكد في كتاب صدر له سنة 1830 بأنه ليس من المعقول أن تصل الفيودالية إلى مرحلة الاكتمال دون أن تكون لها مقدمات[1]. و إذ تفادى جعل تلك المقدمات ذات أصول جرمانية أو رومانية، فقد دعا إلى رصدها من خلال البحث في ثلاثة عناصر. أولاها طبيعة الملكية الترابية و ثانيها انصهار السيادة مع ملكية الأرض و ثالثها منظومة المؤسسات التشريعية و القانونية و العسكرية[2]. أما الأنجليزي سير فرنسيس بالغريب (Francis Palgrave) فقد كان أكثر وضوحا حين ذهب إلى التأكيد بأن بعض عناصر الفيودالية ذات أصول جرمانية. حملها الجرمان معهم من أدغال جرمانيا. ومن بين تلك العناصر الولاء (l'hommage) الذي يتم التعبير عنه عمليا بانحناء شخص أمام شخص آخر و وقوفه على الركبتين و قولا بترديده لعبارة " أريد أن أصبح رجلك "[3]. أما قطب المدرسة التاريخية الفرنسية المعاصرة مارك بلوك فقد نعت مسألة الأصول بكونها " معضلة " يصعب الحسم فيها. و اكتفى في موضوعها ببضعة أسطر. أبان فيها عن ميله

---

[1]- Francois Guizot , Histoire de la civilisation en France depuis la chute de l'Empire romain,(3 éme édition), Paris, Victor Masson, 1851, Tome III, p.227.

[2] - Ibid. pp.230-231.

[3]- Francis Palgrave, History of the Anglo – Saxons, London, William Tegg , 1869, p. 211.

إلى اعتبار أصول الفيودالية جرمانية- رومانية في نفس الوقت. امتزجت مع مرور الزمن.[1] و على غراره ذهب روبير بوتريش (Robert Boutruche) إلى القول بثنائية الأصول حيت أكد بأن " الفصالة "[2] نشأت من جراء قيام أفراد الأرستقراطية في مختلف الممالك الجرمانية الناشئة بإحياء علاقات الرفاقة (الجرمانية) وعلاقات الإذعان و التضرع (la recommandation) التي كانت منتشرة في ربوع الإمبراطورية الرومانية خلال المرحلة المتأخرة من عمرها[3].

و تعقيبا على ما ذهب إليه بوتريش، نوضح بأن علاقات الإذعان و التضرع قامت بين بعض الأفراد الأثرياء من الأرستقراطية الرومانية و كبار الموظفين. و أخذت طابع الزبونية و تبادل المصالح. بينما كان أفراد آخرين من متوسطي الحال أو من الفقراء يضعون أنفسهم رهن إشارة أولائك الأثرياء و كبار الموظفين لخدمتهم و الانخراط في زمرتهم نظير الحصول منهم على ما يسد رمقهم. و لكنها لم تأخذ في كل الأحوال ذلك المنحى الحربي الذي أخذته علاقات الرفاقة. لأن الإمبراطورية الرومانية، حتى تاريخ سقوطها، ظلت " دولة مؤسسات " كانت فيها أمور حفظ الأمن الداخلي و خوض الحروب موكولة لمؤسسات وأجهزة رسمية، أبرزها الجيش النظامي. و بالتالي، فان أفراد الأرستقراطية الرومانية لم يكونوا في حاجة إلى تكوين " مليشيات عسكرية " مسخرة لحمايتهم. و لكن لا بأس من التنبيه في هذا المقام بأن العادة جرت في جميع ولايات الإمبراطورية بأن يحيط كل واحد من أفراد الأرستقراطية نفسه بحاشية من الأتباع و الأصدقاء و "الزبائن" و من ضمنهم بعض أفراد الحرس الخاص.و لا شك أن هذا الإجراء الأخير أخذ في الاستشراء بموازاة تفاقم الأوضاع الأمنية خلال المراحل المتأخرة من عمر الإمبراطورية.

---

[1]- Marc Bloch , La Société féodale , Op.Cit. ,pp. 213-214.-

[2]- أي العلاقات التي سادت خلال ما سميناه بالمرحلة الثانية من مسيرة الفيودالية.

[3]- Robert Boutruche , Seigneurie et Féodalité, Paris, Aubier, 1975, Tome I ,p.166.

و مهما يكن من أمر،فان روابط التبعية لم تكن قائمة على الفيف خلال هذه المرحلة الأولى من مسيرة الفيودالية حسب الإفادات التي تقدمها النصوص المتوفرة. كما أن تلك الروابط كانت تتم في نطاق محدود نسبيا، على اعتبارأن المعنيين بها كانوا نفرا من علية القوم و مجموعة شباب يسعون لتحسين أوضاعهم الاجتماعية. ويطمحون لتحقيق المجد من خلال استغلال شجاعتهم و مقدراتهم القتالية.

ولكن يجب التذكير في هذا المقام بمقولة " أول الغيث قطرة ". فهذه الروابط كانت في بداياتها. و بما أن حالة عدم استقرار الأوضاع الأمنية استمرت بعد سنة 476 على امتداد عدة قرون، فقد استدعى الأمر من أفراد الأرستقراطية البحث المتواصل عن سند حرصا على ذواتهم و على ممتلكاتهم. و كان من تبعات ذلك أن اتسع نطاق تلك الروابط كما سنرى لاحقا. و لا بأس من التذكير بأن علاقات التضرع و الإذعان استمرت هي الأخرى في خط موازي مع علاقات الرفاقة. فالأوضاع السياسية المتردية و الظرفية الاقتصادية الصعبة ظلت تدعو الأغنياء إلى البحث عن سند و الفقراء إلى البحث عمن يحميهم و يلبي حاجياتهم[1].

ثانيا: من علاقات الرفاقة إلى علاقات الفصالة

تميزت الممالك الجرمانية بكونها لم تكن دول مؤسسات قوية ومتطورة كما كان الأمر خلال سيادة الإمبراطورية الرومانية. لأن السلطة فيها ظلت منذ عهد الملوك الأوائل، و على امتداد حوالي ثلاثة قرون،[2] تختزل في شخص الملك الذي كان قائد حرب في المقام الأول. يعتبر، طبقا لتقليد جرى العمل به منذ عهود قديمة، الكيان الذي يخضع لسلطته بمثابة غنيمة تمت حيازتها بعد النصر. يتصرف فيها كيفما شاء،

[1]- اكتفينا في هذا المقام بذكر الأوضاع السياسية و الاقتصادية دون ذكر اعتبارات أخرى أسهمت بدورها في تفعيل تلك العلاقات ومن بينها المواقف الذهنية السائدة. فالأغنياء، وهم أيضا الأقوياء، بقدر ما كانوا يبحثون من وراء علاقات الإذعان و التضرع عن السند،فقد كانوا ينشدون أيضا القيادة و تحقيق الشهرة.

[2]- أي منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة 476 و حتى بداية حكم شارلمان سنة 768، الذي سيسعى إلى القيام بسلسلة إصلاحات إدارية و قضائية و اقتصادية للرقي بمستوى المؤسسات.

ثم يقسمها على أبنائه قبيل وفاته. و لذلك فان " الرجالات " الذين كانوا يساعدون الملك في إدارة و تدبير " الغنيمة " كانوا بمثابة خدام أكثر من كونهم موظفي دولة. لم يتعد فعلهم و تأثيرهم حدود دائرة ضيقة. و من ثم، ظلت الأقاليم البعيدة عن القصر، الذي يمثل المركز،بمنأى عن تأثير الملك و خدامه. وهذا ما يؤكده روبيرفوصيي(Robert Fossier) حين يذكر بأن عدم فعالية المؤسسات و الأجهزة في مملكة الفرنجة بغالة، كما في مملكة القوط الغربيين باسبانيا أو في مملكة اللومبارديين بايطاليا دفع بعض كبار الملاكين العقاريين، بمن فيهم كبار رجال الدين، إلى الاستعانة بعدد من فرق العبيد الذين كانوا في ملكيتهم و بمجموعات من الشباب. إذ كانوا يسهرون على إيوائهم و إعالتهم و تزويدهم بالسلاح نظير القيام بحراسة ممتلكاتهم[1]. و قد كانت مهام هؤلاء المسلحين تتجاوز حدود الحراسة إلى المشاركة في أي اشتباك قد يقع بين المالك العقاري الأرستقراطي و أحد جيرانه. و كذلك الإنخراط ، تحت إمرة سيدهم، في الحروب الدفاعية أو الهجومية التي تخوضها المملكة. و يكتسي هذا المعطى أهمية كبرى نظرا لما سيترتب عنه مستقبلا من نتائج فيما يخص علاقة " الدولة " بظاهرة الفيودالية، لذلك سنتوقف عنده قليلا.

فقد كانت الحروب من الثوابت التي رافقت تاريخ الممالك الجرمانية منذ مراحل تأسيسها. حتى إن إحدى الباحثات ذهبت إلى القول بأن فترات السلم خلال مرحلة سيادة الممالك الجرمانية كانت بمثابة الفاصل بين مشهدين في عرض مسرحي. و مع ذلك، فان ذلك الفاصل لم يكن مرغوبا فيه.[2] و يبدو أن هذا القول ينطبق أيضا على الفترات التاريخية التي تلت مرحلة سيادة الممالك الجرمانية حسب خلاصة انتهت

[1] - Robert Fossier, Histoire sociale de l'Occident médiéval, Paris, Armand Colin, 1970, p.98.

[2] - Colette Beaune, Le miroir du pouvoir, les manuscrits des rois de France au Moyen Age, Paris, Bibliothèque de l'image, 1997, p.95.

إليها باحثة أخرى.[1] و دون استعراض كرونولوجية الحروب التي خاضتها هاته المملكة أو تلك، يمكن التمييز فيها بين ثلاثة أشكال : حروب توسعية، و حروب دفاعية، و حروب ناتجة عن نزاع بين أفراد إحدى الأسر المالكة أو بين الأسرة الحاكمة في مملكة من الممالك و بعض العناصر المتمردة على السلطة. بالإضافة إلى شكل آخر أشرنا إليه سابقا، و إن لم يكن يعني القائمين على الأمرمباشرة، تمثل في الحروب الخاصة (les guerres privées) بين بعض الأسر الأرستقراطية داخل المملكة الواحدة. و في جميع الأحوال كانت وقائع تلك الحروب كثيرة. و كانت تتطلب التوفر على موارد بشرية هائلة و متجددة باستمرار؛ و هو الأمر الذي لم يكن من السهولة بمكان لاعتبارات ديموغرافية[2] و اقتصادية[3]. و من ثمة، تتضح صحة ما ذهب إليه مارك بلوك منذ ثلاثينيات القرن الماضي حين أكد بأن التحدي الأكبرالذي كان على القائمين على الأمر رفعه لم يكن متصلا بمسألة تدبير شأن ممالكهم أوقات السلم، بقدر ما كان يتمثل في كيفية الحصول على العناصر البشرية اللازمة لخوض الحروب[4]. لذلك كانوا يستنفرون عند كل وقعة كل الذكور الأحرار القادرين على حمل السلاح. كما كانوا يستعينون بخدمات أفراد الأرستقراطية الذين كانوا يعززون " جيوش الملوك " بما كان تحت إمرتهم من عناصر مسلحة. و سيزداد الأمر حدة في الممالك التي أصبحت محاذية لمراكز الوجود الإسلامي في أوربا بعد أن نجح المسلمون في فتح الأندلس سنة 711 و شرعوا في عبور جبال البرانس. و أهم الممالك التي نعنيها في هذا المقام مملكة غاليا

[1] - Hélène Débax, La féodalité languedocienne XIe-XIIe siècles. Serments, hommages et fiefs dans le Languedoc des Trencavel, Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, 2003, p.234.

[2] - كانت أعداد سكان أقاليم غرب أوربا قليلة منذ سنة 476 حتى مطلع القرن التاسع؛ حيث بدأت تلك الأقاليم تشهد بداية نمو ديموغرافي سيتضح أكثر بعد حوالي سنة 1000. و تعزى تلك القلة لأسباب بشرية و طبيعية، من بينها الحروب و الانتفاضات الاجتماعية و الأوبئة والمجاعات.

[3] - تتمثل هذه الاعتبارات في تدهور مختلف الأنشطة و ندرة السيولة النقدية لدفع مرتبات الجند. فضلا عن كون تكاليف إعداد الفارس الواحد كانت باهضة. فالفرس لوحده كان سعره خلال القرن السابع يبلغ ثلاث مرات ضعف سعر الثور.

[4] - Marc Bloc, La société féodale, Op.Cit., pp.217-218.

(أو غالة) التي كان يحكمها شارل[1] محافظ قصر أوسترازيا إبان فترة أوج الفتوحات الإسلامية في أوربا بعد سنة 711. فقد شرع في استنفار جميع من له قدرة على حمل السلاح. بل فكر جديا في استحداث فرق من المحاربين تمتطي صهوات الخيول بعد أن كان معظم محاربي المملكة من المشاة[2]؛ في حين كان المسلمون يعتمدون غي حروبهم على الفرسان إلى جانب المشاة. وفي هذا الصدد، يفيدنا أحد إخباريي القرن الثامن[3]، بأن شارل نجح بعد سنة 716 في تكوين فرق من الفرسان انضمت إلى صفوف خاصة محاربيه(حرسه الخاص) الذين كانوا مرتبطين بقائدهم شارل بعلاقات تبعية و ولاء. و كان المحاربون العاملون تحت إمرة أفراد الأرستقراطية يعززون هذا الجيش؛ بالإضافة إلى كل من له قدرة على حمل السلاح. و قد حقق انتصارات كاسحة في جميع الوقائع التي خاضها ضد السكسونيين(les Saxons) و الألمن (les Alamans) والفريزيين (les Frisons). و تمكن من إيقاف المد الإسلامي في وقعة بواتيي

---

[1]- هو شارل ابن ببين هرسطال(Héristal).ولد حوالي سنة 688 وتوفي سنة 741. كان دوقا لمقاطعة أوسترازيا. ثم أصبح محافظا لقصرها بين سنتي 737 و741. و بما أن الملوك المنتمين للأسرة الميروڤنجية الذين تعاقبوا على حكم غالة منذ سنة 638 كانوا ضعاف الشخصية أو صغار السن، فان محافظي القصور هم الذين كانوا بمثابة ملوك فعليين. و قد برز من بينهم محافظو قصر أوستراريا : ببين هرسطال ثم ابنه شارل الذي لقب بشارل مارتل (Charles Martel) (أي شارل المطرقة) بعد وقعة بواتيي أو بلاط الشهداء.

[2]- يجب أن ننبه في هذا المقام بأن الممالك الجرمانية لم تكن تتوفر على جيوش نظامية كما كان الأمر خلال سيادة الإمبراطورية الرومانية، لذلك كان الملوك يستنفرون عند كل حرب الذكور الأحرار القادرين على حمل السلاح. كانوا ينظمون على شكل فرق من المشاة. أما الفرسان المشاركون في تلك الحروب فكانوا يتألفون أساسا من الفرسان العاملين تحت إمرة أفراد الأرستقراطية والفرسان التابعين للملوك. و يمثلون حرسهم الخاص (les antrustions). و سيتزايد عدد الفرسان المحاربين تحت إمرة الملوك بعد إصلاحات شارل العسكرية.

[3]- يتعلق الأمر بمؤرخ مغمور يدعى فريدڭير(Frédégaire). ينتمي لمنطقة بورغونديا و عاش معظم حياته في مقاطعة أوستراريا. وضع مصنفا سنة 660 يتناول الأحداث منذ بدء الخليقة حتى حوالي 642. و من ضمنها الأحداث التي شهدتها ممالك كل من الفرنجة و اللومبارديين و القوط الشرقيين و الغربيين. ثم تعاقب على استكمال نص الكتاب ثلاثة إخباريين مددوا الفترة التي يتناولها حتى حدود سنة 768. تم تحقيق و ترجمة هذا المصنف المؤلف من عدة نسخ إلى مختلف اللغات الأوربية. و قد اعتمدنا في هذا البحث على ترجمة فرنسية أنجزها فرانسوا ڭيزوت (François Guizot) وصدرت بباريس سنة 1823 ضمن منشورات J.-L.-J. Brière في كتاب يتضمن مؤلف غريغوار أسقف مدينة تور (تاريخ الفرنجة) و مؤلف فريدڭير (إخبارية) (Chronique) تحت عنوان :

Collection des Mémoires relatifs à l'histoire de France

(Poitiers) (بلاط الشهداء) سنة 732. ثم اتجه نحو الجنوب حيث استرد أقاليم أكيتانيا و بورغونديا و بروڤانسيا. و استكمل بذلك وحدة غالة.

و أهم ما في الأمر،هو أن القائمين على الأمر في غالة بدوا ، منذ عهد شارل مارتل، أكثر اقتناعا من أي وقت مضى بمدى ثقل الأرستقراطية على المستويين العسكري و السياسي ، فارتأوا الاستمرار في تسخيرها لتحقيق مشاريعهم. و لذلك أخذوا يغضون الطرف عن إجراءات أفراد الأرستقراطية الذين ظلوا يدينون بالولاء للقائمين على الأمر و لمثليهم في مختلف القومطيات؛ و لكنهم لم ينفكوا في نفس الوقت يعملون على توسيع نطاق شبكة علاقات التبعية التي سبق أن أرسى قواعدها آباؤهم و أجدادهم منذ أمد بعيد. و كان من نتائج سياسة غض الطرف أن أصبحت لإجراءات أفراد الأرستقراطية شيئا فشيئا تداعيات في دائرة كل قرية تقع بها ممتلكات هذا الأرستقراطي أو ذاك. تجلت تلك التداعيات في كون عموم الفلاحين المقيمين في تلك القرى أصبحوا يخضعون أكثر للقوة التي يلمسون وقعها و ليس لتلك التي يشعرون بصداها. و هذا أمر طبيعي إذا علمنا بأن القوة اقترنت في جميع المجتمعات و منذ فجر التاريخ بالثروة. فالذي يملك الثروة يملك القوة. فيتقرب له من هم أنداده أو الأقل منه ثروة و يذعن له المستضعفون[1].

و من ثم، فان تلك الإجراءات ذات الطابع الحربي،و ما استتبعها من علائق، أخذت تتبلور و تترسخ أكثر فأكثر في ربوع قرى غرب أوربا على حساب علاقات التضرع و الإذعان (la recommandation) التي ضاق نطاق استعمالها دون أن تختفي بصورة نهائية ، طالما أن نسبة كبيرة من أفراد مجتمع غرب أوربا كانت تعيش في حالة إملاق. و لذلك، فان عددا منهم ظلوا يضعون أنفسهم رهن إشارة متوسطي

[1]- و من هنا نفهم لماذا تنعت النصوص الأرستقراطي بالقوي (Potentat) و المسيطر(Dominus). و من هنا الفعل الفرنسي سيطر (dominer) .

الحال و الأغنياء لخدمتهم ، أو فقط لاستجدائهم و الحصول منهم على ما يسد رمق أفراد أسرهم.

ويؤكد روبير بوتريش غلبة العلاقات ذات البعد الحربي (العسكري)، مستدركا في ذات الوقت موقفه السابق بخصوص ثنائية أصل الفيودالية في قوله :" المحصلة النهائية هي أن الفصالة ،في معناها الحقيقي ،نشأت في أوساط المحاربين وفق مقتضيات ستتضح و ستتبلور أكثر مستقبلا. و ستفضي في ذات الوقت إلى إرساء التزامات أكثر تخصصا ستلقي بضلالها على علاقات التضرع و الإذعان"[1].

و يبدو أن موعد أجرأة مقتضيات الفصالة لم يتأخر كثيرا. فالملوك الجرمان الأوائل في غالة و في الممالك الأخرى كانوا يغضون الطرف عن مختلف أشكال علاقات التبعية. ولكن ملوك ما بعد العقد الثالث من القرن الثامن أصبحوا منخرطين في تفعيلها. و يعني هذا الانخراط في أعين بعض الباحثين[2] نجاح الأرستقراطية في الهيمنة على " المؤسسة الملكية " في تلك الممالك.

و تمثل سنة 757 لحظة حاسمة في هذا الاتجاه. وقعت أحداث تلك اللحظة في غالة أكبر الممالك الجرمانية و " مهد الفيودالية ". و أورد اينهارد أو ايجنهارد (Eginhard)[3] تفاصيلها في " حولياته " ضمن أحداث سنة 757 كما يلي :" كان الملك ببين (Pépin)[4] يرأس جمعا ببلدة كومين (Commynes ou Compiègne)[في أحد أيام تلك السنة] فقدم تسلون (Tassilon) دوق (Duc) بڤاريا. و مثل بين يدي

---

[1] - Robert Boutruche, Seigneurie et féodalité, Op.Cit. Tome I, p.170.

[2]- أنظر على سبيل المثال ما يذكره ميشال كابلان (Michel Kaplan) حول الموضوع في كتابه :
Histoire médiévale, Tome I, Le Moyen Age IVe-Xe siècles, Paris, Boréal, 1994, p.168.

[3]- يعتبر من أشهر إخباريي غالة. ولد حوالي سبة 770 أو 775 و توفي سنة 840. ينحدر من أسرة نبيلة.تلقى تعليمه الأولي بمنستير فولدا (Fulda) شرق غالة. و أبان عن فطنة ونباهة منذ نعومة أظافره، فتم إرساله سنة 791 إلى المدرسة الملكية الملحقة بقصر شارلمان لاستكمال تعليمه. و ظل بالقصر،حيث قربه شارلمان منه و أصبح من خاصته. و عينه كاتبا خاصا له و"وزيرا".
نظم مجموعة قصائد و وضع عدة مؤلفات أشهرها عمل "بيوغرافي"حول شخص شارلمان يعرف ب"حياة شارلمان"(Vita Karoli) و كتاب الحوليات(Annales) الذي يشك بعض الباحثين في نسبته لايجنهارد.

[4]- هو ببين ابن شارل مارتل. يعرف بببين القصير نظرا لقصر قامته. ولد حوالي سنة 715 و توفي سنة 768. شغل منصب محافظ قصري كل من نوستريا و أوسترازيا بمملكة غالة بين سنتي 741 و 751. ثم أقصى آخر الملوك الميروڤنجيين و أصبح ملكا لمملكة غالة منذ سنة 751 حتى تاريخ وفاته.

الملك و قدم له الولاء عن طريق لف اليدين. ثم وضع يده على الكتاب المقدس و أقسم اليمين بأن يصبح تابعا للملك و ابنيه السيد شارل و السيد كارلومان. و هذا ما يتوجب أن يقوم به بتفان و إخلاص كل فصل لسادته. و قام أعيان بڤاريا الذين قدموا مع تسلون بدورهم بتأدية فروض الطاعة والولاء "[1].

يكتسي النص من دون شك أهمية قصوى لكونه يتضمن معطيات ذات قيمة بالغة في تاريخ الفيودالية. و لذلك يستوجب إبداء الملاحظتين الآتيتين :

أولا : يسجل النص نقلة نوعية في طبيعة علاقات التبعية، و خاصة فيما يتعلق بأطرافها. فقد كانت علاقات الرفاقة تربط منذ ما قبل القرن الثالث بين مجموعة محاربين و أحد أعيان أو رؤساء القبائل الجرمانية أو أحد كبار محاربيها. واستمرت حتى سنة 476 تاريخ سقوط الإمبراطورية الرومانية كما رأينا من قبل. ثم أصبحت تربط بين أحد أفراد الشريحة العليا في الأرستقراطية العقارية و مجموعة محاربين حتى سنة 757. و سيستمر هذا النوع من الروابط وفق مقتضيات جديدة. ولكن سنة 757 تسجل بداية دخول أطراف جديدة سامية في شبكة علاقات التبعية.ونعني بهذه الأطراف الملوك و كبار رجالات الممالك من أقماط و دوقات و غيرهم. كان لكل واحد منهم أتباع. و لكن بعد هذا التاريخ أصبح بعضهم تابعا للبعض الآخر. و كلهم أتباع للملك أو لمحافظي القصور الذين أصبحوا ملوكا دون أن تتم تسميتهم كذلك.

ثانيا : يقدم النص صورة عامة عن المراسيم التي أخذت تتم فيها علاقات الفصالة، و التي ستتم فيها الروابط الفيودو- فصلية بعد ذلك. كما يتحدث عن أهم المقومات التي سيرتكز عليها هذا النوع من الروابط خلال المرحلة الثالثة من مسيرة الفيودالية. و تتمثل هذه المقومات في الولاء الذي يقدمه الفصل، و عملية وضع يديه

[1]- Éginhard, Annales,Texte traduit et édité par François Guizot dans Collection des Mémoires relatifs à l’histoire de France, Paris, J.-L.-J., Librairie, 1824, pp. 6-7.

ملفوفتين بين يدي السنيور(la dation)،وعملية أداء القسم باستعمال أشياء أو بقايا مقدسة (les Reliques).

وانطلاقا من هاتين الملاحظتين تبدو التطورات التي يتحدث عنها النص مفاجئة و مثيرة للدهشة. إذ لا يعقل أن تأخذ علاقات الفصالة هذا الطابع الرسمي؛ و تتم مباشرتها في هذه الأجواء بدءا من سنة 757 دون مقدمات.

وتوضيحا للأمر نذكر بمعطى أوردناه في مقدمة هذا المبحث و هو أن " رجالات الدولة " في الممالك الجرمانية كانوا بمثابة خدام للملوك. عدد منهم كانوا خداما " مدنيين " يؤلفون حاشية الملك و خاصة أقربائه. و عدد آخر كانوا خداما " عسكريين ". يتشكلون من الحرس و يمثلون صفوة حملة السيف. يقيم هؤلاء الحراس بجانب الملك. يسهرون على حمايته أوقات السلم و يخوضون إلى جانبه الوقائع أيام الحرب. يتمتعون بحظوة خاصة لدى الملك. تتضح إذا علمنا بأن أحد بنود القانون السالي المنظم للعلاقات و المعاملات في مملكة غالة الميروفنجية كان يقضي بأن يدفع قاتل أحد هؤلاء الحراس ذعيرة يفوق مبلغها ثلاث مرات مبلغ الذعيرة التي يدفعها الجاني إذا تعلق الأمر بمقتل " مواطن "؛حتى و إن كان هذا " المواطن " إفرنجيا (un franc) أو أحد البرابرة (un barbare)[1].

والجدير بالذكر أن هؤلاء الحراس، الذين كانوا صفوة حملة السيف كما ذكرنا آنفا، كانوا يمثلون أيضا نخبة خدام الملك. كانت تربطهم به علاقات تبعية تقوم على الولاء (la fidélité) والقسم الذي يؤديه الواحد منهم بعد أن يضع يديه

[1]- ينص القانون السالي في البند الأول من الفقرة (أو المادة) 43 على أنه إذا قتل أحدهم إفرنجيا أو أحد البرابرة يلزم بدفع غرامة قدرها 8000 دنير (deniers) أو 200 " فلس"(sous) من ذهب. بينما بنص البند الرابع من نفس الفقرة (أو المادة) على أنه إذا قتل أحدهم حارسا من حراس الملك (membre de la Truste) يلزم بدفع غرامة قدرها 24000 دنير أو600 "فلس" من ذهب. أنظر الصفحة 149 من القانون السالي ، طبعة 1828 التي سبقت الإحالة عليها.

ملفوفتين بـين يـدي الملـك. و يجمـع عـدد مـن البـاحثين[1] بـأن هـذه العلاقـات، بمختلـف مقوماتها و الطقوس التـي كانـت ترافقهـا، ورثهـا ملـوك القـرنين الـسادس و الـسابع عـن الأجداد و الأسلاف[2]. و نفس علاقات التبعية هاته أصبحت تربط بين الملـوك و خـدامهم " المدنيين " كمحافظي القصور و الأقماط و الـدوقات و كبـار رجـال الـدين و كبـار الملاكـين العقاريين بعد تأسيس الممالك الجرمانية. كانت تقوم هي الأخرى على الـولاء و القـسم، و وضع الخادم (أي التابع) يديه ملفوفتين بين يدي الملك. و الجديـد في الطقـوس المـصاحبة لهذه العلاقات هو أن القسم أصبح يعتمد في أدائه على الكتاب المقدس الذي يضع التـابع يده عليه. و قد أدرج كعنصر جديد بعـد أن تبنـت الممالـك الجرمانيـة المـسيحية كديانـة رسمية[3]. و سيتواصل العمل بهذه الطقوس خلال القرون الموالية. و سينضاف عنصر جديد إلى العناصر المكونة لها بعد مطلع القرن الحادي عشر و هو عملية تقديم السنيور حفنـة تراب أو غصن شجرة صغير مورق للفصل دليلا على تقديم الفيف.

و نذكر بأن غياب هذا العنصر بالنسبة للباحثين الذين ينكرون وجود فيودالية قبل مطلع القرن الحادي عشر، يعني غيـاب الفيـف كعنـصرمادي في علاقـات التبعيـة وغيابـه كمصطلح في نصوص ما قبل سنة 1000. و نحن إذ نقر بدورنا بما يـذهبون إليـه، نؤكـد في المقابل بأن الأرض كانت حاضرة في علاقات الفصالة و لو عـلى نطـاق ضيـق نـسبيا. كيـف ذلك ؟.

[1] - من بينهم على سبيل المثال جون- بيـير بـولي (Jean-Pierre Poly) و اريـك بورنازيـل (Eric Bournazel) مؤلفا كتاب :

La mutation féodale, Paris, P.U.F. (Collection Nouvelle Clio) 1980.

[2] - أنظر ص.109 من نفس الكتاب.

[3] - نشير في هذا الصدد إلى أن كلوڤيـس(Clovis) أول ملـوك مملكـة غالـة المـيروڤنجيـة (وهـي أكـبر الممالـك الجرمانية) اعتنق المسيحية يوم 25 دجنبر 498. بعد مرور 16 سنة على اعتلائه عرش هـذه المملكـة.أنظـر تفاصيل الحدث عند ڭريڭوار أسقف كنيسة تور(Tours) في كتاب :

Histoire des Francs, traduction et édition Robert Latouche, Paris, Les Belles Lettres,1995, Livre II, chap. 31, pp.120-121.

لقد كانت علاقات الرفاقة تقوم على عطاء كان يقدمه السيد للرفيق كما ذكرنا فيما مضى. تمثل في المأوى و المأكل والمشرب و السلاح و الحصان. و ظل نفس العطاء يمثل محور علاقات الفصالة خلال القرنين السادس و السابع و النصف الأول من القرن الثامن. ثم حدث أن دخل القائمون على الأمر و ممثلو السلطة " المركزية " كطرف في علاقات الفصالة، فضلا عن أطرافها القدامى ككبار رجال الدين و كبار الملاكين العقاريين. فأصبح بعضهم " سنايرة " (des seigneurs) و بعضهم أفصالا. حينها لم يعد من المعقول أن يظل العطاء على حاله. بمعنى أنه كان يجب أن يرقى إلى مستوى هذه الأطراف السامية. فكيف أصبحت طبيعته ؟.

كان حريا بالإخباري الذي نقل إلينا خبر اجتماع ببين القصير سنة 757 ومقدم دوق بفاريا إلى بلدة كومين و تقديمه لفروض التبعية و الولاء للملك أن يخبرنا عن نوعية العطاء الذي قدمه الملك السنيور لفصله الدوق، و لكنه لم يفعل. و يبدو أن ثمة ما يبرر عدم بث الإخباري في الأمر،لأن تسلون كان في غنى عن ذلك العطاء الذي يقدم لمتوسطي و بسطاء الأفصال. كما لم يكن ينتظرأن تمنح له قطعة أرض و هو الدوق الذي يتصرف في أرض شاسعة المساحة؛ و هي دوقية بڤاريا التي كان يحكمها.وربما كان العطاء هو الدوقية نفسها التي أقر ببين تسلون على حكمها.

وعلى كل، فان كتب الإخباريات و الحوليات تفيدنا بأن العطاء الذي كان معروفا منذ قرون ظل معمولا به في أوساط الفئات المتوسطة و الدنيا المعنية بعلاقات الفصالة. و لكن الأمر اختلف بالنسبة لخاصة المجتمع. فقد شرع شارل مارتل قبيل سنة 732 في تقديم قطع أرض تقع ضمن ممتلكات الأسرة الحاكمة لنفر من أتباعه من كبار أفراد الأرستقراطية عرفانا بما أسدوه من عون و مساندة. كما وزع قطعا أخرى على كبار أتباعه من حملة السيف. و بما أن الوقائع كانت كثيرة، و أعداد المحاربين كانت في تزايد مستمر،لم يكن ممكنا أن يستمر في تقديم قطع أرض من ممتلكاته أو من ممتلكات المملكة، لذلك لجأ إلى مصادرة مساحات شاسعة من الأراضي التي كانت في

حوزة الكنائس. و كان من الطبيعي أن يثير هذا الإجراء حفيظة تلك المؤسسات. و في ذلك خسارة لشارل مارتل الذي كان في حاجة إلى سندها؛ خاصة وأنه كان لازال محفظ قصر يحكم " نيابة " عن ملك يحضى بالشرعية. و استدراكا للموقف دعي إلى إيجاد مخرج للمشكلة. فعقدت ثلاث مجامع دينية بين سنتي 742 و 744. انتهت إلى الإقرار بأن الأراضي التي صودرت من الكنائس و وزعت على أفصال (محاربين أو غير محاربين) تظل في ملكية تلك المؤسسات. و لا حق للأفصال فيها إلا حق الاستغلال الذي ينتقل إلى ورثة الفصل بعد وفاة هذا الأخير. و قد يتوقف مفعول حق الاستغلال إذا ارتأى الملك ذلك. و يلتزم الأفصال المستغلون لما في أيديهم من أراضي بتقديم ضريبة محددة. نص عليها عقد كان يبرمه كل فصل مع الكنيسة مالكة الأرض. بينما كان يبرم ذات الفصل عقدا آخر مع الملك باعتباره السنيور المانح لحق الاستغلال. و منذ هذا التاريخ وحتى مطلع القرن الحادي عشر بدأت ترتسم في الأفق معالم علاقات الفصالة المتمحورة حول قطعة أرض كعطاء يعرف في النصوص باسم " بنفسيوم " (beneficium)[1]. و تترك نفس النصوص الانطباع بأن مجال استعمال هذا النوع من العطاء أخذ يتسع على حساب العطاء الذي كان معمولا به منذ ما قبل القرن الثالث للميلاد (أي المأوى و المأكل و ما شاكل ذلك). كما أن أعداد المعنيين بالعطاء " القديم " ظلت في تراجع رغم عدم وجود معطيات رقمية تثبت ذلك.

و يمثل عهد شارلمان (768 – 814) فترة حاسمة في اتساع نطاق استعمال قطع الأرض كعطاء في علاقات الفصالة. و قد استمر هذا الاتساع حتى نهاية حكم الأسرة الكارولنجية حسب الخلاصة التي انتهى إليها فردناند لوط (Ferdinand Lot) منذ عدة عقود[2]. و قد كان محقا في ذلك. على اعتبار أن شارلمان خاض حروبا كثيرة في

[1] - يجدر التنبيه إلى أن كلمة بنفسيوم لا تطلق فقط على قطعة أرض، و إنما على أي شيء يقدمه شخص لشخص آخر للانتفاع به. و قد يكون ذلك الشيء كمية من الحبوب أو مبلغا من المال.

[2] - Ferdinand Lot, « Le serment de fidélité à l'époque franque », in Recueil des travaux de Ferdinand Lot, Paris – Genève, Droz, 1968, TomeII ,p. 343.

اسبانيا وايطاليا و جرمانيا أفضت إلى الحصول على مساحات شاسعة من الأرض. وزع قطعا كثيرة منها على عدد من أفراد الأرستقراطية الذين ارتبطوا به بعلاقات تبعية و ولاء. ولكنه حرص على ألا يكون لهم عليها سوى حق الانتفاع ،لكي يحرص كل مستفيد على التشبث بالولاء و يضع في حسبانه بأن قطعة الأرض قد تنتزع منه إذا لم يف بالتزاماته العسكرية المتمثلة في استنفار ما تحت إمرته من محاربين عند الضرورة. و على كل ، فقد أصبحت الأرض حجر الزاوية في علاقة الملوك الكارولنجيين بأفراد الأرستقراطية. و هذا ما يفهم من كلام الباحثان جون- بيير بولي (Jean- Pierre Poly) و اريك بورنزيل (Eric Bournazel) اللذان تناولا المسألة منذ بضع سنوات وأكدا بأن البنفسيوم غدا عنصرا أساسيا في علاقات الفصالة منذ منتصف القرن التاسع[1]. و نعتقد من جانبنا بأن هذا التطور ينسجم مع مسارعلاقات الفصالة التي اتخذت منذعهد شارلمان طابعا رسميا. و أصبحت إحدى الأدوات المعتمدة في الحكم و التسيير.

و يبدو هذا التطور في علاقة الدولة بالفصالة غريبا إذا علمنا بأن شارلمان قام بعدة إصلاحات[2] في مجال الإدارة و القضاء و نظام الحكم بهدف إرساء دعائم " دولة مركزية " ذات مؤسسات يخضع لسلطانها جميع سكان المملكة - الإمبراطورية. و كان من المفترض أن تفضي تلك الإصلاحات إلى تقليص مساحة شبكة علاقات التبعية و الحد من سطوة أفراد الأرستقراطية؛ خاصة وأن شارلمان قرر الإشراف شخصيا على تعيين الأقماط و الدوقات و كبار رجال الدين على رأس مختلف القمطيات. و حرص على أن يكونوا هم المسؤولين المباشرين على إقرار الأمن و على جباية الضرائب وهم المشرفين على أمور القضاء. و زاد بأن دعم هذا الإجراء بإقرار مبدإ

---

[1] - أنظر الصفحة 117 من كتابهما : La mutation féodale الذي سبقت الإحالة عليه.

[2] - نشرت دراسات وأبحاث كثيرة حول شخصية شارلمان و حول إصلاحاته. يمكن العودة على سبيل المثال إلى الدراسة المستفيضة التي أنجزها لوي هالفن (Louis Halphen) منذ عقود تحت عنوان :
Charlemagne et l’empire carolingien,Paris, Albin Michel,1947, réédition,1968.

الرقابة المستمرة بواسطة المبعوثين الملكيين (les missi dominici)؛ الذين كانوا يتجولون عبر مختلف القمطيات و يرفعون له تقارير عن سير الأقماط و المؤسسات الدينية و عن سلوك أفراد الأرستقراطية. غيران هذه الإجراءات لم تحدث القطيعة المنتظرة مع علاقات الفصالة، لأن شارلمان كان يراعي في اختيارالأقماط و الدوقات وكبار رجال الدين أن يكونوا من أشد المخلصين للأسرة المالكة. تربطهم بشخص الملك علاقات تبعية و ولاء ، أي علاقات فصالة. على أن يغدوا في المقاطعات التي يشرفون على إدارتها " سنايرة " (des seigneurs) يرتبط بهم بعلاقات فصالة مختلف رجال الدين و كبار الملاكين العقاريين. بينما تترك لعموم فلاحي المقاطعات و"المواطنين " الأحرار حرية اختيارالسنايرة الذين يرغبون في الارتباط بهم بعلاقات فصالة.

وبناء عليه يتضح بأن الإصلاحات التي قام بها شارلمان في مجال نظام الحكم و إدارة القمطيات لم تكن تهدف استئصال علاقات الفصالة بقدر ما كانت تروم " ترويضها " أو بعبارة أصح تقنينها[1]. لأن عملية استئصالها كانت صعبة ،حتى لا نقول مستحيلة، لاعتبارات يمكن إيجاز أهمها فيما يلي :

أولا : رسوخ علاقات الفصالة في المجتمع عامة، وفي أوساط الطبقة الأرستقراطية التي تبنتها كتقليد منذ قرون. و لم يكن بإمكان شارلمان المضي قدما في إصلاحاته الإدارية بإلغاء هذا التقليد. و من ثم التنكر لأفراد الأرستقراطية الدين أسدوا خدمات جلة لآبائه و أجداده أوصلتهم إلى دفة الحكم على حساب ملوك الأسرة الميروفنجية.

ثانيا : افتقار الدولة إلى أطر كافية و محترفة لتدبير شؤونها في وقت أصبحت فيه مترامية الأطراف بعد الحروب التوسعية. و بالتالي، فان الضرورة كانت تقتضي

[1] - نقصد بتقنينها sa canalisation. أي جعلها تأخذ مسلكا واحدا يبتدأ عند أدنى فرد في المجتمع متمتع بحق الحرية و ينتهي عند شخص الملك باعتباره " سنيور السنايرة "(le suzerain).

الاستمرار في الاعتماد على أفراد الأرستقراطية في تدبير مختلف القمطيات من خلال علاقات الفصالة التي أرسوا دعائمها والتي مكنتهم من القيادة و التسيير.

ثالثا : محدودية الموارد المالية الضرورية لتغطية النفقات التي تتطلبها مهام الحكم و التدبير و دفع مرتبات " موظفي " الدولة من رجال الدين و العلمانيين رغم الإصلاحات الاقتصادية و المالية التي قام بها شارلمان. و بالتالي ،كان لابد من استعمال الأرض كوحدة نقدية لتغطية النفقات الإدارية و العسكرية. و بما أن الحروب التي خاضها شارلمان و فرت مساحات شاسعة من الأرض، فقد أغنت عن المضي قدما في البحث عن مصادر السيولة النقدية. كما أن تلك الوفرة شجعت على المنح المطلق أحيانا و على المنح المشروط بحق الاستغلال في أحايين كثيرة. و كان من تبعات ذلك أن استغل عدد من أفراد الأرستقراطية وفاة شارلمان فسيطروا على قطع الأرض التي منح لهم حق استغلالها. كما أن خلفاؤه حادوا عن السياسة التي انتهجها في هذا المضمار و التي كان يتبعها فيما مضى محافظو القصر. و ذلك حين قرروا بأن تصبح ملكية الفصل على قطعة الأرض التي منحت له كعطاء (beneficium)، ملكية تامة مطلقة نظير استمراره على الولاء سواء كان سيده، أي " سنيوره " أحد الخواص أو سيده الملك شخصيا.

وانطلاقا مما تقدم، نخلص إلى القول بأن علاقات الفصالة التي نشأت في الممالك الجرمانية زمن ضعف السلطات المركزية، كان من المفترض أن تتراجع في مرحلة بدأت تترسخ فيها نسبيا أسس الدولة المركزية. غير أن هذا التطور لم يحصل. بل على العكس من ذلك تماما اكتست تلك العلاقات مشروعية و ارتقت إلى مصاف القوانين المنظمة للعلاقات و المعاملات. و هذا ما حدث بالذات في غالة التي غدت في عهد شارلمان إمبراطورية مترامية الأطراف. شمل نفوذها معظم أقاليم غرب أوربا. و ستشكل الاضطرابات الداخلية التي شهدها هذا الكيان بعد وفاته بالإضافة إلى عوامل

خارجية المناخ الأمثل لكي تنطلق تلك العلاقات نحو آفاق أرحب سنتوقف عنـد تجلياتهـا في الفصل الموالي .

ثالثا: الروابط الفيودو- فصلية

هيا انهيار الامبراطورية الكارولنجية و ماتلاه من اضـطرابات داخليـة وغـارات خارجيـة[1] المناخ الملائم لاتساع مجال انتشار علاقات الفـصالة في غالـة و في مجمـوع أقـاليم غـرب أوربـا. والحقيقة أن تلك العلاقات لم تتوقف أبدا عن الانتشار منذ عهد محافظي القصور كـما أوضـحنا ذلك فيما مضى. وكان من الممكن أن يأخذ انتشارها منحى تصاعديا منذ عهد شارل مارتل، غـير أن شارلمان نجح في التخفيف من إيقاع مسيرتها حين عمل على تقنينهـا. و بـذلك وفـق أيـضا في كبح جماح أفراد الطبقة الأرستقراطية و وضـعهم تحـت الـسيطرة و لـو إلى حـين. وبعـد وفاتـه افتقدت غالة، و الغرب الأوربي عموما، حاكما في مثل حنكته و قوة شخصيته. فخلى الجو لأفـراد الأرستقراطية الذين عادوا مجـددا لتفعيـل علاقـات الفـصالة التـي أصـبحت منـذ هـذا الوقـت متحورة حول الفيف أكثر من أي وقـت مـضى. كـما اجتهـدوا في بـسط سـلطانهم عـلى عمـوم الفلاحين. وشرعوا في إرساء الآليات و الوسائل الكفيلة بتحقيق مكاسب معنوية ومادية مـن وراء ذلك السلطان. و قد استفادوا لتحقيق مبتغاهم من الاضطرابات والفوضى السياسية. و مع ذلـك فيجب التنبيه في هذا المقام، بأن أفراد الأرستقراطية مـن كبـار الملاكـين العقـاريين و كبـار رجـال الدين لم يستغلوا تلك الأوضاع للإسراع بإعلان تمردهم أو للتحلل من سلطة القائمين على الأمر في الممالك التي قامت في غالـة ، وفي أقـاليم غـرب أوربـا الأخـرى ، بعـد انهيـار الإمبراطوريـة الكارولنجية. فقد استمروا، حتى العقد الأخير من القرن العـاشر، يـدينون بـالولاء للملـوك مباشرة أو للأقماط الذين يمثلونهم في القمطيـات. و تجـلى ذلـك في كـونهم ظلـوا يـؤدون فروض الطاعة للملوك مباشرة، و يحضرون أشغال " الاجتماع الملكي " (le plaid royal). وهو واحد من بين اجتماعين سنويين كـان يرأسـهما الملـك. كـما ظلـوا يـؤدون يمـين الـولاء للأقــماط. بعــضهم يقومــون بــذلك بوصــفهم أفــصالا لهــؤلاء الأقــماط وبعــضهم

[1]-نعني هنا غارات الڤكينج أو النورمان و غارات القبائل الهنغارية و غارات المسلمين انطلاقا من الأندلس.

الآخر يقومون بذلك بوصفهم " مواطنين " خاضعين لسلطة الأقماط. و بما أنهم من علية القوم، فقد كان يتوجب عليهم القيام عمليا بأداء الولاء، و حضور الاجتماعات الدورية التي يدعو إليها القمط (les plaids comtaux). وعند تعيين قمط جديد على رأس القمطية، كان كبار الملاكين العقاريين و كبار رجال الدين يقومون بتقديم ولائهم للقمط الذي تم تعيينه. و إذا تعذر على أحدهم القيام بذلك لأسباب قاهرة كان ينيب عنه من يقوم بالعملية. و كأنهم بذلك يقدمون فروض الطاعة و الولاء للملك شخصيا. و هذا التقليد ظل يجري به العمل منذ عهد شارلمان1. و لكن بعد مطلع القرن الحادي عشر بدأت تظهر معالم الاتجاه نحو مرحلة جديدة في مسار تطور الفيودالية.

نشترك مع عموم الباحثين في القول بأن هذه المرحلة تميزت بكون الفيف أصبح خلالها يمثل حجر الزاوية في العلاقات بين أفراد الأرستقراطية. و لكننا نختلف معهم حين نذهب إلى اعتبارها مرحلة ثالثة اكتمل خلالها نضج الفيودالية كما أشرنا إلى ذلك في مقدمة هذا القسم. في حين، يذهب الباحثون إلى اعتبار هذه المرحلة مرحلة أولى و وحيدة نشأت خلالها الروابط الفيودو – فصلية، و خلالها أيضا تبلورت تلك الروابط. و ينكرون اعتبار علاقات الفصالة مقدمة لهذه الروابط.

ومهما يكن من أمر، فقد قام الباحثون منذ عقود برصد مسيرة هذه الروابط و باستعراض السياق الذي " نشأت " و تطورت فيه. بعضهم اختار الغرب الأوربي ككل مجالا جغرافيا لتناولها، و بعضهم اختار أحد أقطاره الحالية كإطار جغرافي للقيام بذلك ، بينما ارتأى البعض الآخر تناولها في حيز جغرافي أضيق. و بما أننا نتفق معهم، على الأقل في كون فترة ما بعد سنة 1000 تمثل مرحلة تبلور الروابط الفيودو – فصلية، فقد ارتأينا في هذا الفصل اعتماد بعض المنغرافيات الإقليمية

---

[1]- تحدث بتفصيل عن هذا التقليد هنكمار(Hincmar)أسقف كنيسة مدينة ريمس(Reims) في كتابه :
De Ordine Palatii , texte latin et sa traduction française établit par la Bibliothèque de l' Ecole des Hautes Etudes, Paris, Editions f.Vieweg , 1885.
و من المعلوم أن هنكمار الذي عاش بين سنتي 806 و 882 قضى فترة من حياته في خدمة لويس التقي(Louis le Pieux) و شارل الأصلع(Charles le Chauve) خلفاء شارلمان.

للقيام باستعراض أبرز مظاهر هذا التبلور كما حدثت في قمطيتين تنتميان لغالة الموسومة بكونها " الموطن الأصلي " للفيودالية هما قمطية ماكوني| (leMâconnais)[1] و قمطية بروڤانسيا (la Provence)[2]؛ وفي إقليمين بعيدين عن غالة هما إقليم اللاسيوم (le Latium)[3] أحد أقاليم ايطاليا، و إقليم قطلونيا (la Catalogne)[4] الواقع في شبه جزيرة ايبيريا.

شكلت قمطية ماكوني مجالا جغرافيا لأطروحة أصدرها جورج دوبي (Georges Duby) سنة 1953. و قد أنجز هذه الأطروحة بين نهاية الأربعينيات و مطلع الخمسينيات من القرن العشرين؛ خلال مرحلة خاصة من مسيرة البحث التاريخي في فرنسا. تميزت بكون الرؤية الضيقة التي تختزل الفيودالية في الفصالة و الفيف و المؤسسات المتصلة بهما كانت هي السائدة في أوساط الباحثين في التاريخ الأوربي الوسيط[5] و كذلك في أوساط المهتمين بالقانون و تاريخ المؤسسات[6]. بينما

---

[1]- Georges Duby , La société au XIe et XIIe siècles dans la région mâconnaise, Paris, A. Colin, 1953.

[2] - Jean-Pierre Poly, La Provence et la société féodale, 879-1166, contribution à l'étude des structures féodales dans le Midi, Paris, Bordas, 1976.

[3]- Pierre Toubert , Les structures du Latium médiéval :Le Latium méridional et la Sabine du IXe siècle à la fin du XIIe siècle, Paris, les Editions de Boccard, 1973, 2 vol.

[4]- Pierre Bonnassie, La Catalogne du milieu du Xe à la fin du XIe siècle :Croissance et mutations d'une société, Toulouse, Association des publications de l'Université de Toulouse-Le Mirail ,1975-1976, 2 vol..

[5]- نذكر من بين هؤلاء الباحثين فوستيل دي كولانج (Fustel de Coulanges) المتوفى سنة 1889. و أوكيستان فلبش (Augustin Fliche) المتوفى سنة 1951. و فرديناند لوط (Ferdinand Lot) المتوفى سنة 1952.أنجز هؤلاء المؤرخين أبحاثا كثيرة ذات قيمة علمية بالغة. شكلت حجر الزاوية في لائحة المراجع التي اعتمدها مؤرخو ما بعد الحرب الكونية الثانية. ومن بين أبحاثهم نذكر على سبيل المثال :

Fustel de Coulanges,Histoire des anciennes institutions françaises, Paris, Hachette, 1901-1914. 6 Tomes.

Augustin Fliche, La chrétienté médiévale (395-1254), Paris, Editions de Boccard, 1929.

Ferdinand Lot, La France des origines à la guerre de Cent ans, Paris, Gallimard, 1941.

[6]- نذكر من بين هؤلاء المهتمين جاك فلاش (Jacques Flach) المتوفى سنة 1919.رجل قانون له عدة مؤلفات من بينها :

Etudes critiques sur l'histoire du droit romain au Moyen Age, Paris, Librairie Larose et Forcel, 1890.

كانت الرؤية الواسعة التي تبناها مارك بلوك (Marc Bloch)[1]، و التي ترى الفيودالية إحدى التجليات التي اتخذتها البنيات الاجتماعية في تطورها خلال العصر الوسيط ، لا زالت تبحث لها عن موطئ قدم. و لذلك، جاءت أطروحة دوبي مثقلة بإرث الماضي و مستشرفة في ذات الوقت النقلة التي ستحدث بعد تزايد تلامذة بلوك. و هذا ما يتضح من عنوانها و كذلك من مضمونها. فقد تضمن عنوانها كلمة " مجتمع " على شاكلة عنوان كتاب مارك بلوك. أما مضمونها فتضمن فصولا مطولة خصصها الباحث للفصالة والفيف. و أخرى خصصها لرصد التحولات التي شهدها مجتمع الماكوني خلال القرنين الحادي عشر و الثاني عشر. سعى فيها جاهدا إلى إقناع القارئ بأن الفصالة و الفيف كانا مجرد واجهتين لمؤسسات نشأت و تطورت في سياق تلك التحولات الاجتماعية. و رغم الجهد المبذول، لم يستطع جورج دوبي التحرر من نظرة المؤرخين القدامى للفيودالية[2] حين يرون بأنها تمثل الحصيلة المنطقية لانفراط وحدة الإمبراطورية الكارولنجية. إذ يذهب على غرارهم إلى الاعتقاد بأن تدهور مؤسسة القمطية في إقليم الماكوني أفضى إلى تشكل شبكة من الروابط الفيودو – فصلية انخرط فيها أفراد الأرستقراطية في هذا الإقليم.

و فرانسوا اوليفيي – مارتان (François Olivier- Martin) المتوفى سنة 1952. هو أيضا رجل قانون له عدة مؤلفات من بينها :

Histoire du droit français des origines à la Révolution, Paris, Montchrétien, 1948.

[1]- يعد من أبرز المؤرخين الباحثين في اقتصاد و مجتمع فرنسا في العصر الوسيط. دعا إلى ضرورة تغيير مناهج البحث. و أسس لهذا الغرض رفقة زميله لوسيان فيفر (Lucien Febvre) المجلة الشهيرة "حوليات التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي" ((Annales d'Histoire Economique et Sociale) التي لازالت تصدر إلى اليوم باسم "الحوليات، التاريخ، العلوم الاجتماعية" (.Annales Histoire Sciences Sociales) كما أنجز عدة أبحاث قبل أن يلقى حتفه رميا بالرصاص على يد القوات النازية يوم 16 يونيو 1944. و من أهم ما صدر له :

Les caractères originaux de l'histoire rurale française (1931). Et La société féodale (1939).

[2]- ننبه القارئ بأن ما نذكره في هذا الشأن ينطبق على أطروحة دوبي التي صدرت سنة 1953. أما بعد ذلك فقد تطورت نظرته كثيرا كما يتضح من خلال مؤلفاته اللاحقة مثل كتاب Guerriers et paysans (1969) و كتاب Les trois ordres ou l'imaginaires du féodalisme (1978).

أولا : تدهور مؤسسة القمطية

يفيدنا جورج دوبي بأن إقليم الماكوني كان منتظما في إطار قمطية نشأت منذ العهد الكارولنجي في سياق عملية إعادة تنظيم " الإدارة الترابية ". و قد حصل فتور في علاقة هذه القمطية بالمؤسسة الملكية منذ شهر غشت من العام 843، تاريخ توقيع معاهدة ڤردان (Verdun) التي تم بموجبها تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية بين الإخوة الثلاث أبناء الملك لويس التقي (Louis le Pieux). و تحول هذا الفتور إلى نوع من القطيعة منذ سنة 951 .فقد زار الملك لويس الرابع قمطية ماكوني خلال هذه السنة. و بعد هذا التاريخ لم تطأها أقدام ملك حتى حوالي سنة 1166[1]. ورغم هذه التطورات، فان مؤسسة القمطية و المؤسسات العمومية المتصلة بها ظلت منذ سنة 951 وحتى حدود سنة 980 أو 982 تمارس دورها في إقرار الأمن وجباية الضرائب و الإشراف على أمور القضاء والسهر على ممارسة الشعائر الدينية في ربوع قمطية الماكوني. و لذلك فان عموم الفلاحين و غيرهم من الأفراد الأحرار ظلوا يثقون في تلك المؤسسات. و لم يعودوا يبحثون عن الأمان و الاطمئنان في علاقات القرابة أو في صيغ أخرى مماثلة لها. أما أفراد الأرستقراطية اللائكية، فقد استمروا من جانبهم في احترام مؤسسات القمطية. و لم يكونوا يترددون في مد يد العون للقمط و للمؤسسات الدينية في الحالات العادية، كما في الظروف الاستثنائية. غير أن مستجدات شهدتها القمطية أخذت تأثر سلبا في علاقة أفراد الأرستقراطية اللائكية و الدينية بالقمط .

فابتداء من سنة 982 تولى إدارة القمطية أوت كيوم (Otte Guillaume) الذي أمضى السنوات الأولى من فترة ولايته في سلسلة حروب توسعية ضد جيرانه.

[1]- Georges Duby, La société au XIe et XIIe siècles…, Op. Cit. p.91 et p.540.

استنزفت موارد القمطية واضطر لإنهائها دون تحقيق طائل ليتفرغ لإقرار السلم الاجتماعي[1] في ربوع القمطية على اثر موجة العنف التي أخذت تجتاحها.

لم يخف أفراد الأرستقراطية تذمرهم من سياسة أوت كَيوم ،و لكن المصالح المشتركة اقتضت أن يلتفوا حوله لمواجهة هذه المستجدات الداخلية. و يفيدنا جورج دوبي بأن عملية التصدي لأعمال العنف التي أخذت تقوم بها مجموعات من الفرسان والتي واكبتها حركات احتجاج في أوساط الفلاحين شكلت في حقيقة الأمر سلاحا ذو حدين: فقد أبانت عن تظافر جهود القمط و أفراد الأرستقراطية و رجال الدين في تدبير الشأن العام. كما أبانت عن حرص جميع الأطراف على سلامة المؤسسات واستمرارية دورها. و لكنها دلت في نفس الوقت على أن مؤسسة القمطية لم تكن قادرة لوحدها على مواجهة أعمال العنف أو التصدي لحركات الاحتجاج. و بما أن تلك الأعمال و الحركات اتخذت في بادئ الأمر مسحة دينية، فقد تزعمت المؤسسات الدينية عملية مجابهتها. فأمدها ذلك بشحنة معنوية و جعل كبار رجال الدين ينفردون باتخاذ بعض القرارات دون العودة إلى القمط ؛ من قبيل عقد الاجتماعات دون سابق إعلان للبث في آليات التصدي لتلك الحركات. فكان هذا الإجراء لوحده يمثل مؤشرا على تزايد تنامي سلطة كبار رجال الدين و تراجع هيبة القمط أوت كيوم الذي أخذ يتخلى عنه كبار أفراد الأرستقراطية اللائكية بدورهم. و هذا ما تأكد

---

[1] - نقصد هنا ما يعرف بحركة سلام الله(la Paix de Dieu) التي ظهرت سنة 989 بإقليم أكيتانيا،جنوب غالة، ثم انتشرت في مختلف أقاليم غالة. و هي حركة ذات مسحة دينية اجتماعية. نشأت في أوساط رجال الدين و تبنتها المؤسسات الدينية. كانت تهدف إلى اقرارالسلم الاجتماعي بين المسيحيين على اثر حركات العنف التي بدأت تندلع هنا وهناك في سياق التحولات الكبرى التي بدأت تشهدها أقاليم غرب أوربا.

و قد كان هدفها الأسمى في حقيقة الأمر هو حماية المؤسسات الدينية، و الحرص على حرمتها. لذلك عقدت الكنائس سلسلة اجتماعات للنظر في آليات تطبيق الحركة.أقرت على إثرها جعل المؤسسات الدينية أماكن حرما يجرم من اقتحمها أو اعتدى على الأفراد العزل المحتمين بها. كما أقرت كذلك جعل أيام الأحد و الاثنين والثلاثاء و الأربعاء أياما حرما لا يتم فيها القتال.و نفس الأمر ينطبق على الأيام التي تتصادف مع تخليد الأعياد الدينية. لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع يمكن العودة إلى كتاب :
Dominique Barthélemy, L'an mil et la paix de Dieu: la France chrétienne et féodale (980-1060), Paris, Fayard, 1999.

لاحقا بعد سنة 1000 حيث أخذ عدد الحاضرين لاجتماعات القمط يتراجع بشكل مستمر. و إذا صدقنا جورج دوبي ،فان اجتماعا دعا لانعقاده أوت ڤيوم سنة 1005 لم يحضره سوى أفصال القمط و نفر من كبار رجال الدين و أعيان الأرستقراطية اللائكية. أما اجتماع سنة 1010 فلم يحضره سوى أفصال القمط و أسقف القمطية مرفوقا بأحد مساعديه[1]. و بعد هذا التاريخ أخذت تلك الاجتماعات تكتسي طابعا عائليا. حيث لم يعد يحضرها سوى أقرب المقربين من القمط و أفراد عائلته وأشخاص آخرين تربطهم به صلات قرابة.

و معنى ذلك أن أفراد الأرستقراطية، من كبار الملاكين العقاريين اللائكيين وكبار رجال الدين تحللوا من سلطة القمط و قطعوا صلاتهم بمؤسسات القمطية. وأضحوا سادة أنفسهم و سادة سكان القمطية الذين أصبحوا خاضعين لنفوذهم في إطارما نصطلح على تسميته " بالسنيورية الإلزامية "[2] (la seigneurie banale). كما شيدوا القصور التي اتخذوها مراكز لممارسة السيادة. و شكلوا، لتفعيل تلك السيادة أجهزة و مؤسسات تابعة لهم. تقوم بإقرار الأمن و جباية الضرائب و تشرف على أمورالقضاء. و بموازاة ذلك ارتبطوا فيما بينهم بعلاقات فصالة متمحورة حول الفيف.

ثانيا : تشكل الروابط الفيودو – فصلية

يعود جورج دوبي في معرض حديثه عن الروابط الفيودو – فصلية ليقنع القارئ ضمنيا بأن انخراط أفراد الأرستقراطية الماكونية في هذه الروابط يمثل النتيجة المنطقية التي آل إليها تدهور مؤسسة القمطية. و يفيدنا في هذا الصدد بأن النصوص التي اعتمدها توضح بأن الصلة بين الفيف و الولاء[3] (l'hommage) أصبحت

[1] - Georges Duby, La société au XIe et XIIe siècles…,Op.Cit.,p. 168.

[2]- سنعرف بهذه المؤسسة و سنتحدث عن بنيتها بتفصيل في موضع لاحق.

[3]- ننبه القارئ بأننا نستعمل كلمة ولاء كمرادف لكلمة hommage . كما أننا سنستعملها لاحقا كمرادف لكلمة fidélité. في حين أن هناك فرقا بين الكلمتين الفرنسيتين. لذلك فإننا عند كل استعمال لكلمة ولاء نسجل بين قوسين ما يقابلها في اللغة الفرنسية حسب سياق النص.

وثيقة في الماكوني ابتداء من سنة 1030. حيث غدت كل عملية تقديم فيف تستوجب من المستفيد منه تقديم الولاء و أداء القسم. و تبعا لذلك خصص صفحات مطولة لرصد مسيرة الفيف و للحديث عن الولاء و عن الطقوس التي كانت تتم فيها عملية تقديم الفيف وعملية أداء الولاء. و أهم الملاحظات التي يمكن استخلاصها من تلك الصفحات هي كما يلي :

أولا : لم تكن العلاقات بين جميع أفراد الأرستقراطية في إقليم الماكوني قائمة على الفيف.فقد مثل حجر الزاوية في العلاقات القائمة بين أفراد الشريحة السفلى وأفراد الشريحة المتوسطة في الطبقة الأرستقراطية، و كذلك بين أفراد هذه الشريحة و أفراد الشريحة العليا، أما بين أفراد الشريحة العليا فقامت روابط " فيودو - فصلية " غير مستندة على الفيف.و قليلا ما كان أحد أفراد هذه الشريحة يقدم فيفا لفرد آخر. لأن أفراد هذه الشريحة كانوا ينحدرون كلهم من أسر نبيلة و عريقة مالكة لأراضي مترامية الأطراف، و لأن الأمر يتعلق هنا بشخصين متساويين في المقام و القوة. و من ثم، لم يكن من اللائق أن يسلم أحدهم فيفا للآخر، لأن عملية تسليم الفيف تحيل إلى نوع من الدونية. كما تجعل المستفيد من الفيف في وضعية تبعية و خضوع للشخص مانح الفيف.

ثانيا : اتخذت عملية تقديم الولاء (l'hommage) في قمطية ماكوني شكلا عموديا و آخر أفقيا. فقد كان بإمكان الشخص الواحد المنتمي للشريحة السفلى أو للشريحة المتوسطة في الأرستقراطية أن يتسلم فيفين من مانحين. فيغدو بذلك فصلا " لسنيورين ". وغالبا ما كانت تتكرر مثل هذه الحالات في أوساط حملة السيف الذين كان الطلب عليهم قويا، لذلك كان " السنايرة " يتنافسون في استقطابهم بمنح الأفياف و التخفيف من أعباء الخدمات و الالتزامات. بينما لم يكونوا هم أيضا يترددون في الاستجابة لتلك الإغراءات. فكان الواحد منهم يضع مهاراته القتالية رهن إشارة أكثر من سنيور لزيادة رصيده من الأفياف. غير أن تعدد مثل هذه الروابط كان يطرح

أحيانا بعض المشاكل، حين يقع سوء تفاهم بين سنيورين. فيجد الفارس المرتبط بهما بعلاقة فصالة نفسه في وضعية حرجة.

و مهما يكن من أمر فالمحصلة النهائية التي يخرج بها قارئ أطروحة جورج دوبي هي أن قمطية الماكوني وقعت في شراك الفيودالية بعد تدهور مؤسسة القمطية و نهاية دورها في رعاية شؤون أفراد المجتمع. فغدت بذلك إحدى المجالات الجغرافية الممثلة لهذه الظاهرة في ربوع غالة. و من ثمة، فان قصة العلاقة بين قمطية الماكوني و الفيودالية تلخص إلى حد بعيد قصة غالة مع هذه الظاهرة تبعا للانطباع الذي تتركه الأطروحة. ففي الماكوني كما في مجموع تراب غالة بدأت تلك القصة عندما تدهورت المؤسسات السياسية، و حدث فراغ سياسي أفضى إلى تجزئة متقدمة للسلطة التي أصبح يمارسها كل من استطاع إلى ذلك سبيلا.فانتفت المؤسسات. وانتفت معها أية صلة تربط الفرد بالدولة. فماذا يمكن أن يقال عن صلة قمطية بروڤانسيا بالفيودالية ؟

شكل إقليم بروڤانسيا مجالا جغرافيا لأطروحة أنجزها جون بيير بولي (Jean-Pierre Poly) الباحث الذي يزاوج بين المقاربة التاريخية و المقاربة القانونية في تناول قضايا العصر الوسيط في أوربا.

و تندرج هذه الأطروحة و الأطروحتان اللتان سيأتي الحديث عنهما بعد حين[1] ضمن مشروع علمي طموح انبرى للقيام به ثلة من الباحثين منذ سبعينيات القرن الماضي. سعى لدحض فكرة كانت رائجة في أوساط الباحثين في تاريخ العصر الأوربي الوسيط خلال خمسينيات و ستينيات القرن المذكور. مفادها أن موطن الفيودالية هو الأقاليم الممتدة بين نهري اللوار و الراين التي شكلت قلب الإمبراطورية الكارولنجية. أما أقاليم جنوب غالة، و معها أقاليم جنوب أوربا، فلم

[1] - يتعلق الأمر بأطروحتي بيير توبير و بيير بوناصي اللتين أرجأنا الحديث عنهما بعد الحديث عن أطروحة جون بيير بولي لأنها تهم أحد أقاليم غالة.

تشهد ظاهرة الفيودالية. و إذ قدر لبعض تلك الأقاليم أن تشهد بعض تجليات الظاهرة، فقد كانت تجليات دخيلة على نظمها و بنياتها.

وقد عبر جون بيير بولي عن مقاصد أطروحته منذ الصفحات الأولى من خلال السؤال المحوري الآتي : هل ينطبق المخطط الخاص بالفيودالية، الذي صاغه مؤرخو مرحلة ما بعد الحرب الكونية الثانية انطلاقا من نصوص تنتمي للأقاليم المعروفة بمهد الفيودالية ،على إقليم بروڤانسيا خاصة، و أقاليم جنوب غالة عامة؟[1]

وقد اقتضى الجواب عن هذا السؤال من قبل الباحث اعتماد ما ينيف عن ألفي نص من النصوص المعروفة " بالمواثيق " (les chartes). بالإضافة إلى ترسانة أخرى من المصنفات؛ ككتب التاريخ العام و الحوليات و سجلات الأديرة و النصوص الهاجيوغرافية التي تعرض لسير و كرامات القديسين و القديسات و غيرها من النصوص.

خلص جون بيير بولي بعد استقرائها إلى خلاصة مفادها أن قمطية بروڤانسيا انخرطت هي الأخرى في ظاهرة الفيودالية " من أبوابها الواسعة ". و أن مقومات الظاهرة في هذا المجال الجغرافي لم تقل نضجا و تكاملا عن مثيلاتها في وسط أو شمال غالة.

ويفيدنا على غرار جورج دوبي بان الفيودالية اتبعت في نشأتها و تطورها بقمطية بروڤانسيا مسارين متوازيين : واحد ذو طابع سياسي تمثل في نهاية دور المؤسسات العمومية. والثاني ذو صبغة عقارية تمثل في تشكل شبكة من العلاقات تمحورت حول الفيف. ولكن لحظة انطلاق المسار الأول كانت أسبق من لحظة انطلاق المسار الثاني. حيث انطلق المسار السياسي بين سنتي 1000 و 1040. و لم ينطلق المسار العقاري إلا بعد مطلع القرن الثاني عشر.

---

[1] - Jean-Pierre Poly, La Provence …, Op.Cit., p.IV.

وبناء عليه ، ففي إقليم بروڤانسيا كما في إقليم الماكوني شكلت مؤسسة القمطية أم المؤسسات. كانت تباشر بواسطة أجهزتها الاقتصادية و القانونية و القضائية تدبير الشأن العام. و إليها كانت تحتكم سائر فئات المجتمع من خاصة و عامة.

وإذا كانت حركة هدنة الله قد شكلت منعطفا حاسما في مسار تلك المؤسسات بقمطية الماكوني، كما رأينا من قبل، فان تطورات ذات بعد اقتصادي - ديموغرافي حدثت خلال الفترة الممتدة بين سنتي 950 و 1040 هي التي أفضت هذه المرة إلى التحولات السياسية و الاجتماعية التي شهدتها بروڤانسيا بعد سنة 1040.

وقد تمثلت هذه التطورات في كون أن أفراد الأرستقراطية، من كبار و متوسطي الملاكين العقاريين، أصبحوا يلاقون صعوبات في إيجاد الأيدي العاملة الكافية لاستثمار استغلالياتهم المترامية الأطراف. بفعل التراجع الديموغرافي و تقلص أعداد العبيد الذين كانوا يسخرون منذ قرون في مختلف الأنشطة الزراعية. و من ثم، لم يجدوا أمامهم من حل سوى القيام ببسط سلطانهم المعنوي و المادي على عموم الفلاحين الأحرار. فشرعوا في إرساء الآليات لتحقيق هذا المبتغى.

ومن المفيد التذكير مجددا في هذا المقام، بأن القمط كان هو المسؤول الوحيد منذ عهد شارلمان، و قبله أيضا، الذي تتجسد في شخصه السلطة في ربوع القمطية. فهو الذي يمتلك ما تسميه بحق الإلزام[1] (le droit de ban) الذي يسري مفعوله في حدود دائرة ترابية معينة هي القمطية. و بمقتضى هذا الحق، الذي تقوم بأجرأته عدة أجهزة، يقوم القمط بالقيادة (le commandement) و يسهر على إقرار الأمن، و يدعو كبار أفراد الارستقراطية لحضور الاجتماعات السنوية التي تعقد للبث في

[1]- يسمى هذا الحق باللغة اللاتينية Bannus. وبما أنه حق ملزم (un droit contraignant) ، فقد ارتأينا ترجمة اسمه بالفرنسية Le ban أو le droit de ban بعبارة حق الإلزام.

القضايا التي تهم القمطية، و يشرف على جباية الضرائب، وعلى شؤون القضاء، كما يشرف على استخلاص الذعائر و الغرامات.

فحدث في قمطية بروڤانسيا أن شرع عدد من أفراد الأرستقراطية اللائكية في التطاول على بعض هذه الحقوق. فأخذوا يسهرون على إقرار الأمن في ربوع القرية التي تقع بها ممتلكاتهم العقارية. و نجحوا في التأثير على أشغال المؤسسات القضائية. و أنشأوا مؤسسات اقتصادية كالأفران و المعاصر و الطاحونات. و احتكروا استغلالها.

وبالنظر إلى ثروة أفراد الأرستقراطية و ما كانوا يملكونه من نفوذ قوي، فقد أصبحت لمعظمهم اليد الطولى داخل القرى. بل إن عددا منهم نصبوا أنفسهم " اقماطا " في تلك القرى. التي تحولت كل واحدة منها إلى " سنيورية إلزامية " . أي إلى دائرة ترابية يمارس الأرستقراطي في حدودها حق الإلزام بكل تجلياته.

وقد كان التطور حاسما في هذا الاتجاه، في نظر جون بيير بولي، حين أصبح أفراد الأرستقراطية في بروفانسيا يشيدون القصور و الحصون دون طلب إذن من مؤسسة القمطية. فأخذت هذه المنشآت تنتشر هنا و هناك بإيقاع سريع. إذ قبيل حدود سنة 1040 أضحت إحدى المعالم البارزة في المشهد العمراني بقمطية بروڤانسيا. الأمر الذي دفع الباحث إلى التساؤل عن أسباب هذه الظاهرة.

انتهى جون بيير بولي في معرض جوابه عن هذا السؤال إلى التأكيد بأنه لم يكن ثمة مبرر أمني داخلي أو خطر عسكري خارجي يدعو إلى إقامة هذه التحصينات، خاصة و أن المسلمين الذين كانوا يهددون القمطية تراجعوا عن حدودها منذ سنة 972[1]. فما من تفسير لهذه الظاهرة ، في اعتقاده، سوى أن أفراد الأرستقراطية كانوا يسعون بخطى حثيثة لعسكرة القرى لسببين : أولا لحماية أنفسهم و حماية ممتلكاتهم

[1] - Jean-Pierre Poly , La Provence…,Op.Cit., p. 127.

بدل التعويل على الأجهزة العمومية لتحقيق الحماية. وثانيا لإيجاد قاعدة مادية لتفعيل سلطانهم على سكان القرى.

وانطلاقا مما تقدم، يذهب جون بيير بولي إلى الاعتقاد على غرار جورج دوبي بان القصر (le château) أو الحصن أصبح من وجهة نظر معنوية رمزا للسلطة. و من وجهة نظر مادية مركزا لمؤسسة هي السنيورية الإلزامية. انطلاقا من هذا المركز أضحى الأرستقراطي، أي السنيور، يمارس حق الإلزام على سكان القرية.

وإذ قدر لأفراد الأرستقراطية في بروڤانسيا النجاح في الاستحواذ على حق الإلزام، و سحب البساط من تحت أقدام القمط ، فقد أفرغوا بذلك مؤسسة القمطية من أي محتوى، و نجحوا في نفس الوقت في إيجاد مخرج لأزمة اليد العاملة التي كانت وراء كل هذه الترتيبات. و إذا كانت هذه التحولات قد حدثت دون أن ترافقها أحداث دامية كبرى كما حدث في قمطيات أخرى،فقد أدت مع ذلك ، إلى حدوث " قطيعة " بين عهدين في يروڤانسيا[1] كما يؤكد ذلك جون – بيير بولي :عهد ما قبل الفيودالية، وعهد الفيودالية. و رغم ذلك فان الباحث يشد انتباهنا إلى مسألة أساسية و هي أنه حتى نهاية القرن الحادي عشر كانت الظاهرة " تستعد لحط الرحال " بالديار البروڤانسية. و كان عليها أن تبدأ المسار الثاني من رحلتها لكي تستكمل مسيرتها و تصبح نظاما متكاملا.

بدا جون بيير بولي معالجته لهذا المسار بالتذكير بان الفئات الاجتماعية في قمطية بروڤانسيا ارتبطت فيما بينها بمختلف أشكال و صيغ علاقات التبعية منذ القدم كما هو الشأن في مختلف قمطيات غالة. فالفقراء ارتبطوا بالأغنياء، و الضعفاء ارتبطوا بالأقوياء بعلاقات تضرع و إذعان. بينما ارتبط نفر من كبار أفراد الأرستقراطية الدينية واللائكية مع القمط بعلاقات ولاء (la fidélité).

[1]- Ibid. p. 129.

وقد كانت علاقات الولاء بين هذه الأطراف التي تهمنا فيما نحن يصدده، تستند في بعض الحالات إلى عقار. هو عبارة عن " بنفسيوم " استفاد منه عدد من " علية القوم " الذين أبانوا عن إخلاص و تفان في خدمة القمط و القمطية. تمثل ذلك البنفسيوم في الأغلب الأعم في مجموعة حصون. كان المستفيدون منها يقومون بحراسة المناطق التي تقع بها نظير استمرارهم على ولائهم للقمط. و حسب الإفادات التي يقدمها لنا جون بيير بولي ، فان النصوص القليلة التي تتحدث عن هذا الشكل من العلاقات لا تتضمن مصطلحات تندرج ضمن ما يسمى بقاموس الفصالة. كما أنها لا تتضمن معلومات عن الطقوس و الحركات (les gestes) المتصلة بعلاقات الفصالة من قبيل الانحناء و عملية أداء اليمين. باستثناء نص واحد يعود لسنة 990 يفيد بأن ريكولف (Riculf) أسقف كنيسة فريجوس (Fréjus) وقف على ركبتيه (s'est agenouillé) يوما ما بين يدي القمط كما يفعل الفصل أمام سيده السنيور[1]. و لاشك أن هذا الحدث يكتسي دلالة بالغة الأهمية؛ الأمر الذي دفع جون بيير بولي إلى التساؤل عما إذا كان هذا الانحناء تعبيرا عن علاقة فصالة أم أن ما قام به الأسقف كان مجرد تعبير عن الإخلاص و الولاء في أرقى صوره ؟ جوابا عن هذا السؤال يذكر بولي بأنه من الصعب الحسم في المسألة انطلاقا من شهادة منفردة. و لكنه لم يتردد مع ذلك في الجزم بأن الطقوس و الشعائر المرافقة لعلاقات الفصالة لم تظهر في قمطية بروڤانسيا إلا بعد مطلع القرن الثاني عشر. و يذكرنا في هذا المقام بأن عددا من أفراد الأرستقراطية الذين شيدوا القصور و الحصون ، كما ذكرنا فيما مضى، شكلوا مليشيات عسكرية كانت تعمل تحت إمرتهم؛ و كان من المفروض أن يكون أفرادها أ فصالا لهم، و رغم ذلك فقد كانت العلاقات القائمة بينهم و بين أفراد الأرستقراطية قائمة على الولاء، و لم تكن علاقات فصالة. و يدعم جون بيير بولي و جهة نظره هاته بالقول بأن المصادر الخطية التي اعتمدها في انجاز أطروحته لا

[1]- Ibid., p. 160.

تتضمن سوى 19 نصا تعود للفترة الممتدة بين سنتي 1040 و 1100 تتحدث عن الولاء (la fidélité). و لا تشير من قريب أو من بعيد إلى الفصالة (lavassalité). و بعد سنة 1100 و حتى حدود سنة 1166 انضاف إليها 16 نصا. تعززت بظهور عدد من العقود الفيودالية (des conventions féodales) بلغ عددها 22 عقدا. و أهم ما في الأمر هو أن معظم هذه النصوص بالإضافة إلى العقود المشار إليها أصبحت تتحدث بكل وضوح عن الفصالة و ما يتصل بها من طقوس.

و المحصلة النهائية هي أن قمطية بروڤانسيا انخرطت بدورها في سلك القمطيات التي سادت فيها الفيودالية. و قد وجدت في جون بيير بولي الباحث الذي أثبت ذلك بالحجة و الدليل. فماذا يمكن أن يقال عن اللاسيوم أحد أقاليم شبه جزيرة ايطاليا.

ظل الباحثون حتى نهاية الستينيات من القرن الماضي يروجون لوجهة نظر مفادها أن الأراضي التي كانت خاضعة لسلطة البابوية في شبه جزيرة ايطاليا ظلت بمنأى عن ظاهرة الفصالة حتى حدود سنة 999 حين اعتلى عرش البابوية رجل الدين الفرنسي جربير الأورياكي (Gerbert d'Aurillac) المعروف باسم البابا سلفستر الثاني (Sylvestre II).

يذكر روبير بوتريش، أحد الباحثين المتأخرين المروجين لهذا الطرح[1] ،بأن البابا المذكور أبان خلال الأربع سنوات التي قضاها على رأس البابوية عن حيوية و نشاط لرد الاعتبار لمؤسسة البابوية، و لنشر تعاليم المسيحية في بعض أقاليم أوربا الشرقية المعروفة اليوم ببولندا و هنغاريا. و لم يخف رغبته في وضع الحجاج القاصدين بيت المقدس تحت حماية البابوية. بل دعا إلى حمل السلاح لتحرير الأماكن المقدسة. فشرع في استقطاب حملة السيف من المتحمسين لهذا المشروع. و شجع أفراد الأرستقراطية على تكوين مليشيات و الانخراط في روابط الفصالة.

[1]- أنظر كتابه الذي سبقت الإحالة عليه ، الجزء الأول ، ص ص.224-225.

وإذ ارتبط هذا المشروع بشخصية البابا سلفستر الثاني ، فقد شهد نوعا من التعثر بعد وفاة هذا الأخير سنة 1003. و لذلك ظلت الفيودالية محتشمة في هذه الربوع. ولم يقدر لها الاكتمال لتصل إلى مستوى أعلى من التبلور حسب مزاعم بوتريش و الباحثين السابقين.

تمثل أطروحة بيير توبير(Pierre Toubert) الصادرة سنة 1973 قطيعة مع هذا الطرح. فقد خلص بعد قراءة جديدة لترسانة من النصوص تهم الفترة الممتدة بين القرنين التاسع و الثاني عشر بأن الأمر عكس ما روج له الباحثون تماما.

وحقيقة هذا الأمر هو أن فيودالية إقليم اللاسيوم (le Latium) الذي اختاره مجالا جغرافيا لبحثه، فيودالية " محلية الصنع ". كانت وراء إرساء قواعدها مؤسسات دينية ،أبرزها دير فارفا (Farfa)[1] و دير سوبياكو (Subiaco)[2]. فقد دأبت هاتان المؤسستان منذ مطلع القرن الحادي عشر على تقديم قطع أرض لأفراد ينتفعون بها مدى الحياة (des tenures livellaires) سعيا منها لاستقطاب أكبر عدد ممكن من المريدين.

ويفيدنا بيير توبير بأن دير فارفا كان مؤهلا أكثر من دير سوبياكو في التسريع بوتيرة إرساء دعائم الفيودالية. فقد كان يملك موارد مادية وبشرية هائلة. تمثلت في تحف نادرة و قطع أرض شاسعة المساحة و أعداد كبيرة من المريدين. كانوا في معظمهم يتألفون من فلاحين يقيمون في قرى محيطة بالدير، و يحظون بحمايته فيما يعرف " بالمحميات " (les sauvetés). لذلك ارتأى رجال الدين القائمون بأمر دير فارفا إنهاء العمل بالصيغة السالف ذكرها. و شرعوا منذ سنة 1062 في منح قطع

---

[1]- ينتسب هذا الدير للقديسة ماريا (Sainte – Marie). يقع في منطقة صابين أو صابينا على بعد حوالي 50 كلم. من روما. تعود نشأته إلى القرن السادس للميلاد. اتبع خلال رحلته الطريقة البندكتية. أنظر في هذا الشأن :

John Howe, Church and social change in eleventh century Italy, University of Pennsylvania Press, 1997.

[2]- أنشأ هذا الدير القديس بنوا (Saint Benoît) حوالي سنة 500 ميلادية. و قد اتبع الطريقة البندكتية كدير فارفا.

أرض كأفياف للمريدين، الذين يتقنون استعمال السلاح، مقابل خدمات عسكرية. و سرعان ما تلت هذه العملية عمليات مماثلة خلال السنوات الموالية. ثم تضاعفت خلال العشرية الممتدة بين سنتي 1080 و 1090. و غدت هي الصيغة الأكثر تداولا بين دير فارفا و الراغبين في الانضمام للمليشيات التي أنشاها. و منذ هذا التاريخ بدأت ظاهرة العسكرة تأخذ منحى تصاعديا في الأراضي الواقعة في منطقة صابين (Sabine) الخاضعة لنفوذ دير فارفا. ثم أصبحت الظاهرة واضحة أكثر بعد سنة 1100 حسب الإفادات التي تقدمها النصوص التي اعتمدها بيير توبير[1].

وفد سمحت نفس النصوص لبيير توبير بالقول بأنه ابنداءا من حوالي سنة 1120 أخذ نفس المشهد يتشكل في المنطقة المحاذية لنهر التيبر (le pays Tibertin) الخاضعة لنفوذ دير سوبياكو. فقد أبان نفر من أفراد الأرستقراطية اللائكية عن رغبة جامحة في الاستحواذ على أراضي تدخل ضمن ممتلكات هذا الدير، فاقتضت ضرورة صد الأطماع من رجال الدين المشرفين عليه الالتحاق بركب زملائهم رجال دين دير فارفا. فاجتهدوا بدورهم في استقطاب " المريدين " (Fides equites) من بين الذين يتقنون فنون الحرب و القتال و امتطاء صهوات الخيول. فمنح الدير لكل منخرط في العملية فيفا. و شكل مجموع المنخرطين مليشيات عسكرية. ارتبط أفرادها بسادتهم من رجال الدين بروابط فيودو – فصلية. و تعهدوا بالخدمة العسكرية.

انطلاقا مما تقدم يتضح بأن مؤسسات دينية " صغرى " نسبيا هي التي تزعمت حركة إرساء الفيودالية في شبه جزيرة ايطاليا ، أو على الأقل في إقليم اللاسيوم و في الأراضي المحاذية لنهر التيبر. و هذا ما يستفاد من كلام بيير توبير حين يذكر بأن عملية إرساء الفيودالية في ايطاليا اندرجت ضمن اهتمامات " المؤسسات العمومية " و ليس ضمن اهتمامات الأفراد كما حدث في أقاليم غالة[2]. و قد تأكد هذا البعد "

[1]- Pierre Toubert, Les structures du Latium…, Tome II, p. 1105.

[2]- Ibid., Tome II,p. 1183.

المؤسساتي العمومي " أكثر حين انضمت البابوية إلى العملية. فما هي الإجراءات التي قامت بها أم المؤسسات الدينية في هذا الشأن؟

يذكرنا ما يورده بيير توبير من معطيات و هو بصدد الجواب عن هذا السؤال بما حدث في غالة قبيل أن يتولى شارلمان حكمها. فقد كانت روابط الفصالة قد استشرت في أوساط الطبقة الأرستقراطية من مجتمعها. و بما أنه كان من الصعب استئصال الظاهرة، فقد فكرفي احتوائها ،كما ذكرنا فيما مضى ، من خلال إضفاء الطابع المؤسساتي عليها. و ذلك بأن جعلها إحدى وسائل الحكم وممارسة السلطة. وهذا بالذات ما حاولت البابوية القيام به في ايطاليا.

فقد شرع البابوات منذ مطلع القرن الثاني عشر في نسج خيوط شبكة من الروابط الفيودو - فصلية. و شجعوا كبار رجال الدين و كبار الملاكين العقاريين اللائكيين على الانخراط فيها؛ مستحضرين في هذا الشأن ما سبق أن قام به البابا سلفستر الثاني. و لتحقيق النجاح في مسعاهم اتبعوا مسلكين أساسيين: تمثل المسلك الأول في عملية شراء مجموعة قصور و حصون كانت في حوزة بعض أفراد الأرستقراطية. منحت لهم فيما مضى قصد الانتفاع، أو بسطوا عليها نفوذهم في ظروف غير عادية. فاشترتها منهم البابوية و عادت لتمنحها لهم كأفياف نظير الإقرار بتبعيتهم لها كأفصال. وتمثل المسلك الثاني في عملية " شراء للولاءات ". فقد كان عدد من كبار الملاكين العقاريين يدينون بالولاء (la fidélité) للبابوية منذ القدم. فارتأى البابوات تقديم مبالغ مالية لهؤلاء على أن يتحولوا من مجرد أشخاص يدينون بالولاء للمؤسسة إلى أفصال تابعين لها.

ويفيدنا بيير توبير بأن البابوية حققت نجاحا منقطع النظير في هذا الاتجاه. إذ بعد مضي سنوات قليلة شرع كثير من كبار الملاكين العقاريين و عدد من الأقماط في تقديم فروض الطاعة للبابوية بالانحناء و تقديم الولاء (l’hommage) و تأدية

القسم كسا يفعل سائر الأفصال[1]. و بذلك ، فان الفيودالية التي سبق لها أن بلغت مستوى من النضج في إقليمي اللاسيو م و صابينا اكتمل نضجها أكثرعلى يد البابوية. و اتسع انتشارها هذه المرة في مجال جغرافي أوسع.

والجدير بالذكر أن ما أقدمت عليه البابوية كان ينسجم من جهة مع ما كان يعتمل في ايطاليا و في غرب أوربا عامة من أحدات و تحولات انطلقت منذ مطلع القرن الحادي عشر. فكان على هذه المؤسسة الدينية أن تركب تيار مرحلة جديدة من تاريخ غرب أوربا اختلط فيها الديني بالدنيوي. و أصبحت فيها المؤسسات الدينية تجنح نحو طلب الدنيا كما كان يفعل أفراد الأرستقراطية اللائكية[2]. كما كان يستجيب من جهة أخرى مع رغبة البابوية في أن تكون تحت إمرتها مليشيات تمدها بالقوة و تسمح لها بقيادة المسيحيين في المشروع الحربي الشهير بالحروب الصليبية.

تترك الفقرات السابقة الانطباع لدى القارئ و كأن نشأة و تطور الفيودالية، في إقليمي اللاسيوم و صابينا، حدثا في سياق مختلف عن السياق الذي حدثا فيه في إقليمي الماكوني و بروڤانسيا. ففي هذين الإقليمين حدث أن تدهورت المؤسسات العمومية. فاتجهت عملية تدبير الشأن العام نحو " الخوصصة "؛ و ذلك حين قام أفراد الأرستقراطية (فرادى) بالسطو على حق الإلزام وشرعوا في تشييد القصور. ثم أصبحوا يمارسون ذلك الحق في إطار سسنيوريات إلزامية أنشأوها. و ارتبطوا فيما بينهم في شبكة من العلاقات تمحورت حول الفيف.

في ايطاليا لم يحدث التدهور المشار إليه. فقد كانت المؤسسات الدينية تشكل دائما ما يمكن تسميته ببنيات استقبال. حيث كانت تحتضن أفراد المجتمع و تسهر

---

[1]- Ibid., Tome II, p. 1135 et suivantes..

[2]- Jules Gay, Les Papes du XIe siècle et la chrétienté, Paris, Gabalda, 1926,p.126. voir aussi Jean Flori,
Croisade et chevalerie, XIe – XIIe siècles, Paris – Bruxelles, De Boeck Université, 1998, pp. 15-16.

على تأطيرهم. كما أن منظومة القوانين التي كانت تنظم المعاملات بين الأفراد ظلت قوية. و من ثم لم يتهافت أفراد الأرستقراطية اللائكية في إقليم اللاسيوم على تطبيق قوانين جديدة. و لم يسارعوا إلى التسلط على شؤون القضاء. و رغم أنهم شرعوا منذ منتصف القرن العاشر في تشييد القصور و إقامة مناطق النفوذ، فإنهم لم يلجئوا إلى نسج روابط فيودو - فصلية كما فعل زملائهم في عدد من أقاليم غالة[1]. و هذا ما يفسر في نظر الباحث عدم مواكبة الروابط الفيودو – فصلية (أي الفيودالية في معناها الضيق) في إقليم اللاسيوم لظاهرة تشييد القصور و إقامة مناطق النفوذ كما حدث في أقاليم غالة. لكن هذا لا يعني بأن أفراد الأرستقراطية (اللائكية بوجه خاص) ظلوا في إقليم اللاسيوم بمنأى عن الفيودالية أو بمنأى عما كانت تقوم به المؤسسات الدينية. فكيف يوضح بيير توبير هذا الأمر؟

يفيدنا بيير توبير بأن حضور أفراد الأرستقراطية في قلب الأحداث يتجلى من خلال الحديث عن " حركة إعادة الهيكلة " التي شهدها إقليم اللاسيوم بين سنتي 920 و 1030، و التي شملت مختلف المجالات كأشكال السكن الريفي و أساليب الزراعة و البنيات الاجتماعية و طرق تدبير الشأن المحلي. و قد كانت وراء تلك " الحركة " تحولات كبرى ، أبرزها النمو الديموغرافي[2] الذي حدث في مجال جغرافي يتميز بصعوبة تضاريسه و قلة أراضيه الصالحة للزراعة. الأمر الذي كان يستدعي التدخل لإعادة تنظيم ذلك المجال بشكل يجعله قادرا على استيعاب التزايد المذكور دون إعاقة النمو الاقتصادي (أي التوسع الزراعي) الذي بدأ يرتسم في الأفق منذ نهاية القرن العاشر. و لتحقيق هذا المسعى قام أفراد الأرستقراطية بتجميع سكان إقليم اللاسيوم في قرى محصنة بأسوار أقاموها لهم في المرتفعات و في المناطق الوعرة التي لم تكن مستغلة من قبل. فأفضى ذلك إلى ظهور تجمعات سكنية جديدة. أطلق عليها الباحث

---

[1] - Pierre Toubert, Les structures du Latium…, Tome II, p. 1097.

[2] - Ibid., Tome I, p. 313.

اسـم " الأنكـستلمنطو " (l'incastellamento)[1].والواقـع أن الأمـر يتعلـق بظـاهرة تجاوزت كثيرا حدود التجمعات السكنية. اكتـست دلالات متعـددة و ترتبـت عنهـا نتـائج بالغة الأهمية يمكن إجمالها فيما يلي :

أولا : أشرف على إقامة تلك التجمعـات أفـراد الأرسـتقراطية الدينيـة واللائكيـة. أحيانا كانوا يقومون بذلك مجتمعين ،و في أحايين أخرى متفرقين.فانتهى على اثر ذلك عهد تميز فيه العمران الريفي بتفرق المساكن. و حل عهد أصـبحت فيـه المـساكن متجمعـة. و غدا " الكاستروم " (le Castrum) هو النواة الأساسية في التنظيم الترابي. و بالمثـل انتهـى عهد كانت فيه أرياف ايطاليا مجالا جغرافيا مفتوحا، يمكـن أن تتحـرك سـاكنته في جميـع الاتجاهـات. و حـل عهـد أصـبح فيـه الفلاحـون قرويـون (des villageois ou des castellanus). يقيمون تحت رحمة أفراد الأرستقراطية في تجمعات مغلقة يمكن نعتهـا بلغة عصرنا " بالكيطوهات " (des ghettos).

ثانيـا : ترتـب عـن إقامـة القـرى المحـصنة نهايـة العمـل بنظـام الـدومين الكبـير (legrand domaine) الذي كـان سـائدا خـلال الحقبـة الكارولنجيـة. و الـذي بمقتـضاه كانت الأراضي الصالحة للزراعة موزعة إلى اسـتغلاليات كبـيرة، شاسـعة المـساحة. فأصـبح الآن كل دومين مقسما إلى وحـدات صـغرى يتوسـطها قـصر المالـك العقـاري. و تكتـسي إعادة الهيكلة هاته دلالة بالغة في نظر بيير تـوبير لأنهـا تعنـي نهايـة العـصر الوسـيط و بداية العصر الوسيط في إقليم اللاسيوم.

ثالثـا : يختلـف بيـير تـوبير مـع بعـض البـاحثين حـين يربطـون بـين ظـاهرة " الأنكـستلمنطو " و غـارات المـسلمين عـلى بعـض المواقـع الايطاليـة. و يوضـح في هـدا المقـام بـأن أقـدام المـسلمين وطـأت إقلـيم اللاسـيوم بـين سـنتي 870 و 910. و قـد

[1] - أطلق بيير توبير كلمة " الأنكستلمنطو " على التجمعات السكنية في قـرى محـصنة معلقـة في المرتفعـات.و يستعمل الفرنسيون كلمة Enchâtellement كمرادف لها. و على غرار بيير توبير ، استعمل روبير فوصيي (Robert Fossier) كلمة encellulement للحـديث عـن التجمعـات الـسكنية في إقلـيم بيكارديـا (la Picardie).

استطاع المسلمون الوصول إلى كنيسة القديس بطرس. ثم ابتعدوا عن الإقليم نهائيا بعد هزيمتهم في وقعة 915. في حين أن عملية تشييد القرى المحصنة لم تنطلق إلا بعد سنة 920[1].

و بناء على ما تقدم يخلص بيير توبير إلى القول بأن المنشآت الجديدة أقيمت في بادئ الأمر لإعادة تنظيم السكان. و بعد ذلك غدت أطرا تعتمل فيها حياة سكان الأرياف. بل إن جميع الأحداث و التطورات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية أصبحت الآن تعتمل في هذه الفضاءات الجديدة.و كأنه بذلك يقر ضمنا بأنها لا تختلف عن السنيوريات الإلزامية التي أرسى دعائمها أفراد الأرستقراطية في قمطيتي الماكوني و بروڤانسيا كما رأينا فيما مضى. و يؤكد بيير بوناصي فعلا، في معرض تعليقه على أطروحة بيير توبير، بأن تجمع السكن الريفي في إقليم اللاسيوم أو تفرقه في إقليم قطلونيا لا يعدوان كونهما مجرد تجليات اتخذها السكن هنا و هناك. أما في واقع الأمر،فقد كان السكان تحت سيطرة الطبقة الأرستقراطية التي استطاع أفرادها امتلاك حق اتخاذ القرار، أي امتلاك حق الإلزام[2]. و إذا كان مالكو حق الإلزام في قمطيات غالة فد حصنوا أنفسهم بتشييد القصور المنيعة ، و شكلوا المليشيات للاستناد عليها في أجرأة ذلك الحق، فيبدو أن الهاجس الأمني أو العسكري لم يكن غائبا تماما عن أذهان أفراد أرستقراطية اللاسيوم. لأنهم بقدر حرصهم على حل المشاكل الديموغرافية عن طريق إعادة تنظيم المجال ، فقد كانوا أيضا حريصين من خلال إقامة القرى المحصنة و تشييد القصور على حماية أنفسهم و حماية ممتلكاتهم العقارية. و جعلها في مأمن من أي خطر قد يتهددها من قبل الفلاحين، الذين أخذت أعدادهم تتكاثر بشكل ملفت، أو من قبل أية قوى أجنبية.

---

[1] - Ibid. Tome I,p. 311.

[2]- Pierre Bonnassie, Le Latium au cœur du Moyen Age, in Anuario de estudios medievales, No 09, 1974-1979, pp.723-731.

نخلص في ضوء ما تقدم إلى القول بأن بيير توبير أبان بما لا يقبل الجدل بأن إقليم اللاسيوم ،و بمعيته مجموع أقاليم ايطاليا، شهد ظاهرة الفيودالية. و أن الأمر يتعلق بظاهرة أصيلة نشأت و ترعرعت في نفس الإقليم. و بالمثل ففد أبان بأنه انتهى زمن كان يتم فيه النظر إلى فيودالية غرب أوربا انطلاقا فقط من النموذج الماكوني أو من نماذج الأقاليم الواقعة في الشمال بين نهري الراين و اللوار. و نؤكد من جانبنا بأن أطروحة بيير توبيرالتي حظيت باهتمام خاص في الأوساط العلمية[1] غدت منذ صدورها نموذجا يقتدى من قبل المهتمين بالبحث في المؤسسات السياسية و القانونية و في البنيات الاجتماعية و الزراعية في أقاليم جنوب أوربا. و فد تلتها بعد سنتين فقط أطروحة بيير بوناصي حول إقليم قطلونيا التي أحدثت القطيعة بصفة نهائية مع الطروحات التي ظلت رائجة حتى مطلع سبعينيات القرن الماضي، سواء فيما يتعلق بنشأة و تطور الفيودالية ، أو فيما يتعلق بطبيعة هذه الظاهرة في أقاليم جنوب غالة و أقاليم أوربا المتوسطية. فماذا يمكن أن يقال عن الفيودالية في إقليم قطلونيا ؟

اعتمد بيير بوناصي لانجاز بحثه على ما ينيف عن 15000 نص تعود للفترة الممتدة بين منتصف القرن العاشر و نهاية القرن الموالي. توزعت بين سجلات أديرة و مواثيق و عقود ونصوص هاجيوغرافية و غيرها. خلص بعد استقرائها إلى فكرة أساسية وهي أن إقليم قطلونيا شهد خلال الفترة المذكورة تحولات اقتصادية كبرى واكبتها عملية إعادة تشكل للبنيات الاجتماعية. و من ثم ، فخلافا لجورج دوبي و بيير توبير الذان يربطان نشأة الفيودالية بالتحولات السياسية، يذهب بيير بوناصي إلى التأكيد بأن نشأة و تطور ظاهرة الفيودالية في إقليم قطلوتيا لا يمكن فهمها و تتبع مسارها إلا باستحضار النمو الاقتصادي الذي أفضت إليه تلك التحولات الاقتصادية.

---

[1]- دليلنا في ذلك التعاليق و التقارير الكثيرة التي خصها بها الباحثون في الدوريات و المجلات المتخصصة.

أولا : نهاية الركود الاقتصادي في إقليم قطلونيا و بداية النمو

يفيدنا بيير بوناصي بأن النصوص التي اعتمدها تسمح بالقول بأن إقليم قطلونيا كان منتظما خلال الفترة موضوع البحث في هيأة قمطيات؛ أكبرها قمطية برشلونة. و على غرار قمطية الماكوني، فقد ظلت مؤسسة القمطية قوية في قطلونيا حتى حدود سنة 950. حيث كان القمط مهاب الجانب. يدين له بالولاء جميع السكان من خاصة و عامة. و ربما كان التماسك و التآلف في قطلونيا أقوى مما كان عليه في سائر القمطيات نظرا لقربها من مراكز وجود المسلمين في الأندلس. أما اقتصاديا، ففد كانت قطلونيا إقليما فقيرا حتى حدود السنة المذكورة. يقيم سكانها المؤلفين في معظمهم من فلاحين في المناطق الوعرة. يعيشون في إملاق و تغلب على حياتهم الرتابة.

ويفيدنا بيير بوناصي بأن أقماط قطلونيا تحللوا من تبعيتهم لملوك غالة منذ عهد بوريل الثاني (Borrell II) الذي تولى مهام القمطية بين سنتي 948 و 992 . فحرموا من أي سند يحميهم، و لذلك ظلوا حريصين على كسب ود خلفاء قرطبة بحفظ المواثيق و تبادل الهدايا و الصلات. و لم يجرؤوا يوما على مناوشة مسلمي الأندلس رغم أنهم تعرضوا لبعض الحملات العسكرية مثل تلك التي قادها المنصور بن أبي عامر سنة 985 م. / 374 ه. و تلك التي قام بها ابنه عبد الملك سنة 1003 م./ 393 ه. و رغم انقلاب موازين القوى لصالح مسيحيي شبه جزيرة ايبيريا بعد سقوط الخلافة و اتجاه الأندلس نحو التجزئة ،فقد استمر أقماط قطلونيا في نهج سياسة الود و المهادنة اتجاه القائمين على الأمر في الممالك الطائفية خلافا للسياسة التي انتهجها القشتاليون. و أهم ما تجرؤوا على القيام به هو حماية بعض الممالك الطائفية الصغرى مثل مملكتي سرقسطة و طرطوشة و المشاركة في بعض الحملات التي قام بها مسيحيو شبه جزيرة ايبيريا ضد مسلمي الأندلس و السماح لعدد من المحاربين القطلانيين بوضع مهاراتهم القتالية رهن إشارة بعض القوى الإسلامية مقابل أجر.

و يبدو أن سياسة الأقماط و خدمات المحاربين عادت بالنفع على القمطية و على سكانها. فقد أخذت تتسرب إليها كميات مهمة من القطع الذهبية الأندلسية. ساهمت منذ حوالي سنة 980 في إنعاش اقتصادها. حيث أعطت ديناميكية للنشاط الزراعي الذي كان معتمد سكانها. و أسهمت في إذكاء المبادلات التجارية، و إن ظلت منتجات الأرض موضوع تلك المبادلات. مما أفضى إلى نهضة اقتصادية. بدأت معالمها تتضح أكثر ابتداء من سنة 1020[1].

و ينبهنا بيير بوناصي في هذا المقام يأته من الخطأ القول بأن العوامل الخارجية وحدها هي التي أدت إلى حدوث الانتعاش الاقتصادي. و الصواب هو أن استقرار الأوضاع الأمنية على حدود قطلونيا هيأ الظروف الملائمة لجهود مضنية كان يقوم بها الفلاحون منذ منتصف القرن العاشر. تمثلت في عمليات توسيع للمساحات الصالحة للزراعة عن طريق استصلاح الأراضي الهامشية و تجفيف بعض المستنقعات و تحسين أساليب الأداء في العمل الزراعي. و أتى ذهب الأندلس ليقدم قيمة مضافة لتلك الجهود.

و الحصيلة هي أن عوامل خارجية و أخرى داخلية تظافرت لتنتقل قمطية قطلونيا من مرحلة الركود إلى مرحلة النمو[2]؛ ومن مرحلة الانغلاق إلى مرحلة الانفتاح. و قد تجسدت صور هذا الانتقال في ارتفاع كمية عائدات الأرض، وانتعاش الأسواق، و ازدياد حدة السيولة النقدية، و انتعاش حركة البناء و التشييد وتحسن ظروف عيش السكان، و ارتفاع وتيرة الترحال في اتجاه المراكز المسيحية و الإسلامية.

---

[1]- Pierre Bonnassie, La Catalogne du milieu du Xe à la fin du XIe siècle : croissance et mutations d'une société, Toulouse, Association des publications de l'Université de Toulouse-Le Mirail,1975-1976, Tome I, p. 433 et p. 479.

[2]- Ibid. , Tome I, p. 480.

ثانيا : النمو الاقتصادي و تشكل الروابط الفيودو - فصلية

كان من تبعات النمو الاقتصادي أن ازدادت قيمة و أهمية الأرض. وأصبحت موضوع رهان حاد و صراع مكشوف بين عموم الفلاحين و كبار الملاكين من أفراد الأرستقراطية الذين تزايد جشعهم. فلجأ هؤلاء إلى تشييد الحصون و القصور المنيعة و تشكيل المليشيات العسكرية على غرار ما قام به أقرانهم في مختلف قمطيات غالة. و شرعوا في شن الغارات على بعض المؤسسات الدينية و على الفلاحين للاستحواذ على ما في حوزتهم من أراضي.

وآل الصراع بطبيعة الحال لأفراد الأرستقراطية الذين نجحوا في بسط سلطانهم على معظم فلاحي قطلونيا من خلال إرساء السنيورية الإلزامية. التي تمثل في نظر الباحث مؤسسة أقيمت للاستفادة من الثمار التي أسفرت عنها جهود الفلاحين[1].

و يبدو أن المكاسب المادية و المعنوية التي حققها أفراد الأرستقراطية لم تثنيهم عن طلب المزيد. فأينعت رؤوس الكبار منهم . و أخذوا يرنون بأبصارهم نحو مؤسسة القمطية. و دخلوا فعلا في صراع مكشوف مع القمط رايموند برنجر الأول (Raimond Béranger Ier) . نجحوا على إثره في بسط سلطانهم على القرى الواقعة في منطقة قطلونيا العليا. و أسسوا بها ما يشبه الكيانات السياسية المستقلة (des dominations territoriales autonomes). بينما فشلوا في تحقيق نجاح مماثل في الحاضرة برشلونة وفي القرى التابعة لأعمالها. و مرد هذا الفشل في نظر بيير بوناصي يكمن في قوة سلطة القمط في هذه المناطق و في انضمام سكان الحاضرة و فلاحي القرى إلى صفوفه تجنبا للسقوط في قبضة أفراد الأرستقراطية.

والأهم من ذلك هو أن الانتصار الذي حققه القمط في هذه المواجهة شكل منعطفا حاسما في مسيرة المؤسسات السياسية و البنيات الاجتماعية في قطلونيا. فقد

---

[1]- Ibid. ,Tome II, p. 537. Voir aussi du même auteur Les cinquante mots clefs de l'histoire médiévale, Toulouse, Privat, 1981, p. 27 et p.86.

خبر رايمند برنجر قوة خصومه، فارتأى أن يتحول من قمط يشرف على تدبير الشأن العام و يرعى شؤون جميع أفراد المجتمع من خاصة و عامة إلى قائد للارستقراطية. فكان هذا التحول يعني بالنسبة لبيير بوناصي دخول قطلونيا في " عصر الفيودالية "[1].

حيث غدت الروابط الفيودو - فصلية هي أساس العلاقات بين الأقماط الذين تعاقبوا على إدارة قطلونيا و كبار أفراد الأرستقراطية. و قد تميزت هذه الروابط بكونها كانت تتم أمام الملأ في طقوس و مراسيم خاصة. ثم أصبحت منذ سنة 1040 تتم عبر مواثيق أو عقود (les convenientiae).2 فكان كل واحد من كبار الأرستقراطية يبرم عقدا مع القمط ؛ بوصف الأول فصلا و الثاني سنيورا. وبموجب هذه العقود كان يتم تحديد واجبات و حقوق كل طرف من طرفي العقد. و قد تزايد عدد هذه العقود خلال السنوات الموالية. و واكبتها في تفس الوقت روابط فيودو - فصلية من دون عقود بين المنتمين للشريحة السفلى و المنتمين للشريحة الوسطى في الطبقة الأرستقراطية و كذلك بين هؤلاء و المنتمين للشريحة العليا في نفس الطبقة.

والمحصلة النهائية هي أن شبكة الروابط الفيودو - فصلية بلغت في ظرف لا يتجاوز العقدين بعد سنة 1040 مستوى رفيعا من النضج و التبلور لم يسبق له مثيل في مختلف أقاليم غرب أوربا.بما في ذلك الأقاليم الواقعة بين نهري اللوار و الراين التي ظلت تنعت حتى مطلع سبعينيات القرن الماضي بكونها مهد الفيودالية.

يسمح العرض الوجيز لمضامين المنغرافيات الإقليمية التي اخترناها كنماذج لرصد مظاهر تطور الفيودالية خلال المرحلة الثالثة من مسيرتها بالقول بأن الفيودالية بلغت فعلا مستوى متطورا من النضج بعد سنة 1000. يمكن إجمال تجلياته و الأبعاد المترتبة عنه في العناصر الآتية :

---

[1]- Pierre Bonnassie, La Catalogne…, Op. Cit., Tome II, p. 680.

[2]- Pierre Bonnassie, « Les conventions féodales dans la Catalogne du XIe siècle », in Les structures sociales de l'Aquitaine , du Languedoc et de l'Espagne au premier âge féodal , Paris,éd. Du C.N.R.S., 1969, pp.187-208.

أولا : تجلى ذلك النضج في تجزئة مطلقة للسلطة؛ التي أصبح يمارسها كل من استطاع إلى ذلك سبيلا من أفراد الأرستقراطية في دوائر ترابية ضيقة لا تتجاوز حدود القرية. فتراجع دور قصور الملوك و مقرات الأقماط. وغدت القصور القديمة التي كان يملكها أفراد الأرستقراطية، و القصور التي استحدثها نفر منهم، مراكز لاتخاذ القرارات و إصدار الأوامر و ممارسة حق الإلزام الذي تم تسليطه على عموم الفرحين. و استتبع كل ذلك اتساع نطاق شبكة روابط الفصالة التي بلغت خلال هذه المرحلة الثالثة مستوى من الكمال. فأخذت تبرم بمناسبة إقامتها في بعض الأقاليم عقود و مواثيق. كما حدث مثلا في إقليمي قطلونيا و اللانكدوك حيث حلت تلك المواثيق محل الوفاء القائم على القسم في الروابط الفيودو- فصلية. و في نفس الوقت أصبحت هذه الروابط متمحورة حول الفيف الذي لم يعد متمثلا في قطعة أرض فقط، بل أصبح كذلك عبارة عن قصور أو حصون كان يمنحها الأقماط أو كبار الملاكين العقاريين لقادة المليشيات العسكرية[1].

ثانيا : يبدو أن هذه التحولات كانت بالغة الأهمية حسب الانطباع الذي تتركه قراءة مؤلفات المعاصرين لها[2]. ترتبت عنها نتائج عميقة و شاملة على جميع الأصعدة و المستويات. و لذلك ذهب جورج دوبي ،المعروف بكونه أبرز الباحثين الفرنسيين في

[1]- أنظر في هذا الشأن بيير بوناصي :

Du Rhône à la Galice :Genèse et modalités du réglme féodale,in Structures féodales et féodalisme…, Op.Cit.p. 39 et suivantes.

[2]- من بينهم راوول كَلابير (Raoul Glaber) أحد أبرز إخباريي العصر الوسيط. ولد سنة 985 و توفي بعد سنة1047. نقل إلينا معطيات عن تلك التحولات في " تواريخه " التي نشرها فرانسوا كَيزو (Francoit Guizot) باللغة الفرنسية سنة 1824 تحت عنوان: Chronique de Raoul Glaber . ثم أعاد موريس برو (Maurice Prou) نشر نصها اللاتيني سنة 1886 تحت عنوان : Les Cinq livres de ses histoires. وصدرت بباريس عن منشورات A. Picard

التاريخ الأوربي الوسيط ، إلى نعتها " بالثورة الفيودالية "[1]. فيما ارتأى باحثون آخرون نعتها " بالانتقال الفيودالي "[2] (la mutation féodale).

ثالثا : انخرطت فيما نسميه بالمرحلة الثالثة من مسيرة الفيودالية مختلف أقاليم غرب أوربا، و لو أن انطلاقة هذه المرحلة تمت هنا و هناك في فترات متفاوتة نسبيا بين كيان سياسي وآخر؛ و أيضا بين كيانات متجاورة داخل المجال الجغرافي الواحد. ففي غالة نجح أفراد الأرستقراطية في الانفراد بالسلطة في جميع الأقاليم منذ العقد الثاني من القرن الحادي عشر كما يتضح من منغرافيتي جورج دوبي و جون بيير بولي. أما في انجلترا فلم يحدث ذلك إلا على نطاق ضيق منذ عهد وليم الفاتح (Guillaume le Conquérant). فقد تنامت قوة بعض البارونات. و أقاموا شبكة من علاقات التبعية. و أصبحت تحت إمرتهم مليشيات عسكرية. و لكنهم ظلوا يحترمون المؤسسة الملكية من خلال تقديم الضرائب و تلبية نداء الملوك حين يدعونهم لإبداء المشورة أو لخوض الحروب.[3]

---

[1]- استعمل جورج دوبي العبارة لأول مرة و جعلها عنوان مبحث في كتاب :
Les trois ordre ou l'imaginaire du féodalisme,Paris,Gallimard, 1978,pp.182-205.

[2]- يتعلق الأمر بجون بيير – بولي و اريك بورنازيل اللذان جعلا عبارة "la mutation féodale " عنوانا لكتاب أصدراه سنة 1980 و قد سبق أن أحلنا عليه. و الجدير بالإشارة أن مسألة الثورة الفيودالية أو الانتقال الفيودالي ، التي لا يسمح لنا المقام بالتوقف عندها،أثارت نقاشا حادا في أوساط الباحثين خلال السنوات القليلة الماضية. يمكن الاطلاع عليه من خلال العودة إلى المقالات التي نشرتها المجلة الأنجليزية Past and Present في العدد 142 الصادر سنة 1994، و العدد 152 الصادر سنة 1996، و العدد 155 الصادر سنة 1997.كما يمكن العودة إلى كتاب دومنيك بارثلمي (Dominique Barthélémy) :
La mutation de l'an mil a-t-elle eu lieu ? Servage et chevalerie dans la France des Xe et Xie siécle, Paris, Fayard, 1997.

كما يمكن العودة إلى بحث لكريستيان لورنسون روزاز (Christian Lauranson Rozaz) تحت عنوان : « Le débat sur la mutation féodale :état de la question ». وهو نص من 14 صفحة في صيغة pdf منشور على الموقع : www.droit.u-clermont1.fr

[3]- لمزيد من التفاصيل بخصوص هذا الموضوع نحيل القارئ إلى دراستين إحداهما قديمة باللغة الفرنسية و الأخرى باللغة الأنجليزية
صدرت منذ بضع سنوات. وهما :
Charlees Menche de Loise, France et Angleterre, étude sociale et politique, Paris, éd. E. Dentu, 1859. et Wilfred Lewis Warrem, The governance of norman and angevin England 1086-1272, California, Stanford University Press, 1987.

و يبدو أن هذا المسار الخاص الذي سلكته الفيودالية في أنجلترا هو الذي حدا ببعض الباحثين إلى إنكار وجود فيودالية بها. بل إن نفرا منهم نادوا بضرورة شطب مفهوم الفيودالية من قاموس اللغة.[1]

و خلافا لأنجلترا، ففي شبه جزيرة أيبيريا استطاعت أرستقراطية إقليم قطلونيا أن تفرض وجودها كقوة فاعلة ابتداء من سنة 1060 بعد أربعين سنة من الصراع مع سلطة الإقليم ممثلة في شخص القمط.

وقريبا جدا من قطلونيا، في مملكة قشتالة و ليون، لم يستطع أفراد الأرستقراطية الانفراد بالسلطة إلا بعد سنة 1109 تاريخ وفاة ألفونسو السادس الذي كان يحكم المملكة خلال عهده بيد من حديد.[2]

و عموما، فقد حدثت التحولات في مختلف كيانات غرب أوربا بعد فترة مخاض صعبة امتدت بين سنتي 1020 و 1060 أو 1080. احتدمت خلالها النزاعات السياسية – العسكرية و الاضطرابات الاجتماعية. فماذا يمكن أن يقال عن ملامح فترة المخاض و ما هي مظاهر التحولات التي انبثقت عنها ؟

يستفاد من الأبحاث المنغرافية التي استعرضنا مضامينها و من غيرها[3]، بأن الفترة المشار إليها شهدت فعلا حالة احتقان و توتر عمت مختلف أقاليم غالة كإقليم

---

[1]- تعد الباحثة اليزابيث راش براون (Elisabeth Rash Brown) أبرز من عبر عن هذا الموقف في عدد من أبحاثها و أهمها في هذا المقام مقال :

« The tyranny of construct, feudalism and historians of medieval Europe », The American Historical Review, Vol. 79, No 04, 1974, pp. 1063-1088.

[2]- Marie-Claude Gerbet, La noblesse dans le royaume de Castille, Paris, les publications de la Sorbonne, 1979.

[3]- يمكن أن نذكر في هذا المقام المنغرافيات الآتية :

Marcel Garaud, Les châtelains de Poitou et l'avénement du régime féodal. XIe-XIIe siècles, Poitiers, éd., Société des Antiquaires de l'Ouest, 1967 ;Robert Fossier, La terre et les hommes en Picardie jusqu'à la fin du XIIIe siècle, Paris, B. Nauwelaerts, 1968, 2 Vol. ; Dominique Barthélemy, Les deux âges de la seigneurie banale. Coucy (XIe-XIIIe siècles), Paris, les publications de la Sorbonne, 1984 ; Hélène Débax, La

ماكوني و إقليم بواتو (Poitou) و إقليم بيكارديا (la Picardie)؛ و هي أقاليم تقع وسط و شمال غالة وقريبة من مركز السلطة. و حدث الاحتقان أيضا في إقليمي بروڤانسيا و اللانكدوك (le Languedoc) الواقعان في الجنوب و البعيدين نسبيا عن مركز السلطة. و حدثت نفس الحالة في إقليم اللاسيوم الايطالي البعيد عن التأثير المباشر للأحداث الجارية في غالة. و كذلك في أقاليم شبه جزيرة أيبيريا التي كان من المفترض أن تظل فيها جميع فئات المجتمع متماسكة ، و أيديها في أيدي القائمين على الأمر بها، نظرا لوقوعها بمحاذاة مراكز وجود المسلمين الذين كانوا يهددونها باستمرار.

وعموما،فان العنف أصبح منذ مطلع القرن الحادي عشرسلوك أفراد المجتمع عامته و خاصته. و كأنهم استشعروا جميعا بأن حدثا ما يلوح في الأفق كان يجب الاستعداد له. ما هو ذلك الحدث الذي كان يلوح في الأفق؟ انه باختصار النهضة الاقتصادية التي بدأت مقدماتها منذ مطلع القرن التاسع[1]، و التي ستتجلى في صورة أوضح بعد سنة 1020. وستستمر حتى حوالي سنة 1320. فقد أحس الفلاحون الذين بذلوا جهودا مضنية في استصلاح الأراضي و توسيع المساحات الصالحة للزراعة، بأن عوائق توضع أمامهم لمنعهم من الاستفادة من ثمار تلك النهضة. أما أفراد الأرستقراطية فأرادوا استباق الأحداث للاستفادة منها. و لذلك شرعوا في وضع " المسالك " و " القنوات " التي ارتأوا أن تعبرها النهضة الآتية.

و هكذا بدأت في أوساط الفلاحين إرهاصات الحركات الاحتجاجية التي ستندلع بعنف، متخذة تارة شكل حركات دينية كالحركات الهرطقية (les hérésies)[2]

féodalité languedocienne XIe-XIIe siècles. Serments, hommage et fiefs dans le Languedoc Trencavel, Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, 2003.

[1]- عن مقدمات النهضة الاقتصادية أنظر كتاب جورج دوبي :

Guerries et paysants.VIIe-XIIe siècles. Premier essor de l'économie européenne, Paris,Gallimard,1973.

[2]- أنظر عن هذه الحركات كتاب :

و تارة شكل انتفاضات اجتماعية عارمة.[1] اندلع بعضها بين سنتي 1000 و 1320 ،أي خلال العصر الوسيط الأوسط. بينما اندلعت سلسلة انتفاضات أخرى منذ سنة 1315 أو 1320 و استمرت طيلة العصر الوسيط الأسفل؛ متزامنة مع الكوارث الطبيعية و الديمغرافية و الحروب التي شهدتها أقاليم غرب أوربا خلال هذه الفترة.

أما أفراد الأرستقراطية، الذين يهمنا أمرهم في هذا المقام، فقد بدأوا يتلكئون في تقديم الولاء للأقماط كما رأينا في ما مضى. و أخذت العلاقات بينهم و بين الأقماط تميل نحو التشنج. ينطبق هذا الأمر أيضا على نفر من أفراد الأرستقراطية الذين ينتمون لأسر عريقة، و الذين كانوا يشاركون في ممارسة السلطة في القرى بتفويض من الأقماط أو بتفويض مباشر من الملوك. فقد أصيبوا هم الآخرين بالعدوى. و بموازاة هذه التطورات أخذ الفساد ينخر جسم مؤسسة القمطية. و تفشت الضغائن و الدسائس بين الأقماط و مساعديهم كما حدث في إقليم قطلونيا وفي قمطية اللانكدوك مثلا حسب الإفادات التي يقدمها لنا كل من بير بوناصي[2] و هلين ديباكس (Hélène Débax)[3] في الموضوع. و سرعان ما كانت هذه المشاكل تتحول إلى صراع مكشوف.

Régis Blanchet, Les hérésies médiévales face à l'inquisition, Paris, éd., du Prieuré, 1995, 2 Vol. et

و كتاب :

André Vauchez et Robert Fossier, Histoire du Moyen Age, Tome II (Xe-XIe siècles), Paris, A. Colin, 2005.

[1]- تناول عدد كبير من الباحثين الانتفاضات الاجتماعية التي شهدها الغرب الأوربي خلال العصر الوسيط الأوسط و العصر الوسيط الأسفل. يمكن العودة إلى المؤلفات الآتية على سبيل المثال لا الحصر :

Rodney Howard Hilton, Bond men made free, medieval peasant movements and the English rising of 1381, London, éd., Maurice Temple Smith, Ltd.,1973. ; Laurent Feller, Paysans et seigneurs au Moyen Age, VIIIe-Xve siècles, Paris, A. Colin, 2007. ; Flaran, Les luttes anti-seigneuriales dans l'Europe médiévales et moderne (Actes de journées d'études tenues à l'abaye de Flaran),Toulouse, Presses Universitaires du Mirail, 2009.

[2]- Pierre Bonnassie , La Catalogne…, Op.Cit. Tome II, p.539 et suivantes. Voir aussi les pages 575-580.

[3]- Hélène débax, La féodalité languedocienne…, Op.Cit., pp. 233-268.

ومن البديهي في مثل هاته الحالة أن ينضم أرستقراطيون لهذا الطرف و آخرون لذاك الطرف. ثم يحدث الاقتتال.

والراجح أن هذه الظاهرة لم تقتصر على إقليمي قطلونيا و اللانكدوك، بل حدث ما يشبهها في أقاليم و قمطيات أخرى كما يتضح من المنغرافيات الإقليمية التي سبق أن أحلنا عليها. حيث خصص مؤلفوها صفحات مطولة للحديث عن الوقائع و الحروب التي دارت رحاها بين أفراد الأرستقراطية. إما بسبب اختلاف المواقف من مؤسسات القمطية و من شخص القمط ، أو لأسباب و دواعي مختلفة. وإن أهم ما يمكن استخلاصه من وراء هذا الحديث هو أن وقائع الحروب لم تعد تجري فقط على مستويات جهوية أو إقليمية كما كان يحدث في الماضي، بل أصبحت كذلك عبارة عن وقائع شبه يومية تحتدم على المستوى المحلي. أي في حدود القمطية، وأحيانا في حدود القرية الواحدة على مشارف القصر أو الحصن.

وانطلاقا من هذا الاعتبار ذهبت دومنيك بارثلمي (Dominique Barthélemy) إلى القول بأن الحروب و عمليات القرصنة و عمليات السلب و النهب (les rapines) وجميع أشكال العنف الأخرى غدت بعد مطلع القرن الحادي عشر إحدى ظواهر المجتمع الأوربي.[1] بينما ذهبت هلين ديباكس إلى التأكيد بأن العنف غدا أحد مكونات الفيودالية.[2]

وكان من الطبيعي في مثل هاته الأجواء أن يتصدر حملة السيف واجهة الأحداث. فعليهم أخذ يعول أفراد الأرستقراطية في خوض الوقائع الدائرة بين بعضهم ؛ أو الدائرة بينهم و بين الأقماط. و عليهم كذلك أخذ يعول أفراد الأرستقراطية لإخماد انتفاضات الفلاحين. و من ثم ،تكاثرت المليشيات العسكرية التي كانت عبارة عن فرق تتشكل من فرسان (les milites) و من محاربين مرابطين في

---

[1]- Dominique Barthélemy, Les deux age de la seigneurie banale…, Op.Cit., pp. 539-541.

[2]- Hélène Débax, La féodalité…, Op.Cit., p. 233

الحصون (les milites castri). و قد قدر بيير بوناصي بأن الفرقة الواحدة من تلك المليشيات كانت تتألف أحيانا من مائة محارب.[1] و في نفس السياق خلص فليب دوران (Philippe Durand)[2] إلى القول، بعد تحريات ميدانية، بان عدد المحاربين المرابطين في القصور المنتشرة هنا و هناك في غرب أوربا كان مختلفا ، ولكنه كان يصل عموما إلى المائة محارب. و لكن هذا العدد كان يرتفع تبعا للظروف و المستجدات العسكرية.[3] و من هنا نستطيع أن نتصور بان مجمل عدد المحاربين كان يقدر بالآلاف. بعضهم كان يحارب تحت إمرة الأقماط ،و بعضهم الآخر تحت إمرة المؤسسات الدينية، و بعضهم تحت إمرة كبار الملاكين العقاريين. و كانت تربط بين كل واحد منهم و بين سيده القمط أو المؤسسة الدينية أو الأرستقراطي روابط فيودو - فصلية. كانت تقضي بأن يقوم بخدمة سيده السنيور[4] مقابل قطعة أرض (الفيف).

ومن المفيد الإشارة إلى أن خصوصيات المرحلة اقتضت في بعض القمطيات لجوء أفراد الأرستقراطية إلى الوسائل السلمية لفض النزاعات القائمة بينهم و التحالف لمجابهة التحديات المشتركة، وأهمها انتفاضات الفلاحين. لذلك نشأت في تلك القمطيات،إلى جانب الروابط الفيودو- فصلية التي تربط بين كل سنيور و أفصاله، روابط فيودو - فصلية بين بعض " السنايرة " ، وخاصة بين متوسطي و كبار الملاكين العقاريين أو بين هؤلاء و البابوية كما حدث مثلا في قمطية بروفانسيا أو في إقليم اللاسيوم. و يبدو أن هذه الروابط تجاوزت مستوى " المجموعات " و نحت نحو "

---

[1]- Pierre Bonnassie, « du Rône à la Galice genése et modalité du régime féodale », in Structures féodales et féodalisme…, Op.Cit. p. 32. Voir aussi du même auteur, Les milites en pays d' Oc au XIe siècle, dans son recueil d'articles intitulé : Les sociétés de l'an mil un monde entre deux ages, Bruxelles, De Bœck Université, 2001, p.453 et suivantes.

[2]- Philippe Durand, Le château fort, Paris, éd., J.P. Gisserot, 1999.

[3]- Ibid., p. 8.

[4]- كانت الخدمة العسكرية (ما يسمى بالفرنسية le servisse d'ost) تمثل أهم خدمة على الإطلاق.

المركزية " في إقليم قطلونيا. فقد استطاع قمط برشلونة ريموند برنجر الأول أن يحسم سنة 1070 الصراع الدائر بينه و بين الأرستقراطية المحلية لصالحه. فلجأ إلى" ترويض" الروابط الفيودو - فصلية القائمة بين أفراد الأرستقراطية و المليشيات التابعة لهم بان سخر تلك الروابط لحسابه من خلال إقامة شبكة علاقات تبعية. وضع نفسه على رأسها،فغدا بذلك " سنيور السنايرة ". و تفاديا لأية ردة من جانب أحد عناصر الشبكة اقترح إبرام عقود أو مواثيق (convenenientiae) بينه و بين أفراد الأرستقراطية.[1] منح بمقتضاها لهؤلاء " أفيافا " تمثلت في قطع أرض و حصون نظير الالتزام بولائهم للقمط و احترام مؤسسات القمطية. و كأنه بهذا الإجراء ألهم الملوك و الأمراء الذين حكموا الكيانات المسيحية في شبه جزيرة أيبيريا بعد القرن الثاني عشر. إذ أرسوا هم الآخرين حكمهم على العناصر الثلاث : الفصالة و الفيف و المواثيق التي غدت هي العناصر الأساسية المعتمدة في الحكم و تدبير الشأن العام.

و يبدو أن هذا الإجراء كان ناجعا و منسجما تماما مع ما كان يعتمل في الواقع. بدليل أن بعض القائمين على الأمر في فرنسا " مهد الفيودالية " تبنوه هم الآخرين خلال القرن الثالث عشر و حتى أواخر القرن الموالي. فبعد هذا التاريخ بدأ الوهن يدب في أوساط الأرستقراطية من جراء المصاعب الاقتصادية - المالية التي تفاقمت منذ سنة 1317 [2]. و تداعيات حرب المائة سنة التي اندلعت منذ سنة 1337؛

[1]- Pierre Bonnassie, « Les conventions féodales… », contribution déjà citée.

[2]- أنظر ما ذكرناه في مقدمة هذا البحث. و لمزيد من التفاصيل يمكن العودة إلى كتاب كْي بوا (Guy Bois) :
Crise du féodalisme, Paris, Presses de la Fondation Nationale des Sciences Politiques, 1976.
و كتاب رودني هلتون (Rodney Howard Hilton) :
Class conflict and the crisis of feudalism. Essays in medieval social history, London, The Hambledon Press, 1985.

بالإضافة إلى طاعون 1348-1349. فهيأت هذه العوامل الظرفية المواتية لتشرع " الدولة " مجددا في استعادة هيبتها على أسس قومية هذه المرة. فكان ذلك يعني بداية تلاشي الفيودالية رغم أن بعض تجلياتها القانونية و المؤسساتية ظلت مستمرة في فرنسا" مهد الفيودالية " حتى سنة 1789. و لذلك ذهب جمهرة من الباحثين إلى نعت الثورة الفرنسية بكونها " ثورة ضد الفيودالية " (une révolution anti-féodale)[1].

[1]- يمكن العودة بخصوص هذا الموضوع إلى الكتابين الآتيين :

L'abolition de la féodalité dans le monde occidental, (actes du colloque international tenu à Toulouse entre le 12 et le 16 novembre 1968), éd., du C.N.R.S.,Paris, 1972, 2 Vol. et John Markoff, The aboli-tion of feudalism. Peasants, Lords and Legislations in the French Revolution, Pensylvania, The Pensylvania University Press, 1996.

الفصل السادس

العلم الإسلامي في العصور الوسطى

العلوم الإسلامية في العصور الوسطى.

ما بين القرن السابع الميلادي ونهاية القرن السادس عشر الميلادي

كانت دمشق وحلب والكوفة وبغداد والقيروان وقرطبة والقاهرة ومراكش وفاس هي المراكز العلمية في العالم, وكانت جامعاتها مزدهرة وصناعاتها متقنة ومتقدمة والعلم في تطور مستمر والعمران في ازدياد فكانت البلاد العربية محجا لطالبي العلم وأعجوبة حضارية غير مسبوقة, كان للعلماء شأن عظيم يحترمهم العامة ويقدرهم الحكام, وكانت هذه الفترة هي فترة تأسيس العلم في العالم فقبل ذلك كانت معارف لا ترتقي لمرتبة العلوم, فلم يبق مجال في العلم مما نعرفه اليوم إلا وكان العرب قد أسسوه.

العلم في الحضارة الإسلامية

ابتكر المسلمون علوماً جديدة لم تكن معروفة قبلهم وسموها بأسمائها العربية كعلم الكيمياء وعلم الجبر وعلم المثلثات. ومن مطالعاتنا للتراث العلمي الإسلامي نجد أن علماء المسلمين قد ابتكروا المنهج العلمي في البحث والكتابة. وكان يعتمد على التجربة والمشاهدة والاستنتاج. وأدخل العلماء المسلمين الرسوم التوضيحية في الكتب العلمية ورسوم الآلات والعمليات الجراحية. ورسم الخرائط الجغرافية والفلكية المفصلة. وقد ابتدع المسلمون الموسوعات والقواميس العلمية حسب الحروف الأبجدية. وكان لاكتشاف صناعة الورق وانتشار حرفة (الوراقة) في العالم الإسلامي فضل في انتشار تأليف المخطوطات ونسخها. وقد تنوعت المخطوطات العربية بين مترجم ومؤلف, ولم تكن المكتبات الإسلامية كما هي في عصرنا مجرد

أماكن لحفظ الكتب، بل كان في المكتبة الرئيسية جهاز خاص بالترجمة وآخر خاص بالنسخ والنقل وجهاز بالحفظ والتوزيع. وكان المترجمون من جميع الأجناس الذين كانوا يعرفون العربية مع لغة بلادهم. ثم كان يراجع عليهم ترجماتهم، علماء العرب لإصلاح الأخطاء اللغوية. أما النقلة والناساخون فكانت مهمتهم إصدار نسخ جديدة من كل كتاب علمي عربي حديث أو قديم. وكانت أضخم المكتبات هي الملحقة بالجامعات والمساجد الكبرى. ففي دمشق وبغداد وفي القاهرة وفي جامعة القيروان وقرطبة، وجامعة القرويين التي تعد أقدم الجامعات الموجودة في العالم، كانت المخطوطات بهم بالآلاف في كل علم وفرع من فروع العلم. وكانت كلها ميسرة للاطلاع أو الاستعارة. فكان يحق للقاريء أن يستعير أي كتاب مهما كانت قيمته وبدون رهن. لهذا كانت نسبة الأمية في هذا الوقت، تكاد تكون معدومة. وكان تعلم القرآن كتابة وقراءة إلزامياً. بينما كانت نسبة الأمية في أوروبا فيما بين القرن التاسع وحتي القرن 12م أكثر من 95%. ويقول المستشرق آدم متز في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري)، أن أوروبا وقتها لم يكن بها أكثرمن عدد محدود من المكتبات التابعة للأديرة. ولا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم. فقد كان في كل بيت مكتبة. وكانت الأسر الغنية تتباهي بما لديها من مخطوطات نادرة وثمينة. وكان بعض التجار يسافرون إلى أقصى بقاع الأرض لكي يحصلوا على نسخة من مخطوط نادر أو حديث. وكان الخلفاء والأثرياء يدفعون بسخاء من أجل أي مخطوط جديد. وهذه قائمة ببعض المجالات التي برع فيها العلماء العرب المسلمون

الطب

لقد طور الأطباء المسلمون أساليب معالجة الجروح فابتكروا أسلوب الغيار الجاف المغلق. وفتائل الجراحة المغموسة في عسل النحل لمنع التقيح الداخلي وهو أسلوب نقله عنهم الأسبان وطبقه الأوربيون في حروبهم. وكان الجراحون المسلمون

قد قفزوا بالجراحة قفزة هائلة ونقلوها من مرحلة نزع السهام كما كان عند الإغريق إلي مرحة الجراحة الدقيقة ومما سهل هذا اكتشافهم للتخدير قبل الجراحة، فتوصلوا إلى ما سموه المرقد (البنج عبارة عن اسفنجة تنقع في محلول من الأعشاب المركبة القنب (الحشيش) والزوان والخشخاش (الأفيون) وست الحسن. وتترك لتجف وقبل العملية توضع الاسفنجة في فم المريض فإذا امتصت الأغشية المخاطية تلك العصارة استسلم للرقاد العميق لا يشعر معه بألم الجراحة.

ولم يقتصر أطباء المسلمين على طريقة الإسفنجة المخدرة فقط، بل كانوا يستعملونه لبوساً من الشرج أو شراباً من الفم. وعرف المسلمون التخدير بالاستنشاق. وبين ابن سينا أثره بقوله: (من استنشق رائحته عرض له سبات عميق من ساعته). وللإفاقة من البنج كان الأطباء العرب يستخدمون أسفنجة أطلقوا عليها الإسفنجة المنبهة المشبعة بالخل لإزالة تأثير المخدر وإفاقة المريض بعد الجراحة. وحدثنا ابن سينا في كتابه "القانون" عن التخدير بالتبريد قائلا: (ومن جملة ما يخدر، الماء المبرد بالثلج تبريداً بالغاً). ووصف كيفية استعمال التبريد كمخدر موضعي كما في جراحة الأسنان.. ولقد كان الجراحون قبل ذلك يتهيبون من الجراحة الداخلية، ويكتفون بعمليات البتر. ثم الكي بالنار لإيقاف النزيف الداخلي. لكنهم باكتشاف واختراع الرازي لخيوط الجراحة من أمعاء الحيوان جعل بإمكانهم خياطة أي عضو داخلي بأمان دون الحاجة إلى فتحه من جديد لإخراج أسلاك الجراحة. وكان الجراحون يستعملون في خياطة جراحاتهم الإبر والخيوط من الحرير أو من أمعاء الحيوانات لربط الجروح الداخلية والخارجية أو من خيوط من الذهب لتقويم الأسنان.

ومع تطور الجراحة عند المسلمين بعد اكتشافهم للتخدير، ابتكروا الكثير من آلات الجراحة التي لم تكن معروفة قبلهم، فمنها آلات من الفضة أو الصلب أوالنحاس. وكانت أسماء الآلات تدل على مدي توسع الجراحة وتنوعها فهناك المشارط بأنواعها للجراحة الخارجية والداخلية ومنها ذو الحد وذو الحدين والمناشير

الكبيرة للبتر والصغيرة لقص العظام الداخلية. والمباضع المختلفة الأشكال فمنها المباضع الشوكية والمعقوفة لقص اللوزتين. والمجادع والمجادر والمبادر والكلاليب. ودست المباضع والمقصات الخاصة بعمليات العيون والجفوت بأحجامها وأشكالها المختلفة، كالجفوت الكبيرة المستعملة في أمراض النساء لاستخراج الجنين أو تسهيل ولادته. أو الجفوت المستعملة في جراحة العظام لاستخراج بقايا العظم أو السلاح داخل الجسم، أو المستعملة في جراحة الأذن والأنف والعيون. والصنانير التي تدخل بين الأوعية والعروق والأعصاب وفي جراحة الأوعية الداخلية وخياطتها.

وفي كسور العظام كان الأطباء يستعملون أنواعا من الجبائر من البوص أو جريد النخل أو من الخشب. وكان المجبرون يعالجون خلع المفاصل وكسر العظام بالطرق اليدوية في خبرة ومهارة دون حاجة إلى الشق بالجراحة وفي كثير من الأحيان يستعملون الشد على المفصل لمنع تكرار الخلع، كما أنهم ابتكروا طريقة الرد الفجائي للخلع. وكان الكي بالمكاوي المختلفة، قد توارثه العرب منذ فترة الجاهلية وقد استعمله المعالجون المسلمون كمسكن للألم للأمراض المزمنة والمستعصية كعرق النساء واللمباجو والصداع النصفي. وحددوا خرائط لجسم الإنسان حددوا فيها مواضع الكي بالنسبة لكل مرض. وقد يكون الكي في أكثر من موضع للمرض الواحد. وابتكر الأطباء المسلمون أنواعا من المكاوي المحماة، من بينها الإبر الدقيقة ذات السن الواحد أو شعبتين أو ثلاثة. وصنعوها من الحديد أو النحاس أو الذهب أو الفضة وحددوا درجة الحرارة المناسبة لعلاج كل مرض. وحدد العالم ابن سينا في كتابه "القانون" القواعد الرئيسية لجراحة السرطانات. في مراحل ثلاث هي: الاكتشاف المبكر، ثم الجراحة المبكرة، فالاستئصال التام. وذكر الزهراوي علاج السرطان في كتابه "التصريف" قائلا: (متى كان السرطان في موضع يمكن استئصاله كله كالسرطان الذي يكون في الثدي أو في الفخد ونحوهما من الأعضاء المتمكنة لإخراجه بجملته، إذا كان مبتدءاً صغيراً فافعل. أما متى تقدم فلا ينبغى أن تقربه فاني ما استطعت أن أبرئ منه

أحدا. ولا رأيت قبلى غيري وصل إلى ذلك). ووصف العملية قائلا: (ثـم تلقـى في الـسرطان الصنانير التي تصلح له ثم تقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء حتى لا يبقـى شيء من أصوله واترك الدم يجري ولا تقطعه سريعا بل اعصر المواضع ما أمكنك.

وكان الزهراوي يجري عملية استئـصال الغـدة الدرقيـة. وهـي عمليـة لم يجـرؤ أي جراح في أوروبا على إجرائها إلا في القرن التاسع عشر بعده بتـسعة قـرون وقـد بـين هـذه العملية بقوله: (هذا الورم يسمى فيلة الحلقوم ويكون ورما عظيما على لون البـدن وهـو في النساء كثير. وهو على نوعين إما يكون طبيعيا وإمـا يكـون عرضـيا. فأمـا الطبيعـي فـلا حيلة فيه. وأما العرضي فيكون على ضربين أحدهما شبيه بالسلع الـشحمية والنـوع الآخـر شبيه بالورم الذي يكون من تعقد الشريان وفي شقة خطر فلا تعرض لهـا بالحديـد البتـة), كما بين الزهراوي أوضاع المريض في جراحة الأمعاء بوضعه على سريـر مائـل الزاويـة فـاذا كانت الجراحة في الجزء السفلي من الأمعاء وجب أن يكون الميل ناحيـة الـرأس. والعكـس صحيح والهدف من ذلك الإقلال من النزيف أثناء العملية والتوسعة ليد الجراح. ونبه على أهمية تدفئة الأمعاء عند خروجها من البطن إذا تعسر ردها بسرعة، وذلك بالمـاء الـدافيء حتى لا تصاب بالشلل. كما ابتكر (الزراقة) لغسيل المثانـة وإدخـال الأدويـة لعلاجهـا مـن الداخل. كما عملية تفتيت حصاة المثانة قبل إخراجها فقـال: (إن كانـت الحـصاة عظيمـة جدا فإنه من الجهل أن تشق عليها شقا عظيما لأنه يعرض للمـريض أحـد أمـرين: إمـا أن يموت أو يحدث له تقطير في البول والأفضل أن يتحايل في كـسرها بالكلاليـب ثـم تخرجهـا قطعا).

وفي سنة 836 م أمر الخليفة المعتصم ببناء مشرحة كبيرة عـلى شـاطيء نهـر دجلـة في بغداد وان تزود هذه المشرحة بأنواع مـن القـرود الـشبيهة في تركيبهـا بجـسم الإنـسان وذلك لكى يتدرب طلبة الطب على تـشريحها. ولم يخـل كتـاب مـن مؤلفـات المـسلمين في الطب مـن بـاب مـستقل عـن التـشريح توصـف فيـه الأعـضاء المختلفـة بالتفـصيل وكـل

عضلة وعرق وعصب باسمه وكان الرازي يقول في كتابه: (يمتحن المتقدم للإجازة الطبية في التشريح أولا، فإذا لم يعرفه فلا حاجة بك أن تمتحنه على المرضى). وكان المسلمون يعتمدون أول أمرهم على ما كتبه الإغريق في تشريح جسم الإنسان وذلك تجنبا للحرج الدينى. ولكنهم اكتشفوا عن طريق التشريح المقارن (أي تشريح الحيوانات) الكثير من الأخطاء في معلومات الإغريق فابتدؤوا الاعتماد على أنفسهم. زمن خلال دراستهم للتشريح اكتشف ابن النفيس على الدورة الدموية الصغرى. واكتشفوا أن الكبد يتكون من فصين وليس من خمسة فصوص كما كان يعتقد الإغريق. واكتشف عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة 1231 م أن الفك السفلي للإنسان يتكون من عظمة واحدة وليس من عظمتين كما ذكر جالينوس بعد أن فحص (2000) جمجمة بشرية. واكتشف أن عظمة العجز تتكون من قطعة واحدة وليس من ست قطع كما ذكر جالينوس الإغريقي. وكان ابن الهيثم المتوفى سنة 1037م قد اكتشف تشريح طبقات العين ووظائف كل طبقة؛ كالعدسة والحدقة والشبكية وتركيب الأعصاب المتصلة من العين إلى المخ. كما اكتشف ابن رشد وظائف شبكية العين.

وكان المسلمون يطلقون على طب العيون اسم الكحالة وقد اشتهر عدد من أطبائهم بلقب الكحال.. لبروزهم في هذا الفن.. ولا تقتصر الكحالة على العلاج بالكحل والقطور فحسب "فدرج الكحل" كان يشمل إلى جانب هذه الادوية على الآلات الجراحية المتخصصة، وقد تطورت جراحة العيون في البلاد التي تكثر فيها هذه الأمراض مثل مصر والأندلس.

وفي علم طب الأعشاب اكتشفوا ألوف النباتات التي لم تكن معروفة وبينوا فوائدها. وكانت معظم الأعشاب تجرب على الحيوانات كالقرود أولا. وكان الطبيب المعالج هو الصيدلي أو العشاب في آن واحد. ثم انفصلت التخصصات وأصبح الطبيب يكتب الوصفات وتسمى (الأنعات). وكان يسلمها المريض إلى العشاب أو

العطار الذي يركبها له, وقد اشتهرت دمشق بطب الأعشاب وكان بها أشهر العطاريين والمعالجين والعاملين بألاعشاب وكان العلماء المسلمون يتحايلون على الأدوية المرة التي تعافها نفس المريض بطرق مختلفة, فابن سينا أول من أوصى بتغليف الدواء بأملاح الذهب أو الفضة لهذا السبب, فأصبحت أقراص الدواء عند المسلمين مغلفة ليس لها طعم. فكان ابن البيطار (شيخ العطارين) يجوب العالم ومعه رسام يرسم له في كتبه النبات بالألوان في شتى أحواله واطواره ونموه. وقد اكتشف وحده 300 نبات طبي جديد شرحها في كتبه واستجلبها معه. وقد ألف كبار العشابين العديد من الكتب والموسوعات العلمية في هذا العلم ومن أهم ابن البيطار مؤلف كتاب "مفردات الأدوية."

وكان الطب العربي قد عني "بطب المسنين" وعرف "الطب النفسي العضوي" كطب المجانين والمسجونين وكان ابن سينا أول من أشار إلى أثر الأحوال النفسية على الجهاز الهضمي وقرحة المعدة وعلى الدورة الدموية وسرعة النبض. وكان الأطباء العرب يتبعون الطب الوقائي والأمراض المعدية. حبث كانوا يعرفوم العدوى ودورها في نقل الأمراض قبل اكتشاف الميكروسكوب والميكروبات بمئات السنين.. فبينوا أضرار مخالطة المريض بمرض معد أو استعمال آنيته أو ملابسه، ودور البصاق والإفرازات في نقل العدوى. وكان ابن ابن رشد قد اكتشف المناعة التي تتولد لدى المريض بعد إصابته بمرض معد مثل الجدري. وبين أنه لايصاب به مرة أخرى. وكانوا يصنعون نوعا من التطعيم ضد الجدري (إذ يأخذون بعض البثور من مريض ناقه ويطعم به الشخص السليم بأن توضع على راحة اليد وتفرك جيدا أو يحدثون خدشا في مكانها) وهي نفس فكرة التطعيم التي نسبت فيما بعد إلى أوروبا. وقد اهتم ألأمويون بتنظيم مهنة الطب وطرق العمل بها والمعالجة وأصدروا التشريعات المنظمة لذلك وللمعالجين وألأطباء, وكان يوجد قانون تشريعي ينظم مزاولة مهنة الطب ففي عهد الخليفة المقتدر العباسي صدر أول قانون للرخص الطبية وبموجبه لا يجوز ممارسة

الطب إلا بعد امتحان وشهادة. ووضعت آداب وأخلاقيات للمهنة. وكان كل من يقوم بممارسة مهنة الطب، يؤخذ عليه قسم الطبيب المسلم والذي كان يعتمد على المحافظة على سر المريض وعلاجه دون تمييز وأن يحفظ كرامة المهنة وأسرارها. وكان في سنة 833 م- 218 هـ (14) في عهد الخليفة المأمون قد صدر أول قانون للرخص الصيدلية وبموجبه يجري امتحان للصيدلاني ثم يعطي بموجبه مرسوم يجيز له العمل. وأخضع القانون الصيدليات للحسبة (التفتيش). وكان الخليفة قد كلف الرازي شيخ الأطباء بتأليف كتاب بعنوان "أخلاق الطبيب" ليدرس للطلبة.. وقد شرح فيه العلاقة الإنسانية بين الأطباء والمرضى وبينهم وبين بعضهم كما ضمنه نصائح للمرضى في تعاملهم مع الطبيب ووضع أيضاكتاب "طب الفقراء" يصف لهم فيه الأدوية الرخيصة للعلاج المنزل.

البيطرة

وكانت البيطرة قد أصبحت علما له قواعده وأصوله لأن الإسلام عني بالرفق بالحيوان وعلاجه وتغذيته ونهانا عن تحميله ما لاطاقة له به أو تعذيبه، ومنع قتله إلا لضرورة. وحرم وشمه أو جدع أنفه أو وخزه بآلة حادة. وقد حقق العرب قدرا عظيما من التطور العلمي في ميدان الطب البيطري حيث عني بأمراض الخيل، والمظهر الخارجي والصفات العامة المميزة للفرس والحمار والبغل ووظائف الأعضاء الخارجية والعيوب الوراثية في الخيل

الرياضيات

لما كان علم الحساب مستغلق على المبتدئ إذا كان من طريق البرهان، فإن المسلمين كانوا يعتبرون أن من أحسن التعليم الابتداء بالحساب من طريق أعمال المسائل لأنه معارف متضحة وبراهينه منتظمة، فينشأ عنه في الغالب عقل مضيء يدل على الصواب، ويقولون إن من أخذ نفسه بتعلم الحساب أول أمره يغلب عليه الصدق، لما في الحساب من صحة المباني ومنافسة النفس فيصير له ذلك خلقاً ويتعود

الصدق ويلازمه مذهبا زادت حاجة المسلمين إلى علم جديد من علوم الحساب يساعدهم في معاملات البيع والشراء بين الشعوب مع اختلاف العملات والموازين ونظام العقود. المأمون يكلف الخوارزمي عالم الرياضيات، بالتفرغ لوضع وسيلة جديدة لحل المعادلات الصعبة التي تواجه المشتغلين بالحساب. فوضع كتابه "الجبر والمقابلة" وبين أغراضه قائلا عند تقديمه: (يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجارتهم وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه). وتناول الكتاب الحسابات وطرقها ابتداء من حساب محيط في الكرة الأرضية وقطرها وخطوط الطول والعرض في البلدان إلى مساحات البلدان والمدن والمسافات بينها. ثم مساحات الشوارع والأنهار إلى مساحات الضياع والبيوت.. وحساب الوصايا والمواريث وتقسيم التركات المعقدة. والحسابات الفلكية، وحساب المعمار. وكلها كانت تواجه مشاكل وصعوبة في حسابها بطرق الأولين. وكان علماء الرياضيات المسلمين قد بحثوا في مختلف جوانب علوم الحساب والهندسة والأعداد جمعا وتفريقا وتضعيفا وضربا وقسمة وتوصلوا لكيفية إخراج الجذور في الأعداد الصحيحة وغير الصحيحة. وبينوا الكسور وصورها وطرق جمعها وتفريقها وضربها وقسمتها واستخراج جذور الكسور التربيعية والتكعيبية والضرب والقسمة باستخدام الهندسة وحلوا مسائل العدد ولبنوا خصائصه وتطبيقاته في المعاملات والصرف وتحويل الدراهم والدنانير والأجرة والربح والخسارة والزكاة والجزية والخراج وحساب الأرزاق والبريد والأعداد المضمرة وغيرها من علوم الحساب. وكانت لأهل المغرب طرق ينفردون بها في الأعمال الجزئية من هذا العلم، فمنها قريبة المآخذ لطرق ابن الياسين ومنها بعيدة كطرق الحضار كما جاء في كتاب مدينة العلوم. كما والأرقام المستخدمة الآن في المشرق هي بالأصل أرقام هندية، بينما الأرقام المستخدمة دوليا هي الأرقام العربية التي وضعها المسلمون بناء على طريقة الزوايا وأضاف إليها المسلمون نظام الصفر، والذي لولاه لما استطعنا أيضاً أن نحل كثيراً من المعادلات الرياضية من مختلف الدرجات، فقد سهل استعماله جميع أعمال الحساب، وخلص

نظام الترقيم من التعقيد، ولقد أدى استعمال الصفر في العمليات الحسابية إلى اكتشاف الكسر العشري الذي اكتشفه العالم الرياضي جمشيد بن محمود غياث الدين الكاشي (ت 840 هـ-1436 م)، كما ورد في كتابه (مفتاح الحساب للعالم). وكان هذا مقدمة للدراسات والعمليات الحسابية المتناهية في الصغر.لقد كانت الأرقام العربية بصفرها وكسورها العشرية بحق هدية الإسلام إلى أوروبا. هذا الكتاب تضمن الزيج وهو عبارة عن جداول حسابيةً فلكية تبين مواقع النجوم وحساب حركاتها. ويعتبر إبراهيم الفزاري أول من صنع الإسطرلاب. وهو الآلة الفلكية التي تستخدم لرصد الكواكب.

الفيزياء

ويشمل علم الفيزياء علم الحيل وعلم البصريات, في علم الحيل اشتهر أولاد موسى بن شاكر في القرن التاسع ميلادي، وقد ألفوا كتاب "الحيل النافعة" وكتاب "القرطسون" -القرطسون ميزان الذهب- وكتاب "وصف الآلة التي تزمر بنفسها صنعة بني موسى بن شاكر". ومن مختراعاتهم آلة رصد فلكي ضخمة وكانت تعمل في مرصدهم وتدار بقوة دفع الماء وكانت تبين كل النجوم في السماء وتعكسها على مرآة كبيرة واذا ظهر نجم رصد في الآلة وإذا اختفى نجم أو شهاب رصد في الحال وسجل.

علم الحيل

علم الحيل النافعة أو (الميكانيكا), ابتكر العرب بعلم الحيل النافعة وطوروه إلى درجة رفيعة من الإتقان. وكان الهدف من هذا، الاستفادة منه وتوفير القوة البشرية والتوسع في القوة الميكانيكية والاستفادة من المجهود البسيط للحصول على حهد أكبر من جهد الإنسان والحيوان. فاعتبره العلماء طاقة بسيطة تعطي جهدا أكبر. فأرادوا من خلاله تحقيق منفعة الإنسان واستعمال الحيلة مكان القوة والعقل مكان العضلات والآلة بدل البدن. والاستغناء عن سخرة العبيد ومجهودهم الجسماني.

فلجؤوا للطاقة الميكانيكة للاستغناء عن الطاقة الحيوية التي تعتمد على العبيد والحيوانات، ولاسيما وأن الإسلام منع نظام السخرة في قضاء الأمور المعيشية التي

تحتاج لمجهود جسماني كبير. كما حرم إرهاق الخدم والعبيد والمشقة على الحيوان بعدم تحميلهم فوق ما لا يطيقونه، لذلك اتجه المسلمون إلى تطوير الآلات لتقوم عوضا عنهم بهذه الأعمال الشاقة.

وعلم الحركة حاليا، يقوم على ثلاثة قوانين رئيسية، كان قد وضعها العالم الإنجليزي نيوتن في أوائل القرن 18،عندما نشرها في كتابه الشهير "الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية". وكان نيوتن في هذه القوانين قد قام بتجميع المعلومات العربية القديمة مما كتبه العلماء العرب عن الحركة للأشياء قبل عصره بسبعة قرون. إلا أنه صاغها في قالب معادلات رياضية. وأخذ تعريفاتهم لهذه القوانين الثلاثة ونسبها إليه. ففي القانون الأول عن الحركة قال: (أن الجسم يبقى في حالة سكون أو في حالة حركة منتظمة في خط مستقيم مالم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة). ويقول هذا إخوان الصفا، في رسائلهم الشهيرة: (الأجسام الكليات كل واحد له موضع مخصوص ويكون واقفاً فيها لا يخرج إلا بقسر قاسر). ويقول ابن سينا المتوفى سنة 1037م. في كتابه "الإشارات والتنبيهات": (إنك لتعلم أن الجسم إذا خلى وطباعه ولم يعرض له من الخارج تأثير غريب لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين. فإن من طباعه مبدأ استيجاب ذلك. إذا كان شيء ما يحرك جسما ولا ممانعة في ذلك الجسم كان قبوله الأكبر للتحريك مثل قبوله الأصغر، ولا يكون أحدهما أعصى والآخر أطوع حيث لا معاوقة أصلاً). ثم يأتي بعد ابن سينا علماء مسلمون على مر العصور يشرحون قانونه ويجرون عليه التجارب العملية، وفي ذلك يقول فخر الدين الرازي المتوفى سنة 1209م بكتابه "المباحث المشرقية": (إنكم تقولون طبيعة كل عنصر تقتضي الحركة بشرط الخروج عن الحيز الطبيعي. والسكون بشرط الحصول على الحيز الطبيعي). وفي كتابه "المباحث الشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات" يقول ابن سينا : (وقد بينا أن تجدد مراتب السرعة والبطء بحسب تجدد مراتب المعوقات الخارجية والداخلية). أما قانون نيوتن الثاني في الحركة فنصه : (أن تسارع جسم ما

أثناء حركته، يتناسب مع القوة التي تـؤثر عليـه، وفي تطبيـق هـذا القـانون عـلى تـساقط الأجسام تحت تأثير جاذبية الأرض تكون النتيجة أنه إذا سقط جسمان من نفس الارتفـاع فإنهما يصلان إلى سطح الأرض في نفس اللحظة بصرف النظر عن وزنهما ولو كان أحـدهما كتلة حديد والآخر ريـشة، ولكـن الـذي يحـدث مـن اخـتلاف الـسرعة مـرده إلى اخـتلاف مقاومة الهواء لهما في حين أن قوة تسارعهما واحدة.

ويقول الإمام فخر الدين الرازي في كتابه "المباحـث المـشرقية": (فـإن الجـسمين لـو اختلفا في قبول الحركة لم يكن ذلك الاختلاف بـسبب المتحـرك، بـل بـسبب اخـتلاف حـال القوة المحركة، فإن القوة في الجسم الأكبر ،أكثرمما في الأصـغر الـذي هـو جـزؤه لأن مـا في الأصغر فهو موجود في الأكـبر مـع زيـادة)، ثـم يفـسر اخـتلاف مقاومـة الوسـط الخـارجي كالهواء للأجسام الساقطة فيقول: (وأما القـوة القـسرية فإنهـا يختلـف تحريكهـا للجـسم العظيم والصغير. لا لاختلاف المحرك بل لاختلاف حال المتحرك، فإن المعاوق في الكبير أكـثر منه في الصغير.

القانون الثالث لنيوتن ينص على أن لكل فعل رد فعل مساوي له في المقدار ومضاد له في الاتجاه). وأبو البركات هبة الـلـه البغدادي المتوفى سنة 1165 م. في كتابـه "المعـبر في الحكمة" قال بما يفيد بهذا المعنى: (إن الحلقة المتجاذبـة بـين المـصارعين لكـل واحـد مـن المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر. وليس إذا غلب أحدهما فجذبها نحوه تكون قد خلت من قوة جذب الآخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاهـا لمـا احتـاج الآخـر إلى كل ذلك الجـذب)، ويقـول الإمـام فخـر الـدين الـرازي في كتابـه "المباحـث المـشرقية": (الحلقة التي يجذبها جاذبان متساويان حتى وقفت في الوسط لا شك أن كل واحد مـنهما فعل فيها فعلاً معوقاً ًبفعل الآخر). هذه القـوانين الثلاثـة للاسـتقرار والحركـة ورد الفعـل هي القوانين الأساسية التي ترتكز عليها حاليا كل علوم الآلات والأشياء المتحركة.

الكيمياء

في علوم الكيمياء نجد العالم جابر بن حيان الذي تتلمذ على يد الإمام جعفر الصادق. قد عاش بعد النصف الثاني من القرن الثامن م حيث له كتابات كثيرة سواء في المركبات الكيميائية التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت مثل نترات الفضة المتبلورة وحامض الأزوتيك وحامض الكبريتيك (زيت الزاج) ولاحظ ما يرسب من كلوروز الفضة عند إضافة ملح الطعام، أو في وصف العمليات الكيميائية كالتقطير والتبخير والترشيح والتبلور والتذويب والتصعيد والتكليس ونحوها. وفي كتبه بين نظرية تكوين المعادن جيولوجيا وبين المعادن الكبريتية الزئبقية ونسب تكوين ستة منها. وبين كيفية تحضير المواد الكيميائية المختلفة ككربونات الرصاص القاعدي وتحضير الزرنيخ والأنتيمون من أملاح الكبريتيدات. وكيفية تنقية المعادن من الشوائب وتحضير الصلب الذي حضرته أوروبا يعده بحوالي عشرة قرون. وحضر أصباغ الملابس والجلد والطلاء لطلاء الجديد ووقايته من الصدأ ومادة تدهن بها الملابس للوقاية من الماء وأدخل ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج.

وقام بتقطير الخل للحصول على حامض الخليك المركز. وبين أن الجاذبية لاوزن لها. وكان الكيميائيون العرب يحضرون ملح البارود كيميائياً في المعمل ولاسيما وأن أول من اخترع حامض النيتريك هو جابر بن حيان سنة 722 م. أما الرازي (ولد سنة 850 م) فأجرى عليه التجارب وصنع منه الأملاح أثناء محاولته لإذابة الذهب وأطلق على حامض النيتريك الزاج الأخضر. وكان العرب يطلقون على الأملاح المأخوذة من الطبيعة الحجارة والأملاح المحضرة كيميائيا في المعمل المستنبطات. وتحضير الكيماويات المستنبطة لم يكن معروفا من قبل عصري ابن حيان والرازي. حتى الصينيون الذين اكتشفوا ملح البارود كانوا يستعملونه من خامات الأملاح الطبيعية وكان يطلق عليه الملح الصيني. وقام الكيميائيون العرب بتنقية ملحه الخام من الشوائب.

مما جعله يستعمل كقوة دافعة للقذائف لاشتعاله السريع. وهذه الخاصية موجودة في مادة الكبريت. لهذا كانا يخلطان معا. وكان العرب يصنعون بارود المدفع من نترات البوتاسيوم بنسبة 75% والكبريت بنسبة 10% والفحم بنسبة 15%. وكان المدفعي يحشي هذا المسحوق في فوهة المدفع ثم يضع بها القذيفة (كرة من الحجر أو الحديد) ثم يشعل في المسحوق النار. فيشتغل المسحوق بسرعة مكونا غازات لها قوة ضغط عالية فتنطلق بذلك القذيفة للخارج نحو الهدف المراد تدميره. فالعرب أول من صنع بارود المدافع واستعملوه كقوة دافعة تدميرية في الحروب. بينما كان الصينيون يستخدمون الملح الصيني من ملح البارود الخام لخاصية الاشتعال في الألعاب النارية في أعيادهم. وقد نقل العالم بيكون لأوربا تقنية صناعة البارود بعد ثلاثة قرون من استعمال العرب واختراعهم له.

وفي مخطوط عربي يرجع للقرن العاشر الميلادي تجده يصف هذه التقنية قائلا: تؤخذ عشرة دراهم من ملح البارود ودرهمان من الفحم ودرهم ونصف من الكبريت، وتسحق حتى تصبح كالغبار ويملأ منها ثلث المدفع فقط خوفاً من انفجاره ويصنع الخراط من أجل ذلك مدفعاً من خشب تتناسب فتحته مع جسامة فوهته وتدك الذخيرة بشدة ويضاف إليها البندق (الحجارة أو كرات الحديد). ثم يشعل ويكون قياس المدفع مناسباً لثقله وكانت المناجيق تطلق قذائف النيران الحارقة. وكانت القذيفة تتكون من خليط من الكبريت والنفط والحجارة ملفوفة في الكتان، وفي الحروب الصليبية ابتكر المسلمون آلة جديدة أطلقوا عليها الزيار لرمي أعدادا كبيرة من السهام الثقيلة دفعة واحدة. وفي الأسطول العربي في عصر الدولة الأموية كانت الكلاليب التي استعملها المسلمون في ذات الصواري لربط سفنهم بسفن الروم.

وكان الأسطول ألأموي يستخدم النفاطة (مزيج من السوائل الحارقة تطلق من اسطوانة في مقدمة السفينة وتسمى النار الإغريقية وهي خليط من الكبريت والمواد السهلة الاشتعال ومادة الجير الحي التي تتفاعل مع الماء فتنتج الحرارة). وكان صلاح

الدين الأيوبي في حربه ضد الصليبيين قد استخدم القنبرة كسلاح الغازات التخديرية الذي كان الحشاشون الإسماعيليون قد اخترعوه في معقلهم بقلعة آلاموت (وكر النسر) حيث كانوا يحرقون الحشيش (القنب) كبخور فيشمون أتباعهم دخانه فيصابون بحالة من التخدير. فكان قوات صلاح الدين تحرق الحشيش في موضع قريب من جيش العدو بحيث يكون اتجاه الريح نحوه.

فكان تنتابه حالة من التخدير والنعاس. وهذا التكتيك من أسلوب الحرب الكيماوية مكن صلاح الدين من مباغتة الصليبيين وهزيمتهم. وطور المسلمون هذا الأسلوب فصنعوا قنبلة الغازات المخدرة وأطلقوا عليها القنبرة. وكانت تحتوي على مزيج من البنج الأزرق والأفيون والزرنيخ والكبريت فإذا تفاعل الكبريت والزرنيخ تولدت عنه غازات حارقة وخانقة. وكانوا يقذفونها بالمنجنيق على معسكر العدو وهي مشتعلة.

وفي علم السبائك كان صناعة الصلب العربي الذي تصنع منه الأسلحة فقد بلغت هذه الصناعة أوجها في دمشق والقاهرة، وأصبح السيف العربي لا يدانيه سيف، وقد اشتهر السيف الدمشقي شهرة كبيرة من حيث حدة شفرته وعدم قابليته للصدأ أو الاعوجاج وسمي المعدن الذي يصنع منه السيف الدمشقي بالمعدن الأسطوري. وكان المسلمون قد طوروا في أسلحتهم فكانوا يستخدمون الأسلحة الثقيلة كالدبابة والمنجنيق لمهاجمة البيزنطيين.

الفلك

بعد العلم بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع الدين وسنته، اعتبر المسلمون علم الفلك أو كما يسمى أيضا "علم الهيئة" من أشرف العلوم منزلة وأسناها مرتبة وأحسنها حلية وأعلقها بالقلوب وألمعها بالنفوس وأشدها تحديداً للفكر والنظر وتذكية للفهم ورياضة للعقل؛ لما في ذلك من جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان وزيادة الليل والنهار ونقصانها ومواضع

النيرين وكسوفها ومسير الكواكب في استقامتها ورجوعها وتبدل أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها وقد أنشئ المسلمون مرصد فلكي كبير هو مرصد تدمر في الشام ضم أهم علماء الفلك. وقد وجد المسلمون منه في القرآن كثير مما يطول وصفه ويتسع القول بذكره واستشهاده " إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب "و " تبارك الذي جعل في السماء بروجاً" و" هو الذي جعل الليل والقمر نوراً خلفة " و" هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب " و" والقمر بحسبان" يدعوهم إلى إنعام النظر وإدامة الفكر ليثبتوا التوحيد وليعرفوا كنه عظمة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته ولطيف صنعه. لذلك برعوا في هذا العلم فكانت مريم الإسطرلابي أول من اخترعت الإسطرلاب في الفلك. كما ظهرت عبقرية الخوارزمي في الزيج (جدول فلكي) الذي صنعه وأطلق عليه اسم "السند هند الصغير" وقد جمع فيه مذاهب القدامى في الفلك. وصار لهذا الزيج أثر كبير في الشرق والغرب. وكان علماء المسلمين يصدرون كتاباً دورياً باسم المناخ، وهي موسوعات تنبؤية حولية أو فصلية تبين أحوال الجو في كل عام، ومواسم الزراعة للنباتات والطقس والمطر حسب التوقعات الفلكية. مما كان يساعد الزراع والمسافرين على التعرف على الأرصاد الجوية. وقد نقلت أوروبا فكرته. وحاليا ما زالت الموسوعة السنوية من المناخ (Al manac) تصدر سنويا في معظم بلدان العالم.

الزراعة

وفي الدول الإسلامية اتبعوا تقنيات الميكنة الزراعية المتوارثة كالمحراث والساقية والشادوف والنورج. وكان الأندلسيون يسخرون الرياح في إدارة الطواحين ورفع المياه بالسواقي. وأخذت أوروبا عنهم هذه التقنية وغيرها من الأندلس أيام العصر ألأموي. وهذه التقنية أخذها الغرب عن العرب إبان الدولة الأموية، وقد اشتهرت الطواحين في مدينة حماة وهي نواعير حماة الذي لايوجد لها مثيل في العالم حتى اليوم

وهو نظام رفع المياة من النهر عبر قنوات منصوبة فوق قناطر لري البساتين والمناطق على جانبي النهر وقد نقل الغرب طريقة هذه السواقي أو النواعير لكن بأحجام اصغر بكثير من الموجودة في حماة، وفي بغداد كانت تدار طواحين بالميله أو الهواء لرفع المياه وإدارة مصنع الورق هناك. وكانت طواحين الهواء ورفع المياه تدار بتروس معشقة وعجلات ضخمة متداخلة. لنظرية الأنابيب المستطرقة في توصيل المياه في شبكة من المواسير إلى البيوت،، وقد عرفت دمشق في بناء النوافير داخل المنازل وكانت سباقة في ذلك، وقد أبدع المسلمون في استغلال علم الحيل في صناعة السلاح. فطوروا المنجنيق والدبابات الخشبية وكانوا أول من صنع المدافع والبندقية ومضخة المكبس التي اخترعها بديع الزمان الرزاز الجزري (ت سنة 1184م). ومضخة، الجزري عبارة عن آلة من المعدن تدار بقوة الريح أو بواسطة حيوان يدور بحركة دائرية، وكان الهدف منها أن ترفع المياه من الآبار. العميقة إلى اسطح الأرض، وكذلك كانت تستعمل في رفع المياه من منسوب النهر إذا كان منخفضاً إلى الأماكن العليا مثل وقد جاء في المراجع أنها تستطيع ضخ الماء إلى أن يبلغ ثلاثة وثلاثين قدماً، أي حوالي عشرة أمتار وهو ما يعادل ارتفاع مبنى يتألف من ثلاثة أو أربعة طوابق، وتنصب المضخة فوق سطح الماء مباشرة بحيث يكون عمود الشفط مغموراً فيه، وهي تتكون من ماسورتين متقابلتين في كل منهما ذراع يحمل مكبساً اسطوانياً، فإذا كانت إحدى الماسورتين في حالة كبس (اليسرى) فإن الثانية تكون في حالة شفط، ولتأمين هذه الحركة المتقابلة المضادة في نفس الوقت يوجد قرص دائري مسنن قد ثبت فيه كل من الذراعين بعيداً عن المركز، ويدار هذا القرص بوساطة تروس متصلة بعامود الحركة المركزي وهناك ثلاثة صمامات على كل مضخة تسمح باتجاه المياه من أسفل إلى أعلى ولا تسمح بعودتها في الطريق العكسي. هذا التصميم العبقري لم يكن معروفاً لدى الرومان والاغريق، ولا يزال مبدأ مضخة المكبس مستعملاً حتى الوقت الحاضر في جميع مضخات المكبس التي تعمل باليد لرفع المياه. وهي منتشرة في كثير من القرى في العالم

أجمع. وهذه المضخة هي الفكرة الرئيسية التي بنيت عليها جميع المضخات المتطورة في عصرنا الحاضر والمحركات الآليه كلها ابتداء من المحرك البخاري الذي في القطار أو البواخر إلى محرك الاحتراق الداخلي الذي يعمل بالبنزين كما في السيارة والطائرة، والفكرة الرائدة التي أدخلها الجزري هي استعماله مكبسين واسطوانتين يعملان بشكل متقابل وبصورة متوازية، ثم نقل الحركة الناتجة وتحويلها من حركة خطية إلى حركة دائرية بواسطة نظام يعتمد استعماله التروس المسننة وهو ما يطبق حالياً في جميع المحركات العصرية.

دور وتأثير العجم

كما ذكر ابن خلدون، مؤرخ القرن الرابع عشر وعالم الاجتماع العربي، أنها لحقيقة جديرة بالملاحظة بأن معظم العلماء المسلمين في العلوم الفكرية كانوا من العجم غير العرب

"...فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة إلى التعليم فاندرجت في جملة الصنائع وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم أو من هم في معناهم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وإنما ربوا في اللسان العربي ...... واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها إلا المعربون من العجم شأن الضائع كما قلناه أولا فلم يزل ذلك في الأمصار ما دامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما خربت تلك الأمصار وذهب منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم

والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة...» (مقدمة ابن خلدون, صفحة 544-545.

ونستطيع ان نقول بان اغلب الإسهامات الفكرية قد تمت على أيدي المسلمين من غير العرب وبكافة الاختصاصات في الطب والهندسه والرياضيات والكيمياء بالاضافة إلى الجهود الكبيرة التي قام فيها المترجمون المسلمون من غير العرب من خلال تاسيس دار الحكمة وتمت ترجمة الكثير من علوم اليونان في الهندسة والفلسفة وسواها

دور المسيحيين

ساهم المسيحيون خصوصًا من النساطرة أتباع كنيسة المشرق في الحضارة العربية الإسلامية خلال فترة خلافة الأمويون والعباسيون عن طريق ترجمة أعمال الفلاسفة اليونانيين إلى اللغة السريانية وبعد ذلك إلى اللغة العربية. وقد برع منهم في الفلسفة، العلوم (منهم حنين بن إسحاق، وقسطا بن لوقا، ويوحنا بن ماسويه، وسعيد بن البطريق وجبريل بن بختيشوع). وقد خدمت الأسرة السريانية بختيشوع كأطباء للخلفاء العباسين.

الفصل السابع

التأثير الإسلامي على أوروبا خلال العصور الوسطى

كانـت مـساهمات المـسلمين في أوروبـا العـصور الوسـطى متعـددة، وأثـرت عـلى مجـالات مختلفـة كـالفن والعـمارة والطـب والـصيدلة والزراعـة والموسـيقى واللغـة والتكنولوجيا. من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالـث عـشر، نهلـت أوروبـا المعرفـة مـن الحضارة الإسلامية، عن طريق نقل الكلاسـيكيات وبـالأخص أعـمال الفيلـسوف الأغريقـي أرسطو، بعد ترجمتها من العربية.

الطرق التي انتقلت من خلالها المعرفة

كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الذي كتبه الإدريسي للملك روجر الثاني ملك صقلية عام 1154، والذي يعد أحد أقدم كتب الخرائط.

كانت نقاط التواصل بين أوروبا والأراضي الإسلامية متعددة، فقد انتقلـت المعـارف الإسلامية بكثافة إلى أوروبا عن طريق صقلية والأنـدلس، وبـالأخص في طليطلـة (عـلى يـد جيراردو الكريموني بعد أن استولى الإسبان المسيحيون على المدينة عام 1085). وفي صقلية، بعد ضم المسلمون الجزيرة عام 965، واستعادها النورمان مرة أخرى عـام 1091، تولّـدت ثقافة نورمانية عربية، التي رعاها حكام أمثال روجر الثاني ملك صـقلية، الـذي كـان لديـه جنود وشعراء وعلماء مسلمين في بلاطه. ويعد كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي كتبه العالم الجغرافي الإدريسي للملك روجر أحد أعظم المخطوطات الجغرافيـة في العـصور الوسطى

كان للحملات الصليبية أيضًا دورها في تبادل المعرفة بـين أوروبـا وبـلاد الـشام، وبالأخص الجمهوريات البحرية التـي لعبـت دورهـا في هـذا التبـادل، حتـى أن مـدنًا كأنطاكية اختلطت فيها الثقافتين العربية واللاتينية بشدة خلال القرنين الحادي عـشر والثاني عشر، رحل العديد من المـسيحيين إلى الأراضي الإسـلامية لطلـب العلـم، أمثـال

ليوناردو فيبوناتشي وأديلارد أوف باث وقسطنطين الإفريقي. أيضًا خلال القرون الحادي عشر إلى الرابع عشر، درسالعديد من الطلبة الأوروبيين في مراكز العلم الإسلامية لدراسة الطب والفلسفة والرياضيات والعلوم الأخرى.

بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وبداية العصور الوسطى، لم تكن العديد من النصوص القديمة متاحة للأوروبيين. كان الوضع على العكس تمامًا في الشرق، ترجمت العديد من النصوص الإغريقية (كأعمال أرسطو) من اليونانية إلى السريانية في القرنين السادس والسابع على أيدي الرهبان النسطوريين والملكانيين واليعاقبة الذين سكنوا فلسطين، أو المنفيين من أثينا أو الرها. العديد من تلك النصوص حفظت وترجمت وتطورت في العالم الإسلامي، وخاصة في مراكز العلم كبغداد التي كان بها "بيت الحكمة"، الذي ضم الآلاف من المخطوطات بحلول عام 832. تُرجمت تلك النصوص مرة أخرى إلى اللغات الأوروبية في العصور الوسطى. كما لعب المسيحيون الشرقيون دورًا هامًا نقل تلك المعرفة إذ نشطوا في الترجمة من اليونانية إلى السريانية ومن ثم للعربية وخاصًة في عهد الدولة العباسية حيث كان معظم المترجمين في بيت الحكمة من اليعاقبة والنساطرة وعملوا بشكل خاص في حقول الطب والرياضيات والفيزياء والفلك فاعتمد عليهم الخلفاء

ثم ترجمت تلك النصوص ثانيةً إلى اللاتينية من خلال طرق مختلفة. كانت أهم مراكز نقل العلوم الإسلامية إلى أوروبا في صقلية وطليطلة. كما اكتشف بورغونديو البيزي في أنطاكيا نصوصًا مفقودة لأرسطو وترجمها للغة اللاتينية.

العلوم الإسلامية

ساهم العالم الإسلامي بمساهمات عظيمة الجبر والخيمياء والكيمياء والجيولوجيا حساب المثلثات الكروي، وغيرها، ومنه انتقلت إلى الغرب. ترجم ستيفن البيزي عام 1127، كتيبًا عربيًا حول النظرية الطبية إلى اللاتينية. طوّر الخوارزمي (من اسمه اشتقت كلمة "خوارزمية") طريقة لأداء العمليات الحسابية باستخدام الأرقام

العربية في القرن التاسع، والتي نقلها ليوناردو فيبوناتشي إلى أوروبا. كما ترجم روبرت من شيستر كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي نحو عام 1145.

كانت لابن الهيثم مؤلفات في علم البصريات، اعتمد عليها إسحاق نيوتن ورينيه ديكارت كمصادر في أبحاثهم. وكانت أيضًا العلوم الطبية متطورة للغاية عند المسلمين، بشهادة المشاركون في الحملات الصليبية، الذين اعتمدوا على الأطباء العرب في أكثر من مناسبة، كما ذكر جان دي جوانفيل أنه تم إنقاذه على يد طبيب مسلم عام 1250.

اهتم الأوروبيون بالفلسفة الإغريقية والنصوص العلمية (وبالأخص المجسطي) التي لم تكن متواجده باللاتينية في غرب أوروبا، ولكنها حفظت وترجمت إلى العربية في العالم الإسلامي. ويقال أن جيراردو الكريموني رحل إلى طليطلة وتعلم العربية "لحبه للمجسطي"، وهناك استغل "وفرة الكتب بالعربية في كل المواضيع".كانت الأندلس وجنوب إيطاليا أكثر المناطق انتاجًا في نقل العلوم، نظرًا للتقارب بين العلماء متعددي اللغات. ترجم هؤلاء العلماء العديد من النصوص العلمية والفلسفية من العربية إلى اللاتينية.

ترجم جيراردو الكريموني وحده 87 كتابًا من العربية للاتينية، منها المجسطي، وكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي، وكتاب الهيئة في إصلاح المجسطي لجابر بن أفلحوالبصريات للكندي وكتاب جوامع علم النجوم والحركات السماوية للفرغاني وتصنيف العلوم للفارابي وأعمال الخيمياء والكيمياء والطب والصيدلة للرازي وأعمال ثابت بن قرة وحنين بن إسحاق، والزرقالي وبني موسى وشجاع بن أسلم والزهراوي وابن الهيثم بما فيها كتاب المناظر.

اعتمد علم الكيمياء الغربي تمامًا على المصادر العربية. فقد كانت الترجمات اللاتينية لأعمال جابر بن حيان في الخيمياء المرجع الأساسي لعلماء الكيمياء

الأوروبيين. إلا أنه ما زال الإسناد الدقيق لهذه الأعمال إلى مؤلفيها مثار بعض الجدل، فبعضها دون شك ترجمات من العربية لأعمال لجابر بن حيان ومنها كتاب الكيمياء (الذي ترجم في أوروبا بعنوان كتاب تراكيب الكيمياء (بالإنجليزية Book of the : Composition of Alchemy) ، الذي ترجمه روبرت من شيستر عام 1144، وكتاب الرسائل السبعين الذي ترجمه جيراردو الكريموني (قبل عام 1187). وبغض النظر عن من كتب تلك الكتب، فأنها بلا شك كانت ذات تأثير عظيم على علم الكيمياء في أوروبا العصور الوسطى.[18] كما ترجمت الأعمال الكيميائية للرازي إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر تقريبًا.

وترجع أصول العديد من الكلمات التقنية الكيميائية إلى كلمات عربية مثل alkali قلوي، والتي انتقلت إلى العديد من اللغات الأوروبية وأصبحت جزءً من المصطلحات العلمية.

الفلك والرياضيات

كان لترجمة أعمال الخوارزمي أكبر الأثر على علم الرياضيات في أوروبا. كتب الأستاذ الجامعي فيكتور كاتز قائلاً: "معظم الأعمال الأولى في الجبر في أوروبا، اعتمدت في الأساس على الترجمات لأعمال الخوارزمي والعلماء المسلمين الآخرين. كما أنه كان هناك إقرار بأن معظم علمي حساب المثلثات المستوي والكروي ينسبان إلى العلماء المسلمين".

كما أن كلمة "algorithm" خوارزمية، مشتقة من الترجمة اللاتينية لاسم الخوارزمي"Algorismi" ، وأيضًا كلمة "algebra" جبر مشتقة من عنوان كتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة، لذا فهما يصنفان ككلمات إنجليزية من أصل عربي. كما ترجمت الأعمال الفلكية والرياضياتية العربية

ترجم أيضًا كتاب الزيج السانجاري للخازني إلى اليونانية على يد غريغوري شونيادس في القرن الثالث عشر، وكان يدرّس في الإمبراطورية البيزنطية. قادت

التعديلات الفلكية التي أدخلها البتاني وابن رشد على نموذج مركز الأرض إلى النماذج غير البطلمية التي صنعها مؤيد الدين أوردي ونصير الدين الطوسي وابن الشاطر، والتي طوّرت بعد ذلك إلى نموذج كوبرنيكوس [بالإنجليزية]. كما ترجمت كتب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة والقانون المسعودي للبيروني إلى اللاتينية تحت اسم Indica و Canon Mas'udicusعلى الترتيب. وفي عام 1202، نقل ليوناردو فيبوناتشي نظام العد الهندي العربي بالأرقام العربية إلى أوروبا في كتابه.Liber Abaci

كان لكتاب "القسي المجهولة في الكرة" لابن معاذ الجياني (وهو مخطوط في علم حساب المثاثات الكروي) أثره البالغ على علم الرياضيات في أوروبا،[23] وقد ذكر جيرولامو كاردانو في القرن السادس عشر، أن ريجيمونتانوس اعتمد في كتابه On Trianglesعلى المراجع العربية، وبالأخص أعمال جابر بن أفلح.

كما كانت أعمال فولبرت من شارتر، أقدم الدلائل على استخدام كلمات عربية مستعارة في النصوص وكانت ترجمة كتاب القانون في الطب لابن سينا أحد أعظم أعمال الترجمة لكتب طبية، والذي ترجم إلى اللاتينية، ثم طبع وانتشر في أوروبا. ظل هذا الكتاب المرجع الأساسي في الطب في أوروبا، حتى بداية العصر الحديث، وخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر وحدهما، طبع الكتاب أكثر من 35 مرة.

لاحظ ابن سينا ظاهرة نقل العدوى لبعض الأمراض المعدية التي تنتقل عبر الهواء من قبل شخص مريض، وشرح كيفية اختبار بعض الأمراض الجديدة حينها. وقد كتب ابن سينا أيضًا كتاب الشفاء، والذي كان بمثابة موسوعة عامة في العلوم والفلسفة، وقد حظي هذا الكتاب أيضًا بشعبية في أوروبا. كتب أبو بكر الرازي كتاب الحاوي في الطب، والذي وصف فيه بعناية بل وميّز بين مرضي الحصبة والجدري، وقد كان لهذا الكتاب أيضًا أثره في أوروبا. كما كتب الزهراوي كتاب التصريف لمن

عجز عن التأليف، وهو موسوعة طبية اشتهرت بسبب قسم الجراحة بها. تضمن هذا الكتاب وصف ورسوم لأكثر من مائتي جهاز جراحي، العديد منها من اختراع الزهراوي نفسه. وقد ترجم جيراردو الكريموني جزء الجراحة في الكتاب إلى اللاتينية، واستخدم من حينها في كليات الطب الأوروبية لقرون، وظلوا يصدرون منه الطبعات حتى نحو عام 1770.

وكان كتاب المناظر لابن الهيثم من أهم الأعمال الفيزيائية التي ترجمت، لما كان لهذا الكتاب من أقدمية في إجراء التجارب المبنية على منهج علمي، وفيه وضع نظرية في الرؤية والضوء فنّدت نظرية كلاوديوس بطليموس (تفترض نظرية بطليموس بأن الضوء ينبعث من العين، بينما أصر ابن الهيثم بأن أشعة الضوء هي التي تدخل العين)، والتي تعد أهم حدث علمي في هذا المجال حتى عصر يوهانس كيبلر.

لذا، فيعد كتاب المناظر نقطة انطلاق مهمة في تاريخ المنهج العلمي وتاريخ علم البصريات.

أثرت الترجمات اللاتينية لكتاب المناظر في الكثير من أعمال العلماء الأوروبيين اللاحقين، ومنهم روجر باكون ويوهانس كيبلر.

كما أثر الكتاب في جوانب أخرى في الثقافة الأوروبية. ففي الدين، على سبيل المثال، فقد أشار جون ويكليف الرائد في الفكر الإصلاحي البروتستانتي إلى ابن الهيثم في مناقشة السبع خطايا المميتة عندما شبهها بالتشوهات التي ترى في أنواع المرايا السبع في كتاب De aspectibus. وفي الأدب، أشاد جيوم دي لوريه بكتاب المناظر في روايته Roman de la Roseوفي الفن، وضع كتاب المناظر أسس تقنيات الرسم المنظوري، وربما أثر في استخدام العوامل المساعدة البصرية في فن عصر النهضة.

استخدمت نفس التقنيات في الخرائط الجغرافية التي رسمها رسامي الخرائط أمثال باولو توسكانيللي خلال عصر الاستكشاف.

ربما أثرت نظرية الحركة التي طورها ابن سينا من الفيزياء الأرسطية نظرية قوة الدفع لجان بوريدان (التي سبقت مفاهيم العطالة وزخم الحركة).

أيضًا أعمال جاليليو جاليلي في الميكانيكا الكلاسيكية (والتي أبطلت الفيزياء الأرسطية) تأثرت بكتابات الفيزيائيين المسلمين كابن باجة.

ترجمت أعمال إسلامية أخرى إلى اللاتينية خلال العصور الوسطى ومنها أعمال أبو بكر الرازي وابن سينا (ومنها كتاب الشفاء والقانون في الطب)، وأعمال ابن رشد[29] وكتاب حركة الكواكب للبطروجي وموسوعة ابن المجوسي الطبية كامل الصناعة الطبية الضرورية وكتاب المدخل الكبير إلى علم أحكام النجوم لأبي معشر البلخي وكتاب الوصايا بالجبر والمقابلة لأبي كامل شجاع بن أسلم وكتاب خصائص العناصر باللاتينية (De Proprietatibus Elementorum) :وهو عمل جيولوجي عربي نسب عن طريق الخطأ إلى الفيلسوف الإغريقي أرسطو. ومع بداية القرن الثالث عشر، ترجم مارك الطليطلي القرآن والعديد من الأعمال .

اعتاد الغرب في العصور الوسطى وعصر النهضة محاكاة الزخارف بالخط الكوفي العربي لإنتاج ما عرف باسم شبيه الكوفي: "كان يوصف الفن الأوروبي الذي يقلد نظيره العربي بشبيه الكوفي. نقل هذا الفن عن الخط العربي خطوطه المستقيمة والمائلة، والتي كانت شائعة الإستخدام في الزخارف المعمارية الإسلامية".

انتشر هذا الفن الأوروبي في الفترة من القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر، بل وكان ينسخ عادة على حالته دون فهم ما يعنيه النص، لزخرفة المنسوجات أو الإطارات أو الهالات الدينية. ويظهر استخدام هذا النمط من الزخارف بجلاء في رسوم جوتو دي بوندوني. السبب الحقيقي وراء استخدام زخارف النمط شبيه

الكوفي في لوحات عصر النهضة غير معروف. لكن يبدو أن الغربيين نقلوا زخارف القرنين الثالث عشر والرابع عشر عن طريق الخطأ ظنًا منهم أنها الزخارف التي كانت شائعة في زمن المسيح: "في فن عصر النهضة، استخدم نمط الزخارف شبيهة الكوفية لتزيين ملابس أبطال العهد القديم كديفيد".

الفصل الثامن

بدايات عصر النهضة

عصر النهضة (إيطاليةRinascimento)هو عبارة عن حركة ثقافية استمرت تقريبا من القرن الرابع عشر الميلادي إلى القرن السابع عشر. وكانت بدايتها في أواخر العصور الوسطى من إيطاليا ثم أخذت في الانتشار إلى بقية أوروبا. على الرغم من توافر الورق واختراع حروف المونوتيب التي ساهمت في سرعة انتشار الأفكار أواخر القرن الخامس عشر، إلا أن تغييرات عصر النهضة لم تنتشر بشكل موحد في جميع أنحاء أوروبا. شهد عصر النهضة بوصفه حركة ثقافية ازدهاراً في الأدب باللغات المحلية وابداعا في الأدب اللاتيني بدءاً من القرن الرابع عشر، ونهضةً في التعلم المعتمد على المصادر الكلاسيكية، والتي يعزو المعاصرون فضلها إلى بيترارك، وتطور الرسم المنظور والتقنيات الأخرى لجعل الرسم أكثر واقعية وطبيعية، والإصلاح التعليمي الذي كان متدرجاً لكن على نحو منتشر. سياسياً، ساهم ظهور عصر النهضة في تعدد المعاهدات الدبلوماسية بين الدول. أما في مجال العلوم فكان التحول إلى الاعتماد على الملاحظة. يرى المؤرخون أن هذا الانتقال الفكري كان جسراً بين العصور الوسطى والعصر الحديث. ورغم أن عصر النهضة شهد انقلابات في العديد من الممارسات الفكرية واضطرابات سياسية واجتماعية كذلك، إلا أنه امتاز بالتطورات الفنية واسهامات المثقفين مثل ليوناردو دا فينشي ومايكل آنجلو، الذي ابتكر عبارة رجل عصر النهضة.

هناك إجماع على أن عصر النهضة بدأ في فلورنسا بإيطاليا في القرن الرابع عشر.

أُقترحت العديد من النظريات التي تفسر أصوله وخصائصه، مع التركيز على عدد من العوامل بما فيها الخصائص الاجتماعية والمدنية لمدينة فلورنسا في ذلك الوقت

وتركيبتها السياسية وسيطرة عائلة ميديشي الفلورنسية ذات النفـوذ، وهجـرة البـاحثين في الدراسات اليونانية ومعهم النصوص اليونانية إلى إيطاليا بعد سقوط القـسطنطينية عـلى يد الأتراك العثمانيين.

لعـصر النهـضة تـأريخ طويـل ومعقـد، وبالإضـافة إلى نزعـة الـشك الـشائعة لـدى المؤرخين حول تقسيم التاريخ إلى عصور منفصلة وواضحة، فقد دار بينهم أيـضاالكثير مـن النقاش حول تمجيد القرن التاسع عشر لعصر النهـضة وأبطـال الثقافـة الفرديـة المعـروفين برجال عصر النهضة، والتساؤل عن فائدة عصر النهضة كمصطلح وكتصوير تاريخي.

لاحظ مؤرخ الفن اروين بانوفسكاي هذه المقاومة تجاه مفهوم عصر النهضة:

ربما ليست مصادفةً أن حقيقة عصر النهضة الإيطالية كان مشكوكاً بها بـشدة مـن الذين لم يكونوا ملـزمين بـالاهتمام مهنيـاً بـالنواحي الجماليـة للحـضارة- مـؤرخي التطـور الاجتماعي والاقتصادي، والأوضاع الدينية والـسياسية، وخـصوصاً العلـوم الطبيعيـة- لكـن على نحو استثنائي من طلاب الأدب وعلى نحو غير محتمل أبداً من مؤرخي الفن.

يتساءل البعض عـمّا إذا كـان عـصر النهـضة يـشكل "تقـدماً" ثقافيـاً عـن العـصور الوسطى، بدلاً من اعتباره فترة من التشاؤم والتوق إلى الماضي لجميع العصور الكلاسيكية, بينما يركز المؤرخون الاجتماعيون والاقتصاديون -المتأثرون باتجاه "الأمد الطويل"- بـشكل خاص على الاستمرارية بين العصرين والتي "مربوطةً بألف رابط" كما لاحـظ بانوفـسكاي. كلمة النهضة امتدت أيضا إلى الحركات التاريخية والثقافية، مثل عصر النهضة الكارولنجية وعصر النهضة في القرن الثاني عشر.

عصر النهضة

عصر النهضة كان حركة ثقافية أثرت بعمق على الحياة الفكرية الأوروبية في الفترة الحديثـة المبكـرة. بـدأ في إيطاليـا، وينتـشر إلى بقيـة أوروبـا مـن القـرن الـسادس عـشر،

وشُعر بنفوذها في الفلسفة والأدب والفن والموسيقى والسياسة والعلوم والدين، وغير ذلك من جوانب التساؤلات الفكرية. علماء عصر النهضة استخدموا الأسلوب الإنساني في الدراسة، وبحثوا عن الواقعية والمشاعر الإنسانية في الفن بحث إنسانيو عصر النهضة مثل بوجيو براشيوليني في المكتبات الرهبانية الأوروبية عن الأدب اللاتيني، والنصوص التاريخية والخطابية للعصور القديمة حيث ولّد سقوط القسطنطينية (عام 1453) موجات لجوء للعلماء اليونانيين جالبين معهم مخطوطات باليونانية القديمة، سقط الكثير منها في المجهول في الغرب. كان في تركيز علماء عصر النهضة الأدب والنصوص التاريخية والذي اختلف كثيراً عن علماء القرون الوسطى في عصر نهضة القرن الثاني عشر، والذين كانوا يركزون على دراسة الجهود اليونانية والعربية في العلوم الطبيعية والفلسفة والرياضيات بدلاً من النصوص الثقافية. أصحاب المذهب الإنساني في عصر النهضة لم يرفضوا الدين المسيحي عند إحياء الأفلاطونية الجديدة، بل على العكس من ذلك، خصصت العديد من أعمال عصر النهضة للدين المسيحي، وقد قامت الكنيسة برعاية العديد من الأعمال الفنية من عصر النهضة. على الرغم من ذلك، حدث هناك تغير دقيق في الطريقة التي اقترب بها المثقفين إلى الدين مما انعكس ذلك على المجالات المختلفة في الحياة الثقافية. وبالإضافة إلى ذلك، العديد من الأعمال اليونانية المسيحية، بما في ذلك العهد اليوناني الجديد، أعيدت من بيزنطة إلى أوروبا الغربية وقد اشترك فيها علماء الغرب وللمرة الاولى منذ أواخر العصور القديمة. وقد تسبب هذا الانشغال الجديد بالأعمال المسيحية المكتوبة باليونانية (وبالذات العودة إلى النسخة اليونانية من العهد الجديد والذي روج له الإنسانيان لورينزو فالا ودسيدريوس إراسموس) إلى تمهيد الطريق لحركة الإصلاح البروتستانتية.

بعد عودة الفنون إلى الكلاسيكية بفترة طويلة كما في أعمال النحات نيكولا بيسانو، سعى رساموا فلورنسا بقيادة مازاتشو إلى إظهار شكل الإنسان بطريقة واقعية،

وطوروا لذلك أساليب لتقديم الضوء والمنظور بشكل يبدو أكثر طبيعية. سعى الفلاسفة السياسيون، وأشهرهم نيكولو مكيافيلي، لوصف الحياة السياسية كما كانت حقا، لفهمها بعقلانية. في 1486، ساهم النص الشهير للفيلسوف بيكو ديلا ميراندولا والمعنون بـ ("De hominis dignitate" خطاب في كرامة الإنسان) بدور مؤثر في النزعة الإنسانية في عصر النهضة الإيطالي. احتوى النص على سلسلة من الأطروحات المعتمدة على المنطق حول الفلسفة والفكر الطبيعي والإيمان والسحر. بالإضافة إلى دراسة اللغات اللاتينية واليونانية التقليدية، بدأ مؤلفوا عصر النهضة باستخدام اللغة العامية. هذا التحول بالإضافة إلى بداية انتشار الطباعة ساعد على انتشار القراءة بين الناس، خاصة قراءة الإنجيل بالمجمل، يمكن أن ننظر إلى عصر النهضة على أنه محاولة من قبل المفكرين لدراسة وتطوير الجانب العلماني والدنيوي، من خلال إحياء بعض الأفكار القديمة بالإضافة إلى إيجاد مناهج فكرية جديدة ومبتكرة. بعض العلماء مثل رودني ستارك، ينتقصون من عصر النهضة لصالح الابتكارات السابقة للدول-المدن الإيطالية في أوج العصور الوسطى، والتي ارتبطت بتجاوب الحكومة والمسيحية وولادة الرأسمالية. وجهة النظر هذه ترى أنه في نفس الوقت الذي كانت فيه دول أوروبية عظمى (فرنسا وإسبانيا) ملكيات مطلقة، ودول أخرى تحت سيطرة مباشرة من الكنيسة، كانت الجمهوريات الإيطالية المستقلة تعمل على تطبيق مبادئ الرأسمالية التي ابتكرتها العقارات الرهبانية وفجرت بذلك ثورة تجارية واسعة وغير مسبوقة سبقت عصر النهضة وقامت بتمويله.

الأصول

فلورنسا مركز النهضة

يرى كثيرون أن الأفكار التي امتاز بها عصر النهضة كان لها أصول في فلورنسا في القرن الثالث عشر، خاصة في كتابات دانتي أليغييري (1265-1321) وفرانشيسكو بتراركا (1304-1374) وجوتو دي بوندوني (1267-1337).[19] حاول بعض الكتاب أن يحدد بداية عصر النهضة بشكل دقيق حيث اقترح أحدهم أن نقطة البداية كانت في عام 1401 عندما تنافس العبقري لورنزو جبرتي مع خصمه فيليبو برونليسكي للفوز بعقد بناء الأبواب البرونزية لبيت المعمورية الخاص بكاتدرائية فلورنسا (وقد فاز جبرتي).

بينما يرى آخرون منافسة أكثر عمومية بين الفنانين والمثقفين مثل برونليسكي، وجبرتي، ودوناتيلو ومازاتشو لأجل الفوز بالمشاريع الفنية والتي أثارت الإبداع في عصر النهضة. ومع ذلك لا يزال محل جدل كبير لماذا بدأ عصر النهضة بشكل عام، ولماذا في إيطاليا تحديداً. وفقا لذلك، طرحت العديد من النظريات لتفسر أصولها.

خلال عصر النهضة، ذهب المال والفن جنبًا إلى جنب. الفنانون يعتمدون كليا على الرعاة بينما الرعاة يحتاجون إلى المال لدعم العباقرة. الثروات تدفقت إلى إيطاليا خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر من خلال التبادل التجاري في قارة آسيا وأوروبا، حيث أن تعدين الفضة في تيرول قد زاد من تدفق المال، بالإضافة إلى أن معدات الرفاهية المجلوبة من العالم الشرقي خلال الحروب الصليبية قد ساهمت في زيادة ازدهار جنوة والبندقية.

ميشيليت عرّف عصر النهضة في فرنسا خلال القرن السادس عشر بالفترة في تاريخ الحضارة الأوروبية التي مثلت الفاصل بعد القرون الوسطى حيث خلقت فهماً متطوراً للإنسانية ومكانتها في العالم.

وفي تناقض شديد مع العصور الوسطى، عندما كان الباحثون اللاتينيون يُركزون بشكل كامل على دراسة أعمال العلوم الطبيعية والفلسفة والرياضيات عند العرب واليونانيين كان الباحثون في عصر النهضة مهتمين في دراسة واستعادة النصوص الأدبية والتاريخية والخطابية لدى اللاتينين واليونانيين. بشكل عام، بدأ ذلك بمرحلة لاتينية في القرن الرابع عشر، وذلك عندما قام علماء من عصر النهضة مثل بترارك وكولوتشو سالوتاتي (1331-1406) ونيكولو دي نيكولي (1364-1437) وبوجيو براشيوليني (1380-1459) بتمشيط مكتبات أوروبا بحثا عن أعمال مؤلفين لاتينيين أمثال شيشرون وتيتوس ليفيوس وسينيكا.

في أوائل القرن الخامس عشر، تم استعادة الجزء الأكبر من الأدب اللاتيني، وفي المرحلة اليونانية من عصر النهضة كانت الحركة الإنسانية هي القائمة، كما رجع العلماء في أوروبا الغربية إلى استعادة النصوص اليونانية الأدبية والتاريخية والخطابية واللاهوتية القديمة على العكس من الكتب اللاتينية التي حافظت على أصالتها ودُرست كما هي في الغرب الأوربي منذ القدم، إلا أن دراسة الكتب الإغريقية كانت محدودة جداً في العصور الوسطى في أوروبا. فقد تمت دراسة الأعمال الإغريقية القديمة في العلوم والرياضيات والفلسفة منذ أوج العصور الوسطى في غرب أوروبا والعالم الإسلامي (عادة بالترجمة)، ولكن الأداب الإغريقية والأعمال الخطابية والتاريخية (مثل هوميروس والدراميين الإغريقيين ديموستيني وثوسيديديس وما إلى ذلك) لم يخضعوا للدراسة لا في العالم اللاتيني ولا القرون الوسطى الإسلامية وإنما تمت دراسة هذه النصوص آنذاك عن طريق الباحثين البيزنطيين. من أكبر انجازات علماء عصر النهضة هو جلب الإنتاج الثقافي الإغريقي كاملا إلى غرب أوروبا للمرة الأولى منذ العصور القديمة. ويُرجع البعض تاريخ حركة إعادة دمج النصوص اليونانية الأدبية والتاريخية والخطابية واللاهوتية في مناهج أوروبا الغربية إلى دعوة كولوتشو سالوتاتي للدبلوماسي والعالم البيزنطي مانويل كرايسالريس (حوالي

1355-1415) لتدريس اليونانية في فلورنسا حدت الأوضاع السياسية في إيطاليا في القـرون الوسطى المتأخرة البعض إلى إطلاق نظرية مفادها: أن المناخ الاجتماعي غير العادي سـمح بظهور حالات ثقافية نـادرة. إيطاليـا لم تكـن موجـودة ككيـان سـياسي في الفـترة الحديثـة المبكرة، بل كانت مقسمة إلى دويـلات ومقاطعـات صـغيرة: مملكـة نـابولي تـسيطر عـلى الجنوب، وجمهوريـة فلورنـسا والدولـة البابويـة في الوسـط، وميلانـو وجنـوة إلى الـشمال والغرب على التوالي، والبندقية إلى الشرق. كانت إيطاليا في القرن الخامس عشر واحدة من أكثر المناطق تحضراً في أوروبا. وكانت العديد من مدنها تقع بين أنقـاض المبـاني الرومانيـة القديمة، بل يبدو من المرجح أن ترتبط طبيعـة الكلاسـيكية في عـصر النهـضة بجـذورها في قلب الإمبراطورية الرومانية.

يـشير المـؤرخ والفيلـسوف الـسياسي كـونتن سـكينر إلى أن الأسـقف الألمـاني أوتـو فـون فرايسينج (حوالي 1114-1158) الذي زار شمال إيطاليا خـلال القـرن الثـاني عـشر لاحـظ وجـود شكل جديد ومنتشر من التنظيم السياسي والاجتماعي، مشيراً إلى أن إيطاليا على ما يبدو تركـت الإقطاعية وأصبح مجتمعها مبنياً على التجارة .(merchants and commerce) وارتـبط بهـذا أفكار معادية للملكية، متمثلة في الرسمة الجصيّة الشهيرة في أوائل عـصر النهـضة حكايـة الحكومة الجيدة والحكومة السيئة في سيينا التي رسـمها أمبروجيـو لـورنزيتي (رسـمت في 1338-1340)، وكانـت تحمـل رسـائل قويـة حـول فـضائل العـدل والعدالـة والجمهوريـة والإدارة الجيدة. استطاعت جمهوريات المدن الإيطالية تكريس مفـاهيم الحريـة في نفـس الوقت الذي كانت تكبح فيه جماح الامبراطورية والكنيسة. يروي سكينر أن هناك العديـد من حماة الحرية الفردية مثل احتفال ماتيو بالميري (1406-1475) بعبقرية فلورنسا لـيس فقط في النحت والفن والعمارة، ولكـن أيـضاً "بالازدهـار الملحـوظ في الفلـسفة الأخلاقيـة والاجتماعية والسياسية التي شهدتها فلورنسا في نفس الوقت.

حتى المدن والدول خارج وسط إيطاليا، مثل جمهورية فلورنسا آنذاك، كانت مشهورة أيضاً بكونها جمهوريات تجار، وخاصة جمهورية البندقية. وعلى الرغم من أنها كانت في الواقع أوليغاركية، ولم تكن تشبه الديمقراطية الحديثة إلا بشكل طفيف، إلا أنها كانت ولايات متجاوبة وتحتوي على بعض مزايا الديمقراطية، مع أشكال من المشاركة في الحكم والإيمان بالحرية الفردية. أفضت الحرية السياسية النسبية المتوفرة إلى تقدم أكاديمي وفني. وبالمثل, فإن موقع المدن الإيطالية مثل البندقية والمراكز التجارية الكبرى جعلتها في مفترق طرق ثقافي. جلب التجار معهم الأفكار من أصقاع العالم، وبالتحديد من المشرق العربي. كانت البندقية بوابة أوروبا التجارية، ومنتجة للزجاج الجيد، بينما كانت فلورنسا عاصمة لصناعة النسيج. كانت هذه الثروات المتدفقة إلى إيطاليا بسبب هذه الأعمال التجارية تعني أن بالإمكان تعميد المشاريع الفنية العامة أو الخاصة، وأيضا أن بإمكان الأفراد تخصيص أوقات فراغ أكبر للدراسة.

الطاعون 1497-1499

ترى أحد النظريات المطروحة أن الدمار الذي تسبب به الموت الأسود (الطاعون) في فلورنسا، والذي أصاب أوروبا بين عامي 1348 و 1350 كان سبباً في تحول نظرة الإيطاليين للعالم من حولهم في القرن الرابع عشر. ضرب الطاعون إيطاليا بالذات بشكل شديد، وقيل أن الألفة مع الموت جعلت المفكرين يتأملون أكثر بحياتهم على هذه الأرض بدلاً من الحياة الآخرة والروحانية.[34] كما قيل أن الطاعون دفع موجة جديدة من التقوى، والتي تجلت في رعاية الأعمال الفنية الدينية.[35] ولكن هذا لايفسر بشكل كامل لماذا حدث عصر النهضة في القرن الرابع عشر في إيطاليا على وجه التحديد. فوباء الموت الأسود قد أصاب جميع أنحاء أوروبا، وليس فقط إيطاليا. على الأرجح، ظهور عصر النهضة في إيطاليا كان نتيجة لتفاعل معقد للحقائق .

وقد نُقل الطاعون عن طريق البراغيث على السفن الشراعية العائدة من موانئ آسيا، وكان ينتشر بسرعة بسبب عدم وجود المرافق الصحية المناسبة: يصل عدد سكان

إنجلترا آنذاك حوالي 4.2 مليون نسمة، 1.4 مليون شخص فقدوا في الطاعون الدبلي. انخفض عدد السكان في فلورنسا إلى النصف تقريباً في عام 1347. وكنتيجة لهذا الانخفاض في عدد السكان، فقد ازدادت قيمة الطبقة العاملة، وأيضاً جاء العامة ليحظوا بحرية أكبر. ولسد الحاجة المتزايدة إلى العمل، فقد سافر العاملون بحثاً عن المكان الأفضل من الناحية الاقتصادية.

كان للانخفاض السكاني بسبب الطاعون بعض العواقب الاقتصادية: انخفضت أسعار المواد الغذائية، وانخفضت قيمة الأراضي بنسبة 30٪ إلى 40٪ في معظم أنحاء أوروبا بين 1350 و 1400. كما واجه ملاك الأراضي خسارة كبيرة، ولكن بالنسبة للرجال والنساء العاديين، فقد كانت تلك مفاجئة سارّة. لم يجد الناجون من الطاعون فقط أسعار الغذاء منخفضة، بل وجدوا أيضا العديد من الأراضي المتاحة، والغالبية منهم كان قد ورثها من أقاربه الذين ماتوا.

كان انتشار المرض أكثر بكثير في مناطق الفقر. دمرت الأوبئة المدن، وخاصة الأطفال، كما انتشر الطاعون بسهولة عن طريق القمل، ومياه الشرب غير صحية، والجيوش، وقلة النظافة. كان الأطفال أكبر المتضررين لأن أمراضا مثل التيفوس والزهري كانت تهاجم جهاز المناعة لديهم، وتجعلهم غير قادرين على مقاومة الأمراض. الأطفال في مساكن المدينة تأثروا من انتشار المرض أكثر من الأطفال الأثرياء تسبب الطاعون باضطرابات في البنية السياسية والاجتماعية لفلورنسا أكثر مما تسببته الأوبئة اللاحقة. على الرغم من العدد الكبير للضحايا الذين لاقوا حتفهم من الطبقة الحاكمة، إلا أن حكومة فلورانسا استمرت في العمل طيلة هذه المدة. عُلقت الاجتماعات الرسمية للممثلين المنتخبين في ذروة الوباء نظراً لظروف الفوضى في المدينة، ولكن تم تعيين مجموعة صغيرة من المسؤولين لتسيير شؤون المدينة والتي تضمن استمرارية الحكومة.

الظروف الثقافية في فلورنسا

لماذا بدأ عصر النهضة في فلورنسا، وليس في أي مكان آخر في إيطاليا؟ لقد كان هذا السؤال لفترة طويلة محلاً للنقاش. الباحثون لاحظوا عدة مميزات فريدة في الحياة الثقافية في فلورنسا التي ربما كانت إحدى الأسباب التي أدت إلى الحراك الثقافي. العديد أكدوا الدور الذي قامت به الميديشي - عائلة مصرفية وملكية في وقت لاحق - في رعاية وتحفيز الفنون. كان لورينزو دي ميديشي (1449-1492) أحد المتسببين في رعاية واسعة للفنون، فقد شجع مواطنيه لتعميد أعمال فنية لأبرز فناني فلورنسا مثل ليوناردو دا فينشي وساندرو بوتيتشيلي وميكيلانجيلو. كما قام دير "دي سان دوناتو آغلي سكوبيتي" التابع لجماعة الأوغسطينية في فلورنسا بتكليف ليوناردو دا فينشي وساندرو بوتيتشيلي ونيري دي بيتشي وفيليبينو ليبي بأعمال فنية.

كان عصر النهضة بالتأكيد جارياً قبل أن يأتي لورينزو للسلطة، بل قبل أن تحقق أسرة ميديشي نفسها الهيمنة في مجتمع فلورنسا. بعض علماء التاريخ سلّم بأن فلورنسا هي مكان مولد عصر النهضة بالحظ، بمعنىً آخر لأن "رجالاً عظماء" ولدوا هنالك بمحض الصدفة.[41] دافينشي، وبوتيتشيلي، ومايكلأنجلو ولدوا جميعهم في توسكانا. ورداً على أن فرصة كهذه تبدو غير محتملة، اعتبر مؤرخون آخرون أن هؤلاء "الرجال العظماء" كانوا فقط قادرين على الوصول للتأثير والشهرة بسبب الظروف الثقافية السائدة في ذلك الوقت.

الأسباب

انتعاش التجارة وازدهار المدن التجارية الأوربية

بالرغم من فنانيها وأدبائها وعلمائها، نشأت المدن التجارية على يد التجار، ومن تلك المدن "جنوه"، "ميلان"، "بيزا"، "البندقية"و "فلورانسا"، وقد اسس التجار كل ماهو لازم لإنشاء تلك المدن من توفير سلطة قضائية وتشريعية وغيرها لحفظ سير تجارتهم، وقد نهضت مدن بفضل التجارة وكان مبدئها أماكن أو مستودعات ثم أصبحت

مراكز ثم قامت منها مدن، وعلى هذا الاساس قامت باقي المدن الأوروبية لان التجارة عنصر فعال في بث شرايين الحياة داخل المجتمعات

كانت اللغة اللاتينية وهي لغة العلم والثقافة والفن محصورة في رجال الدين، لكن تنبه الأوروبيين إلى ضرورة استعمال اللغة الوطنية التي يتكلمها معظم أبناء الشعب، وقد كان لتشجيع بعض الحكومات الأوروبية للغات القومية وإقب اللغات الأم للغات شعوب أوروبا الحالية مثل اللغات الفرنسية والإنجليزية وغيرها.

سقوط القسطنطينية

أدى سقوط القسطنطينية عاصمة البيزنطيين بعد أن فتحها الأتراك العثمانيين إلى هجرة عدد كبير من العلماء إلى إيطاليا خاصةً، وحملوا معهم ما استطاعوا من كتب اغريقية وتماثيل وادوات قديمة.وهناك تعاونوا على بعث الثقافة اللاتينية وتطويرها في قالب جديد كان نواة للنهضة الأوربية.و كانت حرب القسطنتينية عام 1453 م.

مظاهر النهضة اللأوروبية وخصائصها

سار نظام الإقطاع في عصر النهضة على طريق التلاشي والزوال نتيجة موت عدد كبير من أمراء الإقطاعيين في الحروب الصليبية، وانصراف بعض الإقطاعيين إلى ممارسة التجارة، فتحرر الفلاحون والأقنان ولم يتمكن من بقي من الإقطاعيين من مقاومة التغيرات التي حصلت نتيجة النهضة.

الفصل التاسع

ظهور الدول الحديثة

عبر تطوير أساليب الحكم، وقد ساعدتهم في ذلك الأفكار الجديدة مثل افكار المفكرين مكيافيلي الإيطالي Machiavelli وجون روادن الفرنسي Jean Rodin والإنجليزي هوبس Hobs وتدفق الثروات، الناتجة عن الاكتشافات الجغرافية الكبرى، واستغلال مناجم الذهب والفضة للقارة الأمريكية ،خاصة من طرف إسبانيا والبرتغال في البداية. فساندت الطبقة المتوسطة الملوك على استتباب الأمن والنظام، والقضاء على الإقطاع فضلًا عن تكون الرأي العام ونمو اللغات المحلية وظهور الروح القومية، ولقد كان لهذه العوامل أثرها الفعال في قيام الدول الأوروبية الحديثة.

أهتم بالدراسات الإغريقية واللاتينية عقول الكثيرين من الأوروبيين وقد وجدوا معظم مجلداتهم في الكنائس والأديرة، فعكفوا على دراستها ،وترجمتها إلى اللغات المحلية مما فتح نوافذ المعرفة امام غالبية الشعب.

بشكل ما، المذهب الإنساني لم يكن فلسفة بل كان أسلوباً للتعلم. وعلى النقيض لما كان عليه مذهب المدرسية في العصور الوسطى والذي ركز على حل التناقضات بين الكُتاب، فالإنسانيون يدرسون النصوص القديمة من أصولها، ويقيمون نتائجها عن طريق مزيج من المنطق والبراهين التجريبية. واستند التعليم في المذهب الإنساني على برنامج ستوديا هومانيتاتيس باللاتينية (Studia Humanitatis) :والذي يشمل دراسة 5 علوم إنسانية: الشعر، والنحو، والتاريخ، والفلسفة الأخلاقية، وفن الخطابة. ورغم أن المؤرخين عانوا من أجل وضع تعريف دقيق للحركة الإنسانية، إلا أن معظمهم استقر على تعريف وسطي... الحركة المعنية باسترجاع وتفسير واستيعاب لغة وأدب الحضارتين الإغريقية والرومانية وقيمها وعلمها. وقبل كل شيء، أكد الإنسانيون على عبقرية الرجل وقدرة العقل البشري الفريدة

قام علماء المذهب الإنساني بإعادة تشكيل المنظور الفكري حتى وقتنا المعاصر. وقام فلاسفة سياسيون أمثال نيكولو مكيافيلي وتوماس مور بإعادة إحياء الفكر اليوناني والروماني، واستفادوا منه في نقد الحكومات المعاصرة. كتب فيلسوف عصر النهضة الإيطالي بيكو ديلا ميراندولا ما يعتبر غالبا أنه بيان عصر النهضة، وهو الاستمرار والنشاط في الدفاع عن حرية التفكير، وخطاب في كرامة الإنسان. اشتهر متيو بالميري (1406 م- 1475 م) -وهو إنساني آخر من إيطاليا وبالتحديد مدينة فلورنسا- بأحد أهم أعماله وهو كتاب("Della vita civile" في الحياة المدنية)"; الذي نشر عام 1528، والذي كان يناصر من خلاله فكرة المدنية الإنسانية، وقد خدمه في انتشار هذا الكتاب موهبته في صقل كتابته باللغة التوسكانية العامية التي أوصلها لمستوى اللغة اللاتينية ماكتبه بالميري اعتمد على المنظّرين والفلاسفة الرومان وخاصة كونتليان وشيشرون وهم شبيهين جدا ببالميري الذي عاش حياة نشطة كمواطن ومسؤول فضلاً عن أنه منظّر وفيلسوف. ولعل لب آراءه في التعبير عن نظرته للحركة الإنسانية موجود في ألبومه الشعري(La città di vita مدينة الحياة) الذي كتبه في 1465، لكن عمله السابق (Della vita civile في الحياة المدنية) كان أوسع وأشمل في تغطية الموضوع. وهو عبارة عن سلسلة من الحوارات التي تجري داخل بيت ريفي في منطقة موجيلو الريفية قرب فلورنسا، خلال وباء عام 1430، وشرح فيها بالميري صفات المواطن المثالي. تتضمن الحوارات أفكاراً حول نشأة الأطفال نفسيا وجسدياً، وكيفية تصرف المواطنين بشكل أخلاقي، وكيفية ضمان الدولة والمواطنين لوجود النزاهة في المناصب الحكومية والعامة، ومناظرة هامة حول الفرق بين ما هو مفيد عمليا وبين ما هو صالح أخلاقيا.

يؤمن أصحاب المذهب الإنساني إلى أنه من المهم الانتقال إلى مابعد الحياة الدنيا بعقل وجسد سليم تماما. وبالإمكان إنجاز هذا الانتقال من خلال التربية والتعليم. هدف المذهب الإنساني كان صناعة الرجل الكوني والذي يجمع في داخله التميز

الفكري والبدني بحيث يكون قادرا على العمل بنزاهة وفعالية في أي سياق.[45] عُرفت هذه الأيدولوجية بـ(L'Uomo Universale الشبيهة بالعلاّمة في الثقافة الإسلامية) وهي تصور مثالي مأخوذ من الرومانية الاغريقية. كان التعليم أثناء عصر النهضة متركزاً بشكل أساسي على التاريخ والآداب القديمة. كان يُعتقد بأن الكلاسيكيات قدمت توجيهات أخلاقية إضافة إلى فهم أعمق للسلوك البشري.

الفن

عصر النهضة في التاريخ الأوروبي يمثل الفترة التي انتهت فيها العصور الوسطى وبدأ فيها العالم الحديث بالنمو. إنها تمثل نهضة حضارية من القرن الرابع عشر إلى منتصف القرن السابع عشر. سد عصر النهضة المبكر وخاصة في إيطاليا الثغرة الفنية في القرن الخامس عشر، بين القرون الوسطى وعصر النهضة العليا. ومن المعروف عموما أن عصر النهضة في أوروبا الشمالية نضج في وقت لاحق، في القرن السادس عشر.[46] واحدة من السمات المميزة لفن عصر النهضة كانت تطويره للمنظور الخطي الواقعي للغاية. ينسب إلى جوتو دي بوندوني (1267-1337) الفضل كأول من تعامل مع اللوحة كنافذة إلى الفضاء، ولكن ذلك لم يكن إلّا بعد الشروحات الخاصة بالمهندس المعماري فيليبو برونليسكي (1377-1446)، وكتابات ليون باتيستا ألبيرتي (1404-1472) اللاحقة، وهذا المنظور أصبح يعتبر رسمياً كتقنية فنية. كان وضع منظور أوسع جزء من الاتجاه نحو الواقعية في مجال الفنون. تحقيقاً لهذه الغاية، طور الرسامون أيضاً تقنيات أخرى مثل: دراسة الضوء، والظل كما اشتهر بها ليوناردو دا فينشي، وأيضاً علم التشريح البشري. هذا التغيير الذي طرأ على المنهج الفنّي جدد الرغبة في تصوير جمال الطبيعة، وكشف بديهيات علم الجمال وتمثل أعمال ليوناردو دا فينشي، ميكيلانجيلو، ورفائيل ذروة هذا التغيير والذي سيقتدي به العديد من الفنانين في المستقبل.

وأيـضا مـن الفنـانين الجـديرين بالـذكر سـاندرو بوتيتـشيلي الـذي عمـل كرسـام للميديشي في مدينة فلورنسا، ودوناتيلو هو الآخر فنان من مدينـة فلورنـسا، ومـن مدينـة البندقية يأتي الفنان تيتيان، وغيرهم.

في نفس الوقت، وبالتحديد في هولندا كان هناك نشاط وتطور ثقافي فنّي ملحـوظ، وكانت أعمال الفنانَين الهولنديَين هوغو فان دير جوس ويان فان آيك لهـا تـأثير واضـح في تطـور الرسـم في إيطاليـا، وكـلا المدرسـتين الإيطاليـة والهولنديـة تـستخدم نفـس التقنيـة والأدوات الفنية كالطلاء الزيتي والقماش، وأيضا لهـما نفـس الأسـلوب والـذي يقـوم عـلى تـصوير الطبيعـة. في وقـت لاحـق، ألهـم عمـل بيـتر بروغـل الأكـبر الفنـانين عـلى تـصوير موضوعات الحياة اليومية.

وفي مجال فن العمارة يبرز فيليبو برونليسكي الذي درس المباني الإغريقيـة القديمـة، وأعاد اكتشاف معلومات تعود للكاتب والمهندس الإغريقي فيتروفيو الذي عـاش في القـرن الأول الميلادي وصنع فيليبو طفرة في مجال الرياضيات، وشكل نموذج المبـاني الـذي اشـتهر بها عصر النهضة والتي حاكى فيها النموذج الإغريقي. وأهم الخطـى التـي خطاهـا فيليبـو برونليسكي في مجال الهندسة المعمارية هو تـصميمه وبنائـه للقبـة الكاتدرائيـة في مدينـة فلورنسا. يُقال أن أول مبنى لإثبات هذا هو كنيسة القديس أندرو التي بناها البرتي في مانتوفا. كان العمل المعماري الاستثنائي في عصر النهضة الـسامي هـو إعـادة بنـاء كاتدرائيـة القـديس بطرس، والجمع بين مهارات دوناتو برامانتي، ميكيلانجيلو، رفائيل، سنقالو ماديرنو.

تم استخدام أنواع ترتيبات الرومـان للأعمـدة: توسـكان، دوريـسي، أيـوني، كـورنثي ومركب. يمكن لهذه الأعمـدة أن تكـون إمـا هيكليـة، أو دعامـة لممـر أو عتـب، أو مجـرد ديكور فقط، مقابل جدار على شكل أعمدة متوجة. خلال عصر النهـضة، كـان المهندسـون المعماريون يهدفون إلى اسـتخدام الأعمـدة، الأعمـدة المتوجـة، والأسـطح المعمـدة كنظـام متكامل. أول المباني التي استخدمت الأعمـدة كنظـام متكامـل كانـت في الخزانـة القديمـة (1421-1440) من قبل فيليبو برونليسكي.

وغالبا ما تستخدم الأقواس، أنصاف الداوائر أو القطعيات (كما في أسلوب المانييريزمو) في الممرات، وتكون مدعّمة على أرصفة أو أعمدة ذات تيجان. قد يكون هناك جزء من السطح المعمد بين العاصمة والظهور من القوس. ألبيرتي كان من الأوائل اللذين استخدموا القوس على النصب التذكارية. تميزت أسقف مباني عصر النهضة بتقوسها الذي لم يتخللها أقواس بارزة فهي نصف دائرية، أو قطَعية على مخطط مربع، على عكس الأسقف القوطية التي تكون عادة مستطيلة.

لم يكن فنانو عصر النهضة وثنيين لكنهم كانوا معجين بالعصور القديمة وأبقوا أيضا على بعض أفكار ورموز العصور الوسطى. نيكولا بيسانو (1220-1278) قلد الشكل والنمط الكلاسيكي في تصويره لمشاهد من الكتاب المقدس. لوحة "البشارة" في سُدّة الوعظ بمعمودية بيزا، التي رسمها بيسانو نيكولا، تدل على أن النماذج الكلاسيكية أثرت في الفن الإيطالي قبل عصر النهضة وتجذرت كحركة أدبية

العلوم

لقد ساعد كل من إعادة اكتشاف النصوص القديمة واختراع الطباعة على نشر العلم وتوالد الأفكار. في الفترة الأولى من النهضة الإيطالية، فضل الإنسانيون الدراسات الإنسانية على الفلسفة الطبيعية وتطبيقات الرياضيات. وقد عزز تبجيلهم للمصادر الكلاسيكية رؤاهم الأرسطية والأفلاطونية للكون.

وبالرغم من ذلك، فقد كانت كتابات نيكولاس كوسانوس حوالي عام 1450 تتبع رؤية كوبرنيكوس حول مركزية الشمس، حيث تم صياغتها بأسلوب فلسفي. العلم والفن كانا متداخلان بشكل كبير في عصر النهضة المبكر، مع فنانين مثقفين مثل ليوناردو دا فينشي حيث رسم رسومات مشهودة للتشريح والطبيعة. لقد أجرى تجارب محكمة في انسياب الماء، والتشريح الطبي، ودراسة منهجية للديناميكية الهوائية. لقد صمم مبادئ أساليب البحث، والتي أدت بفريتوف كابرا إلى تصنيفه بأنه أب العلم الحديث.

"اكتشاف" كريستوفر كولومبوس ل "العالم الجديد" سنة 1492 أَوْلَدَ تَحَدٍّ للنظرة التقليدية للعالم التي صاغتها أعمال بطليموس (في الجغرافيا) وجالينوس (في الطب) والتي لم تعد تتطابق ولا تتلائم بالشكل الكافي مع الملاحظات والاستكشافات الجديدة: فبدأت البيئة المناسبة للتشكيك في النظرية العلمية السائدة. مع التصادم بين حركة الإصلاح البروتستانتية والحركة المضادة للإصلاح، أظهرت حركة النهضة في المناطق الشمالية تحولاً حازماً من الفلسفة الأرسطية الطبيعية إلى الكيمياء والعلوم الحيوية (علم النبات، والتشريح، والطب). لقد أنتجت القدرة على التشكيك في الحقائق السابقة والبحث عن إجابات جديدة فترة من التقدم العلمي الكبير.

البعض اعتبر هذا بأنه ثورة علمية، مبشرًا ببداية العصر الحديث. آخرون يرونها كعملية مستمرة ممتدة من العالم القديم إلى يومنا هذا. بغض النظر عن ذلك، هناك اتفاق عام على أن عصر النهضة أحدث تغييرات هامة في طريقة النظر للكون والمناهج التي تستخدم في تفسير الظواهر الطبيعية جرت العادة التي بدأت عام 1543 بعد طبع أول كتاب بعنوان(De humani corporis fabrica" طريقة عمل جسم الإنسان)" لعالم التشريح البلجيكي أندرياس فيساليويس الذي أعطى في كتابه المزيد من الثقة لدور التشريح، والملاحظة، والفلسفة الآلية حول علم التشريح.[58] وأيضا من الكتب التي أعطت المزيد من الثقة في علوم الفضاء كتاب ("De revolutionibus orbium coelestium" في دوران الأجرام السماوية) للعالم البولندي كوبرنيكوس. ونظرية كوبرنيكوس في كتابه كانت بأن الأرض تدور حول الشمس. خلال هذه الفترة قام كل من جاليليو جاليلي، تيخو براهي ويوهانس كيبلر بتقدم عظيم في المجال العلمي.

أحد أهم التطورات لم تكن اكتشافا علميا، لكن كانت تطور في عملية الاكتشاف، أي المنهج العلمي. المنهج العلمي يقوم على المبدأ التجريبي وأهمية الرياضيات، بالإضافة إلى تجاوز العلم الأرسطي. كان مؤيدو هذه الأفكار المؤثرين

أمثال كوبرنيكوس وجاليليو وفرانسيس بيكون. أدى المنهج العلمي الجديد إلى إنجازات عظيمة في مجالات الفلك والفيزياء والأحياء والتشريح

الدين

المُثُل العليا الجديدة للمذهب الإنساني - على الرغم من أنها علمانية في بعض جوانبها - طُورت في إطار خلفية مسيحية، خاصة في عصر النهضة الشمالي. كثير - إن لم يكن الأغلب - من الفن الجديد كان مفوضاً بواسطة الكنيسة أو مكرساً لأجلها بالرغم من ذلك، فإن عصر النهضة قد أثر بعمق على علم اللاهوت المعاصر، وبالتحديد على الطريقة التي ينظر لها الناس في علاقة الإنسان مع الإله. العديد من اللاهوتيين الأوائل في تلك الفترة كانوا متبعون للمذهب الإنساني، بما في ذلك دسيدريوس إراسموس، هولدريخ زوينكلي، توماس مور، مارتن لوثر، وجون كالفن.

بدأ عصر النهضة في أوقات الاضطراب الديني.

شهدت أواخر العصور الوسطى فترة من المكائد السياسية المحيطة بمنصب البابوية، وبلغت ذروتها في الانشقاق الغربي، حين أدعى كلٌّ من ثلاثة رجال في وقت واحد أنه الأسقف الحقيقي لروما.

في حين تم حل الانقسام من قبل مجلس كونستانس (1414)، شهد القرن الخامس عشر نتاج حركة الإصلاح المعروفة باسم كونسيليارزم، والتي سعت للحد من سلطة البابا. ورغم أن البابوية خرجت بمكاسب قوية في القضايا الكنسية التي نوقشت في مجمع لاتيران الكنسي الخامس في 1511، إلا أنها قوبلت بسيل من الاتهامات بالفساد، وبالذات ضد البابا إسكندر السادس الذي اتهم بشراء المناصب الكهنوتية والمحسوبية وإنجاب أربعة أطفال غير شرعيين وهو على كرسي البابوية، وتزويجهم بغرض كسب المزيد من السلطة.

اقترح بعض رجال الكنيسة مثل ايراسموس ولوثر الإصلاح في الكنيسة، والتي تعتمد على نقد نصي إنساني للعهد الجديد. لقد كان لوثر الذي قام في أكتوبر 1517

بنشر رسالة 95، يتحدى فيها السلطات البابوية وينتقد تعاملها مع الفساد، خاصة قضية بيع صكوك الغفران. رسالة 95 قادت لإصلاح تمثل في انفصال عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي كانت مسيطرة في السابق على أوروبا الغربية. لعبت النزعة الإنسانية وعصر النهضة دورا مباشرا في ظهور الإصلاح البروتستانتي، كما أثروا في العديد من المناقشات والصراعات الدينية المعاصرة الأخرى.

اعتلى البابا بولس الثالث (1534-1549) كرسي البابوية في عصر تلى نهب روما في 1527، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تسودها الحيرة والشكوك بعد حركة الإصلاح البروتستانتي. أهدى نيكولاس كوبرنيكوس كتابه (De revolutionibus orbium coelestium حول دوران الأجرام السماوية) (باللاتينية : De revolutionibus orbium coelestium) إلى البابا بولس الثالث، الذي كان حفيده أليساندرو فارنيزي (كاردينال)، يمتلك لوحات فنية لمايكل أنجلو وتيتيان ورافاييل، بالإضافة لمجموعة مهمة من الرسومات، وكان قد قام برعاية تحفة جوليو كلوفيو الفنية، المخطوطة المزخرفة ساعات آل فارنيزي، التي تعتبر آخر المخطوطات المزخرفة الكبرى.

الوعي الذاتي

مع حلول القرن الخامس عشر، كان الفنانون والكتاب والمعماريون في إيطاليا يدركون بوجود التغيرات التي كانت تحدث، وكانوا يستعلمون تعبيرات مثل على الطريقة الأثرية بالإيطالية (modi antichi) :وعلى طريقة الرومان والقدماء (بالإيطالية alle romana et alla antica) :عندما يصفون أعمالهم. في حوالي 1330، وصف بترارك عصور ما قبل المسيحية على أنها(antiqua قديمة) ووصف العصر المسيحي على أنه(nova جديد). من وجهة النظر الإيطالية لبترارك، كانت هذه الفترة الجديدة (التي شملت عصره) فترة الكسوف الوطنية. كان ليوناردو بروني أول من قسم التاريخ إلى ثلاثة عصور في كتابه تاريخ الشعب الفلورنسي (1442). العصرين

الأولين كانا مشابهين لما فعله بترارك، لكن بروني أضاف عصرا ثالثا لأنه كان يعتقد أن إيطاليا لم تعد في حالة انحطاط. واستخدم فلافيو بيوندو نفس الأسلوب في مؤلفه "حقب تاريخية منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية" 1439-1453.

علماء التاريخ الإنساني دافعوا عن أن المعارف المعاصرة استعادت روابطها المباشرة من الفترة الكلاسيكية، تجاوزاً للفترة الوسيطة التي سموها -لأول مرة- (بالعصور الوسطى). ظهر المصطلح لأول مرة في اللاتينية عام 1469 كـ media tempestas الأزمنة المتوسطة. ظهر مصطلح la rinascita الإحياء لأول مرة بمعناه الواسع في أعمال جورجو فازاري Vite de' più eccellenti architetti, pittori, et scultori Italiani :حياة الفنانين (1550) والنسخة المنقحة الصادرة في (1568).[66][67] قسم فيزاري هذا العصر إلى ثلاث فترات: الفترة الأولى تحتوي على تشيمابو وجوتو دي بوندوني وأرنولفو دي كامبيو. أما الفترة الثانية فتحتوي على مازاتشو وفيليبو برونليسكي ودوناتيلو. وتمركزت الفترة الثالية على ليوناردو دا فينشي وتوجت بمايكل أنجلو. لم يكن مجرد الوعي المتزايد بالعصور القديمة الكلاسيكية هو الذي قاد هذا التطور، حسب فاساري، ولكن أيضا رغبة متزايدة للدراسة وتقليد الطبيعة.

انتشرت أفكار عصر النهضة في القرن الخامس عشر بسرعة كبيرة من مكان نشأتها في فلورنسا، حيث انتشرت أولا في بقية إيطاليا ثم في بقية أوروبا. أتاح اختراع المطبعة الانتقال السريع لهذه الأفكار الجديدة. ومع انتشارها، تغيرت أفكار النهضة وتنوعت لتتكيف مع الثقافات المحلية. بدأ الباحثون في القرن العشرين بتقسيم النهضة إلى حركات اقليمية ووطنية.

أوروبا الشمالية

تصور لوحة بيتر بروغل المسماة انتصار الموت (1562) حالة الذعر والهيجان التي سببها الطاعون الذي ضرب أوروبا في العصور الوسطى اصطلح على تسمية

النهضة التي حدثت في شمال أوروبا بالنهضة الشمالية. وبينما كان اتجاه انتشار أفكار النهضة إلى الشمال من إيطاليا، كان هناك أيضا انتشار متزامن باتجاه الجنوب في بعض مجالات الابتكار، بالذات في الموسيقى. كانت موسيقى المدرسة البروغاندية في القرن الخامس عشر بداية النهضة في الفن والتأليف الموسيقي عند الهولنديين، ومع انتقالها مع الموسيقيين أنفسهم إلى إيطاليا، أسست جوهر أول أسلوب عالمي حقيقي في الموسيقى منذ توحيد الأنشودة الجورجية في القرن التاسع ميلادي.[69] ذروة المدرسة الهولندية كانت في موسيقى الملحِّن الإيطالي باليسترينا. في نهاية القرن السادس عشر عادت إيطاليا لتكون مركزا للإبداع الموسيقي، مع تطور الغناء الجوقي التابع لمدرسة البندقية، والذي انتشر حتى ألمانيا شمالا. لوحات عصر النهضة الإيطالية اختلفت عن تلك التي في عصر النهضة الشمالية. كان فنانو عصر النهضة الإيطاليون أول من رسم مشاهد دنيوية، منهين بذلك احتكار الفن على المشاهد الدينية البحتة كما كان الأمر عليه عند الرسامين في القرون الوسطى. في البداية، بقي فنانو عصر النهضة الشماليين مركزين على الموضوعات الدينية، كالاضطرابات الدينية المعاصرة في تلك الحقبة والتي تطرق لها آلبرخت دورر. بعدها أثرت أعمال بيتر بروغل على الفنانين الآخرين لرسم مشاهد من الحياة اليومية بدلا من المواضيع الدينية أو الكلاسيكية. كما تم خلال عصر النهضة الشمالية اتقان الأخوين الفلمنكيين هابرت ويان فان إيك لتقنية الرسم الزيتي، والتي مكنت الفنانين من إنتاج ألوان قوية على سطح صلب تحفظ اللوحات لعدة قرون. واتَّسَمَ عصر النهضة الشمالي في استخدامه للغات المحلية بدلا من اللاتينية أو اليونانية، مما شجع على حرية التعبير. بدأت هذه الحركة في إيطاليا مع التأثير الطاغي لدانتي أليغيري في نمو اللغات المحلية، وفي الواقع أدى التركيز على الكتابة بالإيطالية إلى إهمال مصدر رئيسي للأفكار الفلورنسية المكتوبة باللاتينية. وعزز انتشار الآلة الكاتبة المتنقلة (المخترعة في ألمانيا) من عصر النهضة، في أوروبا الشمالية كما في الأماكن الأخرى، كما أصبحت البندقية مركزاً عالمياً للطباعة.

البرتغال

"البابا القديس بطرس"، 1530-1535، رسمها فاسكو فرنانذز. عمل مميز من الفترة التي تأثرت بها النهضة البرتغالية بالعوامل الخارجية,

على الرغم من أن عصر النهضة الإيطالي كان له تأثير متواضع على الفنون البرتغالية، إلا أن البرتغال كانت مؤثرة في توسيع النظرة الأوروبية للعالم وذلك بإثارة النزعة الإنسانية للاستكشاف. وصلت النهضة عبر التأثير الذي خلفه التجار الأثرياء الإيطاليين والفلامنكيين والذين قاموا باستثمارات رابحة في ما وراء البحار. كسائر المقرات الرائدة في الاستكشاف الأوروبي، ازدهرت لشبونة في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي، حيث جذبت الخبراء الذين حققوا اكتشافات عديدة في الرياضيات، والفلك، والتكنولوجيا البحرية بمافيهم بيدرو نونس وجواو دي كاسترو، وإبراهام زاكاتو، ومارتن بيهايم. رسامو الخرائط مثل: بيدرو رينال، لوبو هوميم، استبيان قوميز ودييفو ريبيرو قدموا مساعدة مهمة في تخطيط الأرض. قام العديد من الأطباء والصيادلة مثل الصيدلي تومي بيرس والأطباء مثل غارسيا دي أورتا وكريستوبال أكوستا بجمع ونشر العديد من الأعمال عن النباتات والأدوية، والتي ترجمها لاحقاً عالم النبات الفلمنكي الرائد كارلوس سلوسيوس. وفي العمارة، مولت الأرباح الهائلة في تجارة التوابل نمط من البناء الفخم في العقود الأولى من القرن السادس عشر يسمى المانويلية، مدمجاً العديد من العناصر البحرية. الرسامين الرئيسيين هم نونو غونسالفيس، غريغوريو لوبيز وفاسكو فيرنانديز. في الموسيقى، بيدرو دي اسكوبار ودوارتي لوبو، وأربعة ترانيم، بما في ذلك كانكيونيرو دي إلفاس. في الأدب، قدمت سا دي ميراندا الأساليب الإيطالية للشعر، كما طور بيرنارديرم ريبيرو الرعوية الرومانسية. كما انصهرت معزوفات جيل فيسينتي مع الثقافة الشعبية، حيث أبرزت تغيرات العصور، كما سجل لويس دي كامويس المفاخر البرتغالية في الخارج في القصيدة الملحمية أوس لوسيادس بالبرتغالية .(Os Lusíadas): أزدهر الأدب

الرحلات خصوصا وقد قام كل من جواوو دي بارو، كاستنهيدا أنطونيو قالفو، قاسبر كوريا، دوارتي باربوسا، فرناو مندش بنتو وآخرين بوصف الأراضي الجديدة التي زاروها. وتمت ترجمة أعمالهم وطباعتها مع تقنية الطباعة الجديدة. بعد انضمام البرازيل إلى الاستكشافات البرتغالية في 1500، صاغ أمريكو فسبوتشي مصطلح العالم الجديد في رسائله إلى لورينزو دي بييرفرانشيسكو دي ميديشي. أنتج التبادل الدولي المكثف عدة علماء إنسانيين عالميين: فرانسيسكو دي هولاند، أندريه دي ريزندي ودامياو دي قواس، وهو صديق إراسموس الذي كتب باستقلالية نادرة عن عهد الملك مانويل الأول؛ ديوغو وأندريه دي جوفيا، الذي حقق إصلاحات ذات الصلة بالتدريس عبر فرنسا. جذبت الأنباء الأجنبية والمنتجات في المصنع البرتغالي في أنتويرب اهتمام كلاً من توماس مور ودورير إلى العالم الأوسع. هناك، ساعدت الأرباح والخبرة في رعاية النهضة الهولندية والعصر الذهبي، وخاصة بعد وصول مجتمع الأثرياء المثقفين من اليهود الذين طردوا من البرتغال.

إسبانيا

وصل عصر النهضة إلى شبه الجزيرة الايبيرية من خلال البحر الأبيض المتوسط عبر المناطق التي يسيطر عليها تاج أراغون ومدينة فالنسيا. كان العديد من الكتاب في بداية عصر النهضة الإسبانية قد أتوا من مملكة أراغون، بما في ذلك أوسياس مارش وجوانوت مارتوريل. أما في مملكة قشتالة تأثر عصر النهضة في بدايته بالنزعة الإنسانية الإيطالية، بدءاً بالكُتاب والشعراء، وفي مطلعهم ماركيز سانتيانا، الذي عرّف الشعر الإيطالي الجديد إلى إسبانيا في أوائل القرن الخامس عشر. كتّاب آخرون، مثل خورخي مانريكي، فرناندو دي روخاس، خوان ديل انسينا، خوان بوسكان الموجافر وغارسيلاسو دي لا فيغا، ابقوا على تشابه قريب للنمط الإيطالي. وتُعد رواية دون كيشوت وهي تحفة ميغيل دي سرفانتس أول رواية غربية. ازدهر فكر الحركة الإنسانية في عصر النهضة أوائل القرن السادس عشر، بمؤلفين مأثرين كالفيلسوف خوان لويس

فيفيس والنحوي أنطونيو دي نيبريخا أو المؤرخ الطبيعي بيدرو دي ميكسيا. مالت النهضة الأسبانية في وقت لاحق نحو المواضيع الدينية والتصوف، بشعراء مثل فراي لويس دي ليون ، تيريسا دي خيسوس ويوحنا الصليب، وقد تعاملت مع مواضيع متعلقة باستكشاف العالم الجديد على يد مؤرخين وكتاب مثل إنكا غارثيلاسو دي لا فيغا أو بارتولومي دي لاس كاساس، مما أدى إلى مجموعة من الأعمال، والتي تعرف الآن باسم أدب عصر النهضة الإسبانية. وشهد عصر النهضة في إسبانيا بروز فنانين من أمثال إل غريكو، ومؤلفين موسيقيين كتوماس لويس دي فيكتوريا وأنطونيو دي كابيثون.

إنجلترا

في انكلترا، ميزت الحقبة الإليزابيثية بداية عصر النهضة الإنجليزية مع أعمال الكُتاب مثل ويليام شكسبير، كريستوفر مارلو، إدموند سبنسر، السير توماس مور، فرانسيس بيكون، السير فيليب سيدني، جون ميلتون، وكذلك مع أعمال فنانين ومعماريين عظماء (مثل اينيجو جونز الذي قدم العمارة الإيطالي إلى إنجلترا)، والملحنين مثل توماس تالليس، وجون تافيرنر ويليام بيرد.

فرنسا

في عام 1495 عصر النهضة الإيطالية وصل إلى فرنسا، مستورد من الملك تشارلز الثامن بعد غزوه إيطاليا. العامل الذي شجع على انتشار العلمانية كان عجز الكنيسة عن تقديم المساعدة ضد الموت الأسود. استورد فرانسيس الأول الفن والفنانين الإيطاليين، بما في ذلك ليوناردو دا فينشي، وبنى قصور مزخرفة بتكاليف باهظة. الكتّاب أمثال فرانسوا رابليه وبيير دي رونسارد ويواكيم دو بيلي وميشيل دي مونتانير، والرسامون أمثال جان كلويت، والموسيقيون أمثال جان ماوتن استعاروا أيضاً من روح عصر النهضة الإيطالية. في عام 1533، قام كاترينا دي ميديتشي البالغ من العمر آنذاك 14 عاماً (1519-1589) والمولود للورنزو الثاني دي ميتشي

ومادلين دو لا تور دي أوفيرني، بالزواج من هنري، الابن الثاني للملك فرانسيس الأول والملكة كلود. على الرغم من أنها كانت قد اصبحت مشهورة بسوء سمعتها بسبب دورها في الحروب الدينية في فرنسا، إلا أنها قدمت إسهاماً مباشراً في جلب الفنون والعلوم والموسيقى - بما في ذلك أصول الباليه - من مسقط رأسها في فلورنسا إلى فرنسا.

ألمانيا

في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، انتشرت روح هذا العصر لتصل ألمانيا والبلاد المنخفضة، حيث تطورت الطباعة. (وكان ذلك حوالي 1450) حيث سبق تأثير الفنانين الألمان إيطاليا في عصر النهضة في وقت مبكر، هؤلاء الفنانين كالرسامين مثل جان فان ايك (1395-1441) وهيرونيموس بوش (1450-1516) والملحنون مثل يوهانس اوكيغم (1410-1497) وجاكوب اوبريتش (1457-1505) وجوسكن ديس بيريز (1455-1521). أصبحت النزعة الإنسانية في المناطق البروتستانتية (منذ وقت مبكر) مرتبطة بشكل وثيق باضطرابات الإصلاح البروتستانتي، وقد عكست الفنون والكتابة في عصر النهضة الألمانية هذا النزاع كثيراً. ومع ذلك، ظل الطراز القوطي والفلسفة المدرسية في العصور الوسطى حصرية حتى مطلع القرن السادس عشر. كان الإمبراطور ماكسيميليان الأول من هابسبورغ (حكم 1493-1519) العاهل الأول والحقيقي لنهضة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والتي عرفت فيما بعد باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية \" (حمية كولونيا 1512.

المجر

بعد إيطاليا، جاءت المجر كأول بلد أوروبي حيث ظهر فيها عصر النهضة. جاء طراز عصر النهضة مباشرة من إيطاليا أثناء الكواتروسنتو- (Quattrocento) أو القرن الخامس عشر- إلى المجر لأول مرة في أوروبا الوسطى، وذلك بفضل التطوير المبكر

للعلاقات المجرية الإيطالية-ليس فقط في العلاقات بين السلالات الحاكمة، ولكن في العلاقات الثقافية والإنسانية والتجارية- المتزايدة في قوتها من القرن الرابع عشر. كانت العلاقة بين الأسلوبين المجري والقوطي الإيطالي هي السبب الثاني - يتم تجنب الاختراق المبالغ فيه للجدارن، وتفضل البنايات النظيفة والمضاءة -. قدمت مخططات البناء واسعة النطاق عملاً وافراً على المدى الطويل للفنانين، على سبيل المثال، مبنى قلعة فريس (الجديدة) في بودا، قلاع فيسيغارد وتاتا وفاربالاتو. في محكمة سيغيسموند كان هناك رعاة مثل بيبو سبانو، وهو سليل عائلة سكولاري من فلورنسا، الذي دعا مانيتو امانتيني ومارسلينو دا بانكلي إلى المجر. وقد امتزج الاتجاه الإيطالي الجديد بالعادات والتقاليد الحالية، مما أنتج عنه أدب نهضة محلي. وقد استمر قبول أدب عضر النهضة بقدوم أصحاب المذهب الإنساني إلى البلاد. وقد اقترب كثير من الشبابي المجري الذي يردس في الجامعات الإيطالية من مركز فلورنسا الإنساني، مما طور اتصال مباشر مع فلورنس. نمو أعداد التجار الإيطاليين القادمين إلى المجر، وبالتحديد إلى بودا، قد ساعد في العملية. تم تنفيذ الأفكار الجديدة من قبل الأساقفة الإنسانيين، من بينهم فيتيز يانوس، رئيس اساقفة ازترغوم، وأحد مؤسسي الإنسانية الهنغارية. في العهد الطويل للإمبراطور سيغيسموند إمبراطور لوكسمبورغ، أصبحت قلعة بودا الملكية على الأرجح أكبر القصور القوطية في أواخر العصور الوسطى. الملك ماتياس كورفينوس (1458-1490) إعادة بناء القصر بأسلوب عصر النهضة المبكر، بالإضافة إلى توسيع نطاقه. بعد الزواج عام 1476 بين الملك ماتياس وبياتريس من نابولي، أصبحت بودا واحدة من المراكز الفنية الأكثر أهمية في شمال النهضة من جبال الألب. أهم الإنسانيين الذين كانو يعيشون في ماتياس كورت كانوا انطونيو بونفيني والشاعر المجري الشهير يانوس بانونويس. أنشأ اندراس هيس مطبعة في بودا عام 1472. كانت مكتبة ماتياس كورفينوس تعتبر أعظم مجموعات الكتب العلمانية في أوروبا: السجلات التاريخية والأعمال الفلسفية والعلمية في القرن الخامس عشر. مكتبته كانت الثانية في الحجم إلى مكتبة الفاتيكان. (لكن مكتبة الفاتيكان، كانت تضم في الأغلب أناجيل ومواد دينية). كتب بارتولوميو ديلا فونتي من فلورنسا في 1489

أن لورينزو دي ميدشي أنشأ مكتبته اليونانية-اللاتينية متبعا في ذلك ما فعله الملك المجري. مكتبة كورفينوس هي جزء من منظمة اليونسكو للتراث العالمي. شخصيات أخرى هامة في النهضة المجرية: بالينت بلاسي (شاعر)، سباستين تينودي لانتوس (شاعر)، وبالينت باكفارك.

بولند

حركة إنسانية إيطالية قد جاءت إلى بولندا في منتصف القرن الخامس عشر وهي كاليماخوس فيليب. جاء العديد من الفانين الإيطاليين إلى بولندا مع بونا سفورزا (من ميلان) عندما تزوجت الملك البولندي زيجمونت الأول في 1518. كان هذا مؤيداً بشكل مؤقت من الأنظمة الملكية القوية في كلا المنطقتين، كما كان مؤيداً من الجامعات التي أنشئت حديثاً. استمرت النهضة البولندية من أواخر القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن السادس عشر، وتعتبر على نطاق واسع أنها كانت العصر الذهبي للثقافة البولندية. مملكة بولندا، التي حكمتها سلالة ججلون (المعروف سنة 1569 بالكومنولث البولندي اللتواني) ساهمت بنشاط كبير في النهضة الأوروبية rn عرفت الدولة البولندية ذات التنوع العرقي فترة طويلة من النمو بفضل قرن من الزمن خال من أي حرب ذات أهمية تذكر- باستثناء صراعات المنطقة الشرقية ذات الكثافة السكانية المنخفضة والمناطق الحدودية الجنوبية. انتشر الإصلاح بسلام في أنحاء البلاد (مما أدى إلى نمو الأخوة البولندية)، حيث تحسنت الظروف المعيشية، ونمت المدن، وساهمت الصادرات من المنتجات الزراعية في إثراء السكان خصوصاً طبقة النبلاء (szlachta) التي تحقق لها السيطرة في النظام السياسي الجديد للحرية الذهبية(Golden Liberty)

روسيا

تيارات عصر النهضة من إيطاليا وأوروبا الوسطى أثرت في روسيا في نواح عديدة، على الرغم من محدودية هذا التأثير نظراً للمسافة بين روسيا والمراكز الثقافية الرئيسية في أوروبا من جهة، وبسبب الإخلاص القوي للروسيين لتقاليدهم الأرثوذكسية والتراث البيزنطي، من الجهة الأخرى. أدخل الأمير إيفان الثالث عمارة

عصر النهضة إلى روسيا بدعوته لعدد من المهندسـين المعماريـين الإيطـاليين، الـذين جلبـوا معهم تقنيات البناء الجديدة وعناصر طراز عصر النهضة، لكنهم حافظوا في التصاميم على الذوق المعماري التقليدي الروسي. سنة 1475 جاء المهندس المعماري البولوني أريـستوتيلي فيورافانتي لإعادة بناء كاتدرائيّة الرّقاد بالكرملين في موسـكو، التـي تـضررت جـراء زلـزال. جعل فيورافانتي من كاتدرائية فلاديمير، التي تعود للقرن الثـاني عـشر، كنمـوذج، بإنتاجـه تصميم يجمع بين الذوق الروسي التقليدي واللمسة النهضوية برَحْب الأَرْجَاءِ وتناظرها.

سنة 1485 قام إيفان الثالث بتكليف بناء قصر تيريم الملكي داخل الكـرملين، وكـان المعماري ميلانـو الويـسيو دا كونهـا مهنـدس الطوابـق الثلاثـة الأولى. الويـسيو دا ميلانـو، وكـذلك المهندسـين المعماريـين الإيطـاليين الآخـرين، سـاهموا إلى حـد كبـير أيـضاً في بنـاء الجدران والأبراج الكرملينية. قاعة الحفلات الصغيرة التابعة للقيصر الروسي والتـي تـسمى بقصر الواجهات Palace of Facets يحث التسمية عائـدة لقـصة واجهتـه العلويـة، كـان عملا لاثنين من الإيطاليين: ماركو روفو وبيترو سولاريو، حيـث يظهـر هـذا العمـل الطـراز الإيطالي. في عام 1505، مشهور إيطالي في روسيا يعرف بأليفز نوفي او أليفز فرايزين وصل إلى موسكو. ربما كان نحّات البندقية، القيسيو لامبيرتي دا مونتاني. بنـى 12 كنيـسة لإيفـان الثالث، بما في ذلك كاتدرائية رئيس الملائكة، وهو مبنى رائع وملحوظ لمزجه النـاجح لكـل مـن التقاليـد الروسـية، والمتطلبـات الأرثوذكـسية وطـراز عـصر النهـضة. مـن المعتقـد أن كاتدرائية ميتروبوليتان بيتر في دير يسوكوبيتروفسكي، وهي عمل آخـر مـن أعـمال ألفـيس نوفي، عملت كمصدر إلهام للتموذج المعماري المسمّى بـ مثمن الأضلاع على رباعي الزوايـا في موسكو في أواخر القرن السابع عشر.

ومع ذلك، فقد طُورت بين أوائل القرن السادس عشر وأواخـر القـرن الـسابع عـشر تقاليد أصلية لبناء حجر سقف الخيام في روسيا. لقد كان مختلفا ومتميزا عن عمارة عـصر النهـضة الحـديث المنتـشر في بـاقي أوروبـا، وبـالرغم مـن ذلـك فقـد أطلـق عليـه

بعض الباحثين بالطراز القوطي الروسي وقارنوه بالطراز القوطي الأوروبي الذي كان موجودا في السابق. الإيطاليون، مع التكنولوجيا المتقدمة عندهم، قد يكونوا أثروا على اختراع سقف الخيام الحجري (الخيام كانت معروفة خشبية في روسيا وأوروبا قبل فترة طويلة). وفقاً لاحدى الفرضيات، المهندس المعماري الإيطالي بيتروك مالي قد يكون هو مبتدع كنيسة الصعود في كولومينسكوي، واحدة من أقدم وأبرز الكنائس ذا سقوف الخيام. بحلول القرن السابع عشر، أدى تأثير رسومات عصر النهضة إلى أن تصبح الرموز الروسية نوعاً ما أكثر واقعية، بينما ماتزال تتبع أغلب القواعد القديمة لرسم الرموز، كما شوهدت في أعمال بوقدان سالتانوف، سيمون اوشاكوف، جيوري نيكتن، كارب زولوتاريوف وفانين روس آخرين من تلك الحقبة. وظهر نوع جديد من رسم البورتريه العلماني، سُمي (بالبارسونا - parsúna من - persona أو person والتي تعني الشخص) والذي كان نمطاً تقليدياً بين الرسوميات الأيقونية المجردة وبين الرسوم الواقعي. في منتصف القرن السادس عشر اعتمد الروس الطباعة من وسط اوربا، مع ايفان فيودروف كونها اول طابعة روسية معروفة أصبحت الطباعة منتشرة في العصر السابع عشر، وأصبح تقطيع الخشب منتشر كذلك. أدى ذلك إلى تطوير شكل خاص من أشكال الفنون الشعبية المعروفة باسم الطباعة بـ luboketو lubok كلمة مشتقة من LUB الروسية وهي نوع خاص من الألواح يتم طبع الصور عليه، والتي استمرت في روسيا لفترة طويلة في القرن التاسع عشر عدد من تقنيات عصر النهضة كانت معتمدة من قبل الروس في وقت مبكر بدلاً من أوروبا، وأكتملت لاحقاً لتصبح جزءا من التقاليد المحلية القوية. أغلب هذه التقنيات كانت عسكرية، مثل المدافع التي تم اعتمادها في القرن الخامس عشر على الأقل. مدفع- القيصر - الذي يعتبر أكبر مدفع في العالم من حيث العيار صمم في روسيا وهو تحفة روسية الصنع قام بصناعته آندريه تشوكوف في 1586، واشتهر بزخارفة الغنية البارزة. وتقنية أخرى، وحسب إحدى الفرضيات فإنها قد أتت من أروبا عبر الإيطاليين، التي أحدثت تطورا في

الشراب الوطني الروسي، الفودكا. في وقت مبكر من 1386 جلب سفراء جنوة أول أكوا فيتا الماء الحي إلى موسكو وقدموها إلى العظيم دوك ديمتري دونسكوي. في الغالب فإن الجنويين تمكنوا من الحصول على هذا الشراب بمساعدة خيميائي بروفانس، الذين استخدموا الاختراعات العربية في التقطير لتحويل العنب إلى كحول. دعا راهب بلدية موسكو إيزيدور استخدام هذه التكنولوجيا لإنتاج أول فودكا روسية أصلية.

كان أول من استخدم هذا المصطلح بأثر رجعي هو الفنان والناقد الإيطالي جورجيو فاساري (1511-1574) في كتابه حياة الفنانين (نشر 1550). في الكتاب، حاول فاساري تعريف ما وصفه بالانفصال عن وحشية الفن القوطي: انحطت الفنون مع انهيار الامبراطورية الرومانية، ووحدهم الفنانون من توسكان الذين بدأوا بالخروج من هذا الانحطاط، وكان من أوائلهم تشيمابوي (1240-1301) وجوتو (1267-1337). وفقا لفاساري, الفن العتيق كان المركز لنهضة الفن الإيطالي. على الرغم من ذلك لم تستخدم كلمة رينيسانس الفرنسية الدالة على النهضة، بشكل شعبي ودارج لوصف الوعي الذاتي للحركة الثقافية والمنبعثة من النموذج الروماني حتى نهاية القرن الثالث عشر. أول من عرف عصر النهضة كان جول ميشليه (1798-1874)،في كتابه الصادر عام 1855 تحت عنوان تاريخ فرنسا. وبالنسبة إلى ميشليه، فإن عصر النهضة كان تطورا علميا زكثر منه تطورا في الأدب والثقافة. وأكد أنها امتدت في الفترة من كولومبوس إلى كوبرنيكوس إلى جاليليو، وذلك من نهاية القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر. علاوة على ذلك، ميز ميشيليت بين ماسماه الجودة الغريبة للعصور الوسطى، وبين القيم الديموقراطية والتي اختار، كجمهوري ذو صيت، أن يراها كإحدى سماتها. واعتبر القومي الفرنسي ميشليه أن عصر النهضة كان حركة فرنسية. بالمقابل، قام المؤرخ السويسري جاكوب بوركهارت (1818-1897) في كتابه Die Cultur der Renaissance المكتوب بالإيطالية في

1860، بتعريف عصر النهضة كفترة بين غيوتو ومايكل انجلو في إيطاليا، والتي تقع بين القرن الرابع عشر وأواسط القرن السادس عشر. ونظر إلى عصر النهضة على أنه انبثاق للروح الفردانية الحديثة، والتي كانت مكبوتة في العصور الوسطى. كان كتابه مقروءاً على نطاق واسع، وكان مؤثراً في تطوير التفسير الحديث لعصر النهضة الإيطاليةومع ذلك، فقد اتهم بوركهارت بعرض رؤية هويجية خطية للتاريخ برؤيتها عصر النهضة كأصل العالم المعاصر. في الآونة الأخيرة، كان المؤرخون أقل حرصاً بكثير على تعريف عصر النهضة كعصر تاريخي، أو حتى كحركة ثقافية متماسكة. صرّح المؤرخٌ في جامعة كاليفورنيا بيركلي راندولف ستورن:

بدلاً من فترة ذات بدايات ونهايات محددة ومضمون متناسق فيما بينهما، يمكن أن يُنظر إلى عصر النهضة (وأحياناً كان كذلك) على أنه حركة الأفكار والممارسات التي تجاوب معها مجموعات محددة وأشخاص معروفين بدرجات متفاوتة في أماكن وأزمنة مختلفة. يمكن أن تكون بهذا المعنى عبارة عن شبكة من الثقافات المتنوعة، المندمجة أحيانا، المتصارعة أحياناً أخرى، لا كثقافة واحدة داخل إطار زمني محدد.

هناك نقاش دائر حول الدرجة التي تطور فيها عصر النهضة بناء على ثقافة العصور الوسطى. حرص كل من ميشيليت وبوركهارت في وصف التقدم المحرز في عصر النهضة نحو العصر الحديث. شبه بوركهارت التغيير بحجاب يُزال عن عيون الشخص، مما يسمح له أن يرى بوضوح.

في العصور الوسطى، كلا جانبي الوعي البشري يحلمون نائمين أو نصف مستيقظين من وراء قناع مألوف. الحجاب منسوج من الإيمان، الوهم، والتحيزات الصبيانية، والتي من خلالها كان يُنظر إلى العالم والتاريخ وهم مرتدين أشكال غريبة. يعقوب بوركهارت، حضارة عصر النهضة في إيطاليا.

في المقابل، يشير الكثير من المؤرخين الآن إلى أن معظم الظواهر الاجتماعية السلبية التي كانت مرتبطة في المخيلة العامة بفترة القرون الوسطى -مثل الفقر

والحروب والاضطهاد الديني والسياسي- بدت تصبح أسوأ في عصر النهضة، الذي شهد صعود السياسة الميكافيلية وحروب الدين الفرنسية وفساد عائلة بورجيا البابوية ومطاردة الساحرات المكثف في القرن السادس عشر. الكثير من الذين عاصروا عصر النهضة لم ينظروا إليه على أنه عصر ذهبي على عكس نظرة وتصور المؤلفين في القرن التاسع عشر القرن، غير أنهم أبدوا قلقا من هذه العلل الاجتماعية. مع ذلك، كان الكثير من الفنانين والكتاب ورعاة الفنون المرتبطين بهذه الحركات الفنية، يعتقدون أنهم كانوا يعيشون في عصر جديد ومنفصل تماما عن القرون الوسطى. يفضل بعض المؤرخين الماركسيين وصف عصر النهضة من ناحية مادية، معتبرين أن التغيرات في الفنون والأدب والفلسفة كانت جزءاً من توجه اقتصادي عام للتخلي عن الاقطاعية والاتجاه للرأسمالية، مسببا ذلك في نشوء طبقة برجوازية تملك وقت فراغ كافي من أجل الفنون. اعترف يوهان هويزينجا (1872-1945) بوجود عصر النهضة لكنه تساءل عما إذا كان التغيير إيجابياً أم لا. في كتابه (التراجع في العصور الوسطى)، قال أن عصر النهضة كان في فترة انحدار من العصور الوسطى العليا، مدمراً الكثير مما كان مهماً. اللغة اللاتينية، على سبيل المثال، قد تطورت بشكل كبير من الفترة الكلاسيكية، وهي لا تزال لغة حية تستخدم في الكنيسة وخارجها. لكن هوس عصر النهضة بالنقاء الكلاسيكي أوقف تطور اللاتينية، وتسبب بتراجعها لشكلها الكلاسيكي. اعتبر روبرت لوبيز أنها كانت فترة من الركود الاقتصادي العميق. بينما اعتبر جورج سارتون ولين ثورندايك أن التقدم العلمي ربما كان أقل أصالة وتجديدا مما كان يعتقد. وأخيراً، قال جوان كيلي أن عصر النهضة أدى إلى انقسام أكبر بين الجنسين، مما قلل الوكالة التي كنّ النساء يملكنها خلال العصور الوسطى يرى بعض المؤرخون أن كلمةRenaissance هي كلمة محملة بمدلولات غير صحيحة بالضرورة، فهي تتضمن وبشكل قطعي ولادة جديدة من ما يفترض بأنه عصور مظلمة أكثر بدائية (القرون الوسطى). العديد من المؤرخين يفضلون الآن استخدام مصطلح

الحداثة المبكرة لهذه الفترة، وهي تسمية أكثر حياداً حيث تسلط الضوء على هذه الفـترة كفترة انتقالية بين العصور الوسطى والعصر الحديث.

جاء آخرون مثل روجر أوزبورن للنظر في عصر النهـضة الإيطاليـة كمـستودع مـن الخرافات والمثاليات مـن التـاريخ الغـربي بـشكل عـام، عوضـاً عـن ولادة جديـدة للأفكـار القديمة كفترة ابتكار عظيمة

الفصل الحادي عشر

تاريخ أوروبا في عصر النهضة

النهضة الأوربية

بداية عصر النهضة الأوروبية :

كان الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة عملية بطيئة لم تحدث بين عشية وضحاها , بل وقعت تدريجياً , ولذلك يصعب تعيين تاريخ محدد لنهاية العصور الوسطى في أوربا وبداية العصور الحديثة بها , فكل منهما يمتد ليشمل عدة قرون.

ومن المعروف أن الإنسان في مراحل نموه لا يستطيع أن يحدد يوماً معيناً لانتقاله من مرحلة المراهقة إلى مرحلة الشباب ثم إلى مرحلة الرجولة ثم إلى مرحلة الكهولة . فكل مرحلة تتداخل نهايتها مع بداية المرحلة التي تليها إلى أن تتوارى لتفسح الطريق أمام المرحلة الجديدة . وعندئذ تبرز سماتها واضحة قوية في جسم الإنسان وفي أسلوبه في التفكير والعمل . وكذلك الانتقال من عصر له خصائصه التي درج عليها الناس أفراداً وجماعات أحقاباً طويلة في السياسة والاقتصاد والاجتماع والعلوم والفنون وما إلى ذلك إلى عصر أخر يختلف عن سابقه اختلافاً جذرياً في كل هذه الأفاق لا يحدث فجأة فلابد أن تمر بين العصرين فترة انتقال قد تطول وقد تقصر حتى تستقر المفاهيم الجديدة في أذهان الناس , وتصبح دعائم ثابتة ومظاهر جديدة العصر الجديد . وفترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة في أوربا يطلق عليها عصر النهضة الأوربية Reoaissaoce أي المولد الجديد أو البعث الجديد , وهي تغطي فترة زمنية تمتد بضعة قرون , وتستمر ذيول النهضة في حركة البعوث الكشفية الجغرافية وفي صورة حركات الإصلاح الديني والصراع المدني من أجل العقيدة بين قوتين كبيرتين هما الكاثوليكية , والبروتستانتية.

أثر الحضارة الإسلامية في قيام النهضة الأوربية :

يطلق اسم العصور المظلمة في التاريخ الأوربي على الشطر الأول من العصور الوسطى خلال الفترة الواقعة بين سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس الميلادي وقيام (النهضة الوسيطة) في أواخر القرن الحادي عشر . وقد رانت على أوربا خلال هذه القرون الستة سحابة كثيفة الإظلام من التخلف الحضاري : توارت معالم الحضارة الرومانية تدريجياً من إيطاليا وفينيسيا وأسبانيا وانجلترا وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة للإمبراطورية الرومانية , واضمحلت المدن الزاهرة وأغلقت المدارس وانتشرت الجهالة . ولم يبق أثر للحضارة والعلم والثقافة في أوربا الغربية إلا بصيص خافت يبعث من المؤسسات الدينية الجديدة مثل المدارس الديرية والمدارس الأسقفية أو الكاتدرائية . وكانت البابوية تشرف على توجيه الدراسة في هذه المدارس وتخطط للسياسة التعليمية فيها بما طبع الثقافة بطابع ديني ضيق متزمت[1]وقد ساعد على انتشار الجهل والانحطاط العلمي أن الجرمان الذين أقاموا لهم ممالك في غرب أوربا على أنقاض الدولة الرومانية كانوا يظهرون نفوراً شديداً من التعليم[2], كما أن بعض الباباوات كانوا لا يشجعون سوى الدراسات الدينية المسيحية ويحاربون ما عداها من دراسات محاربة عنيفة لا هوادة فيها وكان من بين هؤلاء الباباوات البابا الذي أطلق عليه مؤرخو العصور الوسطى جريجوري العظيم .

حدث هذا في الوقت الذي كان فيه المسلمون يمضون قدماً في إقامة بنيان حضاري شامخ , ويضربون أروع الأمثلة في حرية الفكر وتشجيع البحوث وسرعة

[1] - أدخلت الكنيسة في البرامج التعليمية ما يسمى الفنون السبعة الحرة , وهي : النحو والبلاغة والجدل والحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وكان تدريس هذه المواد يقوم على أسس مسيحية , لأن المدارس تحولت في أوربا الغربية إلى تحقيق هدف واحد هو تخريج رجال الذين بعد إعدادهم للقيام بمهتم في المجتمع , وهي إفهام الناس روح الإنجيل.

التطور . وقد كان أثر الإسلام والمسلمين في التاريخ خلاقاً مبدعاً لم يقف عند حد التغيرات السياسية التي أحدثوها في أوضاع العالم المعروف , وإنما كان هذا الأثر أشد ما يكون وضوحاً في الميدان الحضاري.

وقد أخذت الحضارة الإسلامية تزحف إلى أوربا منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي , وسلكت في طرقها عدة معابر أهمها ثلاثة , وهي شبه الجزيرة العربية أولا, وجزيرة صقلية ثانياً , وبلاد الشرق الأدنى وما ارتبط بها من حروب صليبية ثالثاً.

فلما أفاقت أوربا الغربية في أواخر القرن الحادي عشر من سبات الفترة المظلمة وجدت نفسها أمام حضارة إسلامية عملاقة أسهمت بنصيب موفور في كل ميادين العلم والمعرفة , وكان أن هرع طلاب العلم من مختلف أنحاء أوربا الغربية إلى مراكز الحضارة الإسلامية ينهلون من مواردها : يدرسون ويترجمون ويقتبسون الكثير من معالم الحضارة الإسلامية . وقد ترتبت على هذه الدراسة والترجمة ولاقتباسات نتيجة هامة , هي قيام وثبة حضارية ازدهرت في القرن الثاني عشر يطلق عيها اسم (النهضة الوسيطة) إلى تمهيد طريق الرقي وتحرير العقل الأوربي من القيود الثقيلة التي فرضتها عليه الهيئات والأنظمة المختلفة , وأصبحت النفوس مهيأة لقبول الانقلاب العظيم الذي حدث بعد قرن وبعض قرن , أي في بداية القرن الرابع عشر , ونعني بهذا الانقلاب النهضة الأوربية الحديثة.

إن الحضارة الأوربية الحديثة نستمد أصولها من النهضة الأوربية التي بزغت في إيطاليا منذ مطلع القرن الرابع عشر , وهذه ترجع جذورها إلى النهضة الوسيطة في القرن الثاني عشر والتي هي ثمرة من ثمار الاتصال الحضاري بين أوربا الغربية وبين مراكز المدينة الإسلامية . ومعنى ذلك أن الحضارة الأوربية الحديثة قامت على أساس واضح من المنية الإسلامية بجميع فروعها ومظاهرها.

لماذا بدأت النهضة في شبه الجزيرة الإيطالية ؟

بدأت النهضة الأوربية في مدن شبه الجزيرة الإيطالية وازدهرت فيها , ثم انتقلت إلى الدول الأوربية . ويرجع هذا السبق الإيطالي في قيام النهضة بها عدة عوامل , تذكر منها :

أولاً : الرخاء الاقتصادي :

تمتعت المدن الواقعة في شبه الجزيرة الإيطالية مثل البندقية وجنوه برخاء اقتصادي , نتيجة اشتغالها واحتكارها التجارة الشرقية , إذ كان أهالي هذه المدن ينقلون المتاجر من ثغور مصر والشام إلى المواني الإيطالية , واستنارت أفكارهم بما اقتبسوه من حضارة أمم كانت أعرق منهم مدنية .

ثانياً : عهد الحضارة الرومانية :

كانت شبه الجزيرة الإيطالية مهد الحضارة الرومانية , وكانت البلاد الإيطالية تزخر بقدر كبير من تراث هذه الحضارة التليدة من مبان وتماثيل ونميات ومخطوطات ونقوش وما إلى ذلك على الرغم من أنها تعرضت لغزو القبائل المتبربرة وتدمرها , شأنها في ذلك شأن بقية الولايات الرومانية , وسيطر على أذهان الإيطاليين اعتقاد راسخ بأنهم حفدة الرومان وورثتهم , وأنهم أجدر الناس بالقيام على إحياء تراث الرومان واستعادة أمجادهم . وكانت الآثار الرومانية بين ظهرانيهم أمثلة حية على سلوك هذا الاتجاه , فأخذوها في التصوير والنحت والنقش والعمارة وما إلى ذلك . أما الحضارة الإغريقية فقد قامت في الأقاليم التي كانت جزء من الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية .

ثالثاً : تمتع ايطاليا بالسلام :

تمتعت شبه الجزيرة الإيطالية بالسلم أحقاباً طويلة حتى لاح لشارل الثامن ملك فرنسا غزوها إبان الحروب الإيطالية . وبذلك تهيأ للنهضة في إيطاليا المناخ

الصحي للنمو والازدهار . ومن المعروف أن النهضات العلمية تزكو إذا توفر لها الأمن والهدوء والرخاء والسلم . فكل أولئك تشكل أجنحة ظليلة النهضات العلمية.

رابعاً : قيام حكومات مستنيرة قوية في المدن الإيطالية :

من الخصائص التي تميزت بها الحياة السياسية في إيطاليا انقسام البلاد إلى دويلات سياسية وقيام حكومات مستنيرة فيها احتدم بينها التنافس على تشجيع الآداب والفنون , وقد حكمت فيها أسرات تركت بصماتها قوية في تاريخ البلاد , نذكر منها على سبيل المثال : أسرة مدتشي Medicis وقد حكمت فلورنسا وأسرة فيسكونتي Vigconti وقد سيطرة على ميلان وأسرة بورجيا Borgia وقد قبضت بيد من حديد على الولايات البابوية , ولجأ كثير من حكام هذه الأسر إلى النظام الاستبدادي أسلوباً في الحكم للاحتفاظ بسلطتهم . ومن هنا انطلق عليهم اسم (الطغاة) وعلى حكمهم (حكم الطغاة) وعلى الرغم من هذا الطابع الاستبدادي الذي اتسم به حكمهم (حكم الطغاة) فقد كان من أبرز ما تميزوا به هو تشجيعهم العميق للعلماء والأدباء والفنانين ومن إليهم . وكان بلاط أولئك الطغاة تهوي إليه أفئدة هؤلاء الأعلام مما ساعدهم على مزيد من النبوغ والإبداع والإنتاج.

خامساً : تأسيس المكتبات :

تنافست المدن المختلفة على إنشاء المكتبات واقتناء أنفس الكتب وأغلى المخطوطات وأبدع الصور , وهكذا تناثرت في شبه الجزيرة الإيطالية مكتبات زخرت بالمخطوطات والمجلدات والكتب وغيرها . ونذكر في عالم المكتبات أسرة مدتشي الحاكمة في فلورنسا , فقد شيد كوزمودي مدتشتي Cogme de Medicig مكتبة في مدينة البندقية خلال الفترة التي كان منفياً بها , ودعم مكتبة سان ماركو في فلورنسا وجمع لها المخطوطات , واهتم البابا نيقولا الخامس بمكتبة الفاتيكان واقتنى لها الكتب القديمة النادرة حتى أصبحت المكتبة على عهده تضم قرابة اثني عشر ألف مجلد .

سادساً : المجامع العلمية:

ويطلـق عليهـا أيـضاً الأكاديميـات . وقـد أسـهمت في نـشر الدراسـات الإغريقيـة واللاتينية , إذ كانت بمثابة حلقات ثابتة للبحث والتدريس يلتقي فيهـا الأسـاتذة ويلقـون المحاضرات تعقبها المناقشات العلمية الموضوعية العميقة , ويشترك فيها الأساتذة المحاضر وطلابه الدارسون . وقد حوت هذه المجامع العلمية ألواناً مختلفة من الدراسات القديمـة مثل الفلسفة الإغريقية والموسيقى والرسم . وكانت الأكاديمية أشبه ما تكون بجامعـة غـير رسمية.

وقـد تنافـست الأسرات الحاكمـة في المـدن المختلفـة في إنـشاء المجـامع العلميـة وتدعيمها ودعوة كبار الأساتذة لزيارتها وإلقاء المحاضرات بها . وقد فاقت فلورنـسا سـائر المدن في هذا المضمار بفضل رعاية أسرة مدتشي للآداب والفنون . أنشأ كوزمو دي مدتشي أكاديمية أفلاطون , وكانت أشهر الأكاديميات التي شهدتها شـبه الجزيـرة الإيطاليـة , وكـان كوزمو من أنصار نشر آثار افلاطون باللغة الإيطالية , ووقع اختياره على فرد معـين توسـم فيه النبوغ , هو مارسيليوفيشينو Marsilio Ficino فشمله برعايته وجعلـه يتخـصص في دراسة اللغة الإغريقية حتى يستطيع أن يقوم بالمهمة العلمية التي عهـد بهـا إليـه وهـي التوفيق بين تعاليم المسيحية وبين الفلسفة الإغريقيـة الوثنيـة , وقـد انكـب عـلى دراسـة أفلاطون وأخرج عدة مؤلفات عنه كما ترجم بعض كتبه . وبعد وفات كوزمـودي مدتـشي تعهد حفيده لورنزو هذه الاكادمية , وكان يجمع أعضائها تارة في قصره في فلورنسا , وتارة في بيته الخاص المقام على ربوة وسط المرتفعات القريبة من المدينة .

وتأسـست في رومانيـة أكاديميـة عـلى يـد جوليـوس لاتيـوس Julius Loetus وجعلت مقراً للدراسات التاريخية والآثار . وكان معظم أعضائها من كبار رجال الدين المتخصصين في اللاتينية . وشهدت نابولي تأسيس أكاديمية عـلى يـد الفـونس الخـامس حـاكم نـابولي , وتخصـصت هـذه الأكاديميـة في دراسـة الآداب . وقامـت أكاديميـة

أخرى في البندقية أسمها الأكاديمية الجديدة , أسسها ألدو مانوزيو Aldo Manuzio واهتمت بالدراسات الإغريقية وأخرجت بعضاً منها إلى عالم الطباعة . لأن مؤسسها ألدو كان صاحب دار طباعة , فدفع إلى مطابعه ببعض الكتب القديمة , وسنعرض لهذه الشخصية بعد حين .

سابعاً : الموقع الجغرافي :

اكتسبت شبه الجزيرة الإيطالية أهمية كبرى بسبب مركطزها الجغرافي . فهي تقع في وسط البحر المتوسط الذي قامت على ضفافه أقدم الحضارات وأعرقها , وفي وقت كان فيه هذا البحر مركز النشاط الاقتصادي في العالم . وكانت المدن الإيطالية هي حلقة الاتصال بين أوربا وبين الحوض الشرقي للبحر المتوسط وبلاد الشرق . وكانت بفضل موقعها من أقرب الأقاليم الأوربية إلى الدولة البيزنطية فكان العلماء البيزنطيون يتخذون طريقهم إلى بريطانيا , إما أساتذة زائرين يلقون المحاضرات وينشرون من الدراسات الإنسانية ألواناً متعددة , وإما مهاجرين إلى إيطاليا للإقامة الدائمة . ومن ناحية أخرى كان الإيطاليون المنهومون بالعلم ينزحون إلى الدولة البيزنطية للتعمق في دراسة اللغة الإغريقية وآدابها وفنونها , ثم يعودون إلى بلادهم حملة المشاعل الفكرية .

ثامناً : طبيعة الشعب الإيطالي :

اشتهر الشعب الإيطالي بميل طبيعي للحياة الفنية بكل صورها وأشكالها , وظهر هذا الميل في شغفة بإمتاع العين والأذن والنفس بالجمال الحسي والمعنوي وقد فتن بالموسيقى والرقص والأغاني والتصوير والنحت والعمارة والشعر وغير ذلك في أنواع الآداب والفنون . أما الحياة العسكرية والمعارك الحربية فقد باعد الشعب الإيطالي بينه وبينها , وعهد حكامها بها إلى جنود مرتزقة , كانت غالبيتهم من الألمان والسويسريين . وقد أوجدت هذا الميل الفني في الشعب الإيطالي ثم عمقته العوامل السابقة , وقد مقدمتها الرخاء الاقتصادي والحياة المرحة التي كانت تموج بها قصور

الأمراء حكام المدن الإيطالية , والناس على دين ملوكهم أو أمرائهم , وجمال المناظر الطبيعية الخلابة التي تشتهر بها كثير من جهات إيطاليا , والمجد القديم الذي عاش في ظلاله إيطاليو عصر النهضة وروعة التراث الفني الذي خلفه لهم الرومان . وقد أدت هذه العوامل وغيرها مجتمعة إلى تفجير طاقات عقلية وفنية , وظهرت مواهب متفتحة نحو الفن أخذ الحكام الأمراء بيد أصحابها وأجزلوا لهم العطاء , ومن ثم برز الموهوبون الخلاقون المبدعون , عاشوا وأنتجوا في مجتمع حساس مرهف , وبلغت الحياة الفنية في إيطاليا بهذا الفيض المفرط من العبقرية الفنية مستوى رفيعاً لم تبلغه في غيرها من البلاد الأوربية .

تاسعاً : مقر البابوية :

على الرغم من أن روما فقدت مركزها السياسي الرفيع كعاصمة للإمبراطورية الرومانية الغربية حين سقطت على يد أودوا كر Odoacet فإنها غدت في العصور الوسطى مقر البابوية وقبلة العالم المسيحي الغربي . وكان سقوط الإمبراطورية قد جعل من البابوية القوة الوحيدة القائمة التي التف حولها المسيحيون في الغرب طوال القرون التالية , ورأوا فيها الزعامة والسند الكفيل بحمايتهم الأمر الذي أضفى على شبه الجزيرة الإيطالية مكانة ممتازة لم تتوافر لغيرها من البلاد الأوربية , وهكذا كانت الزعامة الدينية للبابا عاملاً هاماً أكسب الإيطاليين شعوراً بنوع السيطرة الدينية على بقية أنحاء أوربا . وقد أصاب الإيطاليون كسباً آخر من الناحية المدية نتيجة وجود مقر البابوية في بلادهم إذ كانوا يظفرون بمعظم وظائف الكنيسة , وكانوا يتقاضون مرتبات ضخمة منها .

وقد يتبادر إلى الذهن أن وجود مقر البابوية في روما يعتبر معوقاً يحول دون ازدهار النهضة في شبه الجزيرة الإيطالية بمقولة أن الكنيسة كانت تفرض قيوداً شديدة على حرية الفكر والرأي والتعبير , وأن الكنيسة أصبحت مثالاً صارخاً للجمود والتزمت , وكانت توجه اتهاماتها بالكفر إلى كل من تحدثه نفسه بالدعوة إلى التحرر

الفكري . والواقع أنه كان من الممكن أن تقف البابوية موقف المعارضة من النهضة وتعمل على وأدها , لولا أنها تحولت في نهاية العصور الوسطى إلى ما يمكن تسميته (إمارة علمانية) ذات أطماع سياسية واسعة تعتمد على الغدر والنفاق وإشعال نار الحروب ابتغاء إخضاع أجزاء من شبه الجزيرة الإيطالية سياسياً للبابا , ومن ثم غدا البابا - بجانب صفته الدينية كرأس الكنيسة المسيحية الغربية - حاكماً دنيوياً لا يختلف عن الملوك والأمراء المعاصرين له : كانت له أقاليم يحكمها ويسيطر عليها بواسطة أجهزة حكومية تابعة له , دب في أوصالها الفساد من تفشي المحسوبية والرشا, وكان له بلط يعج بالموظفين وتفوح منه رائحة المجون والفسق إلى حد فاق ما كان يموج به بلاط الملوك والأمراء المعاصرين من تبذل وتهتك . وبينما كان المسيحيون في دول شمال أوربا يستهجنون انغماس البابوية وبلاطها في الملذات , كان الإيطاليون ينظرون إلى هذا الانحدار الخلقي الذي تردت فيه البابوية كأنه أمر عادي . وكان كل ما يثير اهتمام الإيطاليين هو استمرار بقاء المقر البابوي في روما كي تتدفق على بلادهم الأموال التي يجيء بها من البلاد الأوربية مبعوثو البابوية . وكان البابوات ينفقون بعضها في النهوض بالعلم ونشر المعرفة بإنشاء المكتبات وشراء المخطوطات واقتناء الكتب وإقامة الأكاديميات وجميع الكنوز الفنية وتجميل مدينة روما نفسها بعد الإهمال الشديد الذي تعرضت له ردحاً طويلاً من الزمن منذ فترة الأسر البابلي في مدينة أفنيون Avignon الفرنسية وجعلها مركزاً للعلم والثقافة و ومن ثم أخذ البابوات ينافسون الأمراء الإيطاليين في تشجيع الآداب ورعاية الفنون , وكان الأدباء والفنانون يهرعون إلى بلاط البابا يطمعون في كرم العطاء . ويطلق على هؤلاء البابوات في التاريخ الأوربي الحديث اسم (بابوات النهضة) ويحتل البابا نيقولا الخامس صفحة مشرقة في تاريخهم الوضئ . انحدر من أب فقير كان يشتغل بدق أجراس الكنيسة , وأولع ابنه بالدراسات الإنسانية , ولما وقع عليه الاختيار ليشغل منصب البابا بسط رعايته على رجال الفنون والآداب , وأنشأ مكتبة الفاتيكان ذات الشهرة الواسعة .

وبلغت رعاية بابوات النهضة للفنون الأوج حين شرع البابا ليو العاشر Leon X وهو من أسرة مدتشي كنيسة القديس بطرس .

خصائص النهضة الأوربية :

ظهرت النهضة واسعة شاملة , وكانت في حقيقة أمرها امتداداً لما سبقها من تيارات حضارية شهدتها أوربا في العصور الوسطى , لأنه من الثابت تاريخياً أن راكب الحضارة لم يتوقف في أوربا إبان العصور الوسطى , وأن هذه العصور لم تخل من وثبات حضارية. وقد تميزة النهضة الحديثة بعدة خصائص , مكنها : أنها كانت علمانية , أي لم تنشأ في رحاب الكنيسة والخروج على تعاليمها . كما جاءت النهضة بمفاهيم جديدة وآراء جديدة , وأحدثت تغيرات جذرية تسللت إلى مختلف القطاعات السياسية والدينية والثقافية والفنية والاجتماعية .

واعتمدت النهضة في نموها وانتشارها على المركز القوي الذي سمت إليه المدن في نهاية العصور الوسطى فقد نجحت المدن في أن تصبح وحدات سياسية حرة في وسط إقطاعي متزمت , وأن تغدو مهاداً للطبقة الوسطى ونمو الشعور القومي , وأن تكون معول هدم في بنيان النظام الإقطاعي والحد من نفوذ الكنيسة . وقد تجمعت في المدن الثروات , وبخاصة الأموال السائلة , ولأن سكان المدن اعتمدوا على التجارة والصناعة وابتعدوا عن سيطرة النبلاء الإقطاعيين في إقطاعياتهم الزراعية . ولذلك فإن النهضة الأوربية قامت في لخمتها وسداها على أكتاف سكان المدن , وهم أفراد الطبقة الوسطى , وكانت هذه المدن مراكز صالحة للإشعاع الفكري والفني والقومي والحضاري , ومهاداً للنشاط الاقتصادي والسياسي في أوربا.

ومن خصائص النهضة أن الفرد ظهر فيها متمتعاً بشخصية مستقلة له حرية الرأي والتصرف , وأصبح الخلية الأولى في بناء المجتمع , فلم يعد الفرد يذوب في جماعة أو طائفة أو نقابة ينتمي إليها , بل تعددت امامه طوال العصور الوسطى بسبب استبداد النظام الإقطاعي وصرامة تعاليم الكنيسة , ولم يكن أمام الشخص الطموح

المغمور سوى الانتظام في سلك الكهنوت ابتغاء الوصول في نهاية الشوط إلى منصب كبير في الكنيسة يدر عليه مرتباً ضخماً .

ومن خصائص النهضة أيضاً أنها لم تظهر في جميع البلاد الأوربية في وقت واحد , بل ظهرت فيها تباعاً : بدأت في مدن شبه الجزيرة الإيطالية حتى إذا اكتملت واستوى عودها تسربت أو انتقلت إلى سائر البلاد في غرب أوربا .

مظاهر النهضة الأوربية :

كانت من أولى مظاهر النهضة بعث الدراسات الإغريقية واللاتينية , وإنشاء مؤسسات علمية مثل الأكاديميات والمكتبات ترعى هذه الدراسات , والاهتمام بدراسة علوم الآثار والتاريخ , ثم النهوض بالفنون الجميلة من نحت وتصوير وغيرهما , وظهور مخترعات جديدة لتكون في خدمة الإنسان , وكان على رأسها الطباعة , وقد ساعدت على دعم الدراسات الإغريقية واللاتينية ونشرها , واستكشاف البارود وما نجم عنه من ثورة في النظم الحربية , والاهتداء إلى عدة ألات نافعة مثل الإسطرلاب[1]والبوصلة أو الإبرة المغناطيسية والدفة المتحركة وغيرها من أدوات كان لها الفضل الأكبر في توسيع نطاق الملاحة البحرية وتسهيل البعوث الكشفية الجغرافية , ونشأة اللغات القومية الحديثة في كثير من دول اوربا مثل اللغة الإيطالية واللغة الفرنسية واللغة الأسبانية , وانتشار المؤلفات بهذه اللغات .

ومن مظاهر النهضة أيضاً التغييرات العميقة التي حدثت في المجتمع الأوربي وبخاصة المجتمع الإيطالي من تقديس الجمال والتمتع بملذات الحياة والارتفاع بمركز المرأة والانغماس في حياة المجون والفسق .

كما كان من أهم مظاهر النهضة حركة الكشوف الجغرافية وما أسفرت عنه من كشف العالم الجديد وأصقاع أخرى من العالم وتنظيم طرق ملاحية جديدة عبر المحيطات والبحار .

[1] - الإسطرلاب: آلة تستخدم في تقدير المسافات وتعيين اتجاه السفينة وهي في أعالي البحار .

حركة إحياء الدراسات القديمة :

يطلق على هذه الحركة الفكرية اسم الدراسات الإنسانية أو الحركة الإنسانية L Humanigme وهي تشمل عنصرين أساسيين هما : الدراسات الإغريقية والدراسات اللاتينية , ولم تكن هذه الدراسات حركة شعبية كما أنها لم تنبثق من داخل الجامعات, بل ظهرت خارجها . وكان هذا الوضع أمراً طبيعياً , لأن الجامعات كانت توجه معظم اهتمامها إلى دراسة العلوم العملية وبخاصة الطب . وقد ظلت الجامعات حقبة طويلة معادية للدراسات الإنسانية , واعتمدت هذه الدراسات على التشجيع المادي والأدبي الذي أضفاه حكام المدن الإيطالية على المشتغلين بها .

وقد استهوت الدراسات الإغريقية واللاتينية أفئدة الكثيرين من الأوربيين في ذلك الوقت , واعتقدوا أنها أروع وأرقى وأجمل ما يمكن أن تتجه عقول البشر , وأن الفرد لا يمكن أن يتبوأ مكاناً علياً في المجتمع ما لم يكن على حظ موفور من هذه الدراسات . ولعل هذا الاهتمام العميق بإحياء الدراسات الإغريقية واللاتينية هو السبب الذي جعل فريقاً من الباحثين يطلقون خطأ على النهضة اسم حركة (إحياء العلوم) والواقع أن حركة إحياء العلوم لم تكن إلا مظهراً من مظاهر النهضة .

قامت هذه الحركة على دراسة المخطوطات القديمة . وكانت الكاتدرائيات والكنائس والأديرة تزخر بعدد وافر من هذه المخطوطات , وكانت على نوعين : المخطوطات الإغريقية والمخطوطات اللاتينية في شبه الجزيرة الإيطالية وفي سويسرا والولايات الألمانية وغيرها من بقاع أوربا . وقامت الأسرات الحاكمة في المدن الإيطالية بتمويل عمليات البحث عن المخطوطات وشرائها حتى أصبحت هذه الظاهرة سمة بارزة مشتركة بين حكومات المدن الإيطالية انقلبت إلى منافسة حادة بينهما . اما المخطوطات الإغريقية فقد اتجهت الأنظار بشأنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية . ونشات تجارة واسعة نشيطة المخطوطات , وكانت القسطنطينية قبل سقوطها في يد الأتراك العثمانيين مركز هذه التجارة . وكان يقصدها عملاء من

حكومات المدن الإيطالية يقتنون المخطوطات الإغريقية , او دارسون موفدون من قبل هذه الحكومات يدرسون اللغة الإغريقية في القسطنطينية ويجمعون في أثناء دراستهم عدداً وافر من المخطوطات , وعن طريق العملاء والدارسين مما انتقلت مجموعات ضخمة من المخطوطات الإغريقية إلى مدن شبه الجزيرة الإيطالية .

وتأسيساً على هذه الوقائع الثابتة تاريخياً , بين خطأ الرأي الشائع بين جمهرة كبيرة من الباحثين , وهو أن فتح الأتراك العثمانيين القسطنطينية أدى إلى ظهور حركة إحياء الدراسات الإغريقية في شبه الجزيرة الإيطالية بسبب هجرة عدد ضخم من العلماء البيزنطيين من وجه الأتراك العثمانيين والتجائهم إلى إيطاليا حيث استقر بهم المقام وباشروا نشاطاً علمياً واسعاً . والحق أن هذه الحركة الفكرية – ونعني بها حركة إحياء الدراسات الإغريقية – قد ظهرت في إيطاليا قبل سقوط القسطنطينية بخمسين سنة على الأقل حين جذبت طلائع الحركة الفكرية عدداً كبيراً من العلماء البيزنطيين إلى الهجرة في مطلع القرن الخامس عشر إلى إيطاليا , حيث طاب لهم المقام في مدنها لما كان يغمرهم به حكام هذه المدن من رعاية مادية وأدبية . وعلى ذلك فإن سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين لم يكن السبب الرئيسي في ظهور حركة إحياء الدراسات الإغريقية في شبه الجزيرة الإيطالية , بل يمكن القول إن هذا الحادث الحربي لم يكن سوى عامل ساعد على ازدهار هذه الحركة . ومن الحقائق الثابتة أيضاً أنه حدث قبل سقوط القسطنطينية تقارب فكري بين الدولة البيزنطية وبين المدن الإيطالية التي اشتهر حكامها بتشجيع العلوم والفنون والآداب , وتبودلت الزيارات العلمية من الجانبين , فقام عدد من الدارسين الإيطاليين بزيارة القسطنطينية للتخصص في دراسة اللغة الإغريقية على يد كبار أساتذتها , وكانت العاصمة البيزنطية معقل الدراسات الإغريقية ذات المستوى الرفيع , كما وفد تباعاً إلى فلورنسا وغيرها من المدن الإيطالية نخبة من العلماء البيزنطيين , ويمثل الفريق الأول بوكاشيو Giovanni Bocaccio ذهب إلى القسطنطينية ينشد التعمق في الدراسات الإغريقية , ويمثل الفريق الثاني

كريزولوراس Chrysoloras من أهالي القسطنطينية , أوفده إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية في مهمة سياسية لدى الحكومات القائمة في شبه الجزيرة الإيطالية يسعى للحصول على مساعدتها ضد الأتراك العثمانيين الذين ازداد ضغطهم العسكري على آسيا الصغرى في زحفهم المرتقب نحو القسطنطينية . وحدثت اتصالات علمية في فلورنسا بين كريزولوراس وبين علمائها الذين قدروا فيه غزارة العلم . فلما عاد إلى القسطنطينية ظل علماء فلورنسا على اتصال وثيق به , وعرضوا عليه القدوم إلى فلورنسا ليتولى تدريس اللغة الإغريقية بها . وقد وافق على العرض وعاد إلى فلورنسا. وكان وجوده كسباً كبيراً للحركة الفكرية في إيطاليا فقد كان كريزولوراس يمثل بحق الأساتذية الشامخة في الأداب الإغريقية وسرعان ما تجمع حوله عدد من تلاميذه المتحسمين كونوا مدرسة فكرية إغريقية برزوا بروزاً واضحاً قوياً في نشر الدراسات الإنسانية في شبه الجزيرة الإيطالية , ولم يكن نشاط كريزولوراس مقصوراً على فلورنسا , فقد كان ينتقل بينهما وبين ميلان والبندقية وباقي يحاضر في كل منها .. وشعر مواطنوه العلماء البيزنطيون بالتقدير العميق الذي ظفر به كريزولوراس حيثما حل في المدن الإيطالية , وأدركوا أن هذه المدن في حاجة إلى الأساتذة المتخصصين في اللغة الإغريقية وآدابها , فأقبلوا على الهجرة إلى إيطاليا مدفوعين بالرغبة في الظفر بالمرتبات العالية التي تدفعها لهم الحكومات المدن الإيطالية . ثم جاء سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين فقضى على تردد العلماء البيزنطيين في الهجرة إلى إيطاليا , ومن ثم شدوا رحالهم إليها , الأمر الذي ساعد على إنعاش الدراسات الإغريقية في إيطاليا , بعد أن كانت هذه الدراسات قد قطعت شوطاً بعيداً في طريق الازدهار .

وفي نفس الوقت الذي بذلت فيه الجهود لإحياء الدراسات الإغريقية كانت حركة إحياء الدراسات اللاتينية تسير هي الأخرى قدماً نحو الازدهار . وكان وراءها عامل هام يدفع بها خطوات واسعة سريعة ويميزها عن الدراسات الإغريقية .

كان الإيطاليون ينظرون إلى اللغة اللاتينية على أنها لغة الحضارة الرومانية , بها سطرت صفحات المجد والخلود . ولما كانوا يعتبرون أنفسهم حفدة الرومان وورثة حضارتهم - كما سبق أن ذكرنا - فقد جاشت في نفوسهم عاطفة وطنية تشابكت وتداخلت مع رغبتهم في الإقبال على الدراسات اللاتينية .

كان من وراء هذه الدراسات عالم إيطالي هو : بترارك Petrarque انصرف إلى دراسة اللغة اللاتينية , حتى سيطر عليها سيطرة تامة , وأجاد الكتابة بها على نمط الأسلوب اللاتيني القديم , واستهوت اللغة اللاتينية فؤاده , وشغف بها شغفاً عظيماً حملة على احتقار اللغة الإيطالية , حتى انه نعى على دانتي شاعر إيطاليا استخدامه اللغة الإيطالية . وكان بترارك يعتبر اللاتينية لغة الآداب الرفيعة ويقيس ثقافة الفرد بمقدار إلمامه باللغة اللاتينية .واستطاع بفضل تمكنة من هذه اللغة أن يتذوق الاتجاهات الإنسانية التي حفلت بها كتابات الرومان فجعلت منه عالماً عملاقاً يمثل طرازاً جديداً من رجال الفكر يختلف عن أقرانه مفكري العصور الوسطى . وقد توفر على جمع المخطوطات اللاتينية والنقوش والنميات , ثم عمل جاهداً على نشر الدراسات الإنسانية وتشجيعها وتنشيطها حتى أطلق عليه (والد الإنسانية) ونجح في تكوين مدرسة فكرية تنتمي إليه , وتتكون من مثقفين متحمسين للدراسات الإنسانية .

وكان بترارك يمثل في معظم كتاباته روح العصر الحديث , فهو في تفكيره السياسي يبدي أسفه العميق على الانقسامات السياسية التي تمزق وطنه الحبيب وعلى قيام عدد كبير من الإمارات والحكومات المتشاحنة المتنافرة , وطالب بضرورة قيام وحدة سياسية تنشر ظلها الظليل على جميع أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية . وقد ألف باللغة اللاتينية أيضاً ملحمته الشهيرة : أفريقيا Africa سرد فيها حوادث الحروب التي اندلعت بين روما وقرطا جنة ولم يتح له إكمالها .

ولقيت الدراسات الإنسانية في اختراع الطباعة خير معين لها على الذيوع والانتشار . والطباعة - شانها في ذلك سأن الدراسات الإنسانية -مظهر من مظاهر

النهضة الإوربية , وهي أهم اختراع ظهر في عصر النهضة , بل هي من أعظم الاختراعات التي شاهدتها الإنسانية وأسهمت في إثراء الحياة العقلية على مر العصور والأحقاب . وإذا كان حنا جوتنبرج Jean Gutenberg الألماني وهو من مدينة ماينز Mayence على الضفة الغربية لنهر الراين – قد أدخل على الطباعة تحسينات كثيرة قفزت بها إلى الأمام خطوات واسعة , فسرعان ما تلقفها الإيطاليون , وأدخلوها بحروف معدنية إلى بلادهم وكانوا في هذا المضمار أسبق من الفرنسيين الذين جاءوا بها إلى باريس ومن الإنجليز وأهل السويد والأسبان ويتصل الورق بالطباعة اتصالاً وثيقاً . وفي العصور القديمة كان ورق البردي يستخدم في الكتابة , وفي العصور الوسطى حلت محله رقائق جلود الأغنام وكانت هذه الرقائق باهظة التكاليف , فكان الناس يعمدون إلى محو الكتابات القديمة من الرقائق لإعادة استخدامها أكثر من مرة , وفي عصر النهضة كشف الورق . وكان النجاح في صنعه هو الذي مكن الطباعة من أداء رسالتها.

وثمة ملاحظة هامة هي أن صاحب المطبعة كان يجمع بين إلمامه التام بفن الطباعة وبين العلم الغزير والثقافة الواسعة . ومن أبرز أعلام الطباعة الإيطاليين ألدو مانوزيو تعمق في دراسة اللغتين الإغريقية واللاتينية , وغدا متخصصاً في النقد والنحو وتاريخ الأدب وعلم الأخلاق ثم رحل في سنة 1490 إلى البندقية حيث أسس أكاديمية البندقية . وأطلق عليها الأكاديمية الجديدة , وتخصصت في الدراسات الإغريقية وأنشأ ألدو أيضاً مطبعة عرفت باسمه لينشر فيها روائع الأدب الإغريقي , واستعان بعدد من اليونانيين من سكان جزيرة كريت المهاجرين , كانوا ينسخون له المخطوط لإعداده للطبع . وألحق بالمطبعة قسماً للتجليد وآخر لصناعة حبر الطباعة , وأخذت هذه المؤسسة تصدر في تتابع كتباً قليلة التكاليف جعلت الدراسات الإنسانية في متناول الكثيرين . وكان إخراج الكتب جميلاً ومتقناً ورائعاً . وكما يقول هربرت

فيشر (استطاع السيد البندقي وهو يناسب بجندوله في القناة الكبرى أن يتمتع بمباهج هوميروس في مجلد صغير أوضح ما يكون طباعة).

ظهور اللغات الحديثة :

كانت اللاتينية هي لغة العلم والكتابة في العصور الوسطى دون بها العلماء ثمرات قرائهم , ثم تضائل استخدامها حتى أصبحت مقصورة على رجال الكنيسة فقد عمد بعض الكتاب والآدباء المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم , فنشأت في شبه الجزيرة الإيطالية وفرنسا وأسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الأصل اللاتيني . وظهرت في شمال أوربا لهجات أخرى ترجع إلى أصل تيوتوني وعمد علماء كل لغة إلى نحت كلمات وعبارات جديدة والارتقاء بمستواها حتى أصبحت هذه اللغات الوليدة صالحة لتدوين العلوم والآداب بها , وأصبح الاهتمام بهذه اللغات القومية الوليدة مظهراً من مظاهر النزعة القومية وعاملاً هاماً ساعد على نشر الأفكار الجديدة التي أتت بها النهضة . ففي إيطاليا كتب دانتي Dante شاعر إيطاليا وعملاقها كتابة الخالد (الكوميديا الإلهية) باللغة الإيطالية , وفي فرنسا كتب مونتين Michcl de Montaigne باللغة الفرنسية رسائل رائعة في الفلسفة والأخلاق عرفت باسم Essais . وفي أسبانيا وضع سرفنتيس Michel de Cervantes باللغة الأسبانية قصته المشهورة (دون كويكزوت) Don Qwichotte de la Manche وفي انجلترا وضع شوسر Ceoffrey Chaucer قصص كتنتر بري Canterbury باللغة الانجليزية ز هذا إلى غيرهم عن ظهروا في مختلف البلاد الأوربية وكتب كل منهم بلغة شعبه . وبفضل الارتقاء الذي طرأ على هذه اللغات الحديثة والتأليف بها أصبح لها شأن كبير في نشر العلم وتنوير الأذهان وإعداد أفراد المجتمع لتقبل الآراء الجديدة التي جاءت بها النهضة .

الآثار:

شهد عصر النهضة اهتماماً كبيراً بالمحافظة على الآثار الرومانية وتقدير عميقاً لقيمتها الفنية . وكان كثير من هذه الآثار قد تعرض للتلف والضياع بسبب عبث

النبلاء وغيرهم من طبقات الشعب بها في العصور الوسطى , إذ كانوا ينتزعون الرخام والأعمدة وغير ذلك من بعض الآثار , واستعلموا بعض المخلفات الرومانية كأنها ملك خاص لهم . فلما جاء عصر النهضة أفاق الناس للقيمة الفنية الرائعة لهذه الآثار واعتبروها صفحة مجد وفخار , وانطلق العلماء ينقبون عن الآثار , وبدأت دراسة علمية منظمة للآثار الرومانية تجلت في ظهور عدد من المؤلفات والموسوعات تناولت تاريخ الآثار الرومانية وتخطيط روما القديمة وعادات الرومان القدماء.

علم التاريخ :

وظفر علم التاريخ بعناية فائقة من رجال النهضة في شبه الجزيرة الإيطالية . وبدأت الدراسات التاريخية تستقي مادتها العلمية من مصادر لا يرقى إليها الشك بعد أن كان المؤرخون يعتمدون على السماع أو أقوال الرواة , وتطورات مناهج البحث التاريخي وظهرت مدرسة جديدة في النقد التاريخي كان من أهم مظاهرها البحث الذي وضعه أحد الإيطاليين , وهو لورنزوفالا , عن (هبة قسطنطين) Donation de Constaotin وهي وثيقة قيل إنها ترجع إلى القرن الثاني أو الثالث الميلادي طالما استند إليها البابوات في العصور الوسطى في صراعهم مع الأباطرة حول حقهم في السلطة الزمنية . وقد خلص هذا الباحث إلى نتيجة هامة هي أن الوثسقة مزورة , وبذلك تهاوي جميع إدعاءات البابوات وتصير إلى هباء . وجاء في أعقاب هذا البحث حادث له دلالته , وهو ان البابا فيفولا الخامس - وكانوا يتبوأ كرسي البابوية وقتذاك - أعجب بالبحث وأبدى تقديره لمؤلفه , فعينه موظفاً في الحكومة البابوية . فكان هذا التعيين دليلاً على ان البابوية أصبحت نصيرة لحركة الدراسات الإنسانية , وقد تكونت مدرسة تاريخية في فلورنسا أخرجت عديداً من الكتب التاريخية في موضوعات شتى , وكان لهذه الأبحاث طابع مميز , هو حرية الرأي وحرية التعبير وعدم التقيد بالموضوعات الدينية والتحرر من التقاليد البالية والبعد عن الخرافات والتزام الموضوعية , مما جعل هذه البحوث باكورة طيبة للدراسات التاريخية الحديثة .

الفنون الجميلة :

كانت الفنون الجميلة هي الميدان الذي نبغ فيه الإيطاليون . وإليهم يرجع الفضل في إحياء الفنون التي كانت مزدهرة في العصور القديمة .

وإذا كان مولد النهضة في إيطاليا قد انبثق عن إحياء الدراسات الإنسانية على أيدي الإنسانيين الإيطاليين . فإن إيطاليا تستطيع أن تفخر ايضاً بأن الفنانين الإيطاليين هم الذين كشفوا النقاب عن جمال الآثار القديمة وروعتها وعملوا على محاكاتها في روحها وتعبيراتها . فالإيطاليون هم أصحاب الفضل الأول في بعث الدراسات الأدبية القديمة وفي نشأة الدراسات الأدبية الحديثة , وهم أصحاب الفضل الأول كذلك - وعلى درجة أكبر - في ابتكار الفن الحديث . وبعد أن كانت الفنون تتجه لخدمة الكنيسة والأغراض الدينية بوجه عام , أصبحت بفضل الإيطاليين منطلقاً إلى آفاق جديدة حرر فيها الفنانون الإيطاليون أنفسهم وعقولهم من قيود العصور الوسطى وتقاليدها المتزمتة , فإذا بالفنون تدب فيها روح علمانية متحررة مليئة بمناظر الطبيعة الخلابة وبجمال الوجه البشري وسائر أجزاء جسم الإنسان , وإذا بالفنانين الإيطاليين يكرسون كل طاقتهم المبدعة في الارتفاع بمستوى الفنون الجميلة الحديثة إلى أسمى درجات الكمال وبخاصة في فن التصوير والنحت .

1-فن التصوير :

بلغ فن التصوير الذروة في الإبداع الفني حتى اعتبر الفن الأول لعصر النهضة في شبه الجزيرة الإيطالية . وتميز كثير من الفنانين بنزعة دنيوية مسرفة في صراحتها , تحررا من قيود العرف والتقاليد والروح الدينية المتزمتة التي خضع لها أسلافهم في العصور الوسطى , وأخرجوا صوراً تنبض بالحياة , أبرزوا فيها جمال الوجه البشري وسائر أجزاء حسم الإنسان , وصوروا جمال الطبيعة ومشاهدها الخلابة , واستخدموا بمهارة فائقة الأصباغ الزيتية فأضفت على الصور روعة الفن وبهاءه . وتنافست المدن الإيطالية في السبق في هذا الفن حتى أصبح لكل مدينة مدرستها الخاصة في فن التصوير . وبرزت بوجه خاص في هذا الفن مدينتا البندقية وفلورنسا , وتميزت الأولى

بالروح العلمانية البعيدة عن تقاليد الكنيسة , وتأثرت الثانية إلى حد ما بالروح الدينية.

ويعتبر رفائيل Raphael Sanzio على رأس الفنانين الذين برعوا في فن التصوير في إيطاليا . وعلى الرغم من أنه قضى نحبه وهو في صرح شبابه إلا أنه جسد العبقرية الإيطالية في فن التصوير بما خلفه من آثار فنية بلغت حد الروعة والإعجاز , ويتمثل بعض منها في صورة عن أسرة المسيح عليه السلام وسر العشاء الرباني المسماة ومن آثار الفنية الرائعة وبجانب رفائيل توجد شخصيتان بارزتان في فن التصوير أيضاً هما ليونارد دي فنشي Leonard de Vinci وقد ولد في قرية فنشي بالقرب من فلورنسا , واشتهر بنشاطه في فروع شتى من الفنون والعلوم , فضرب بسهم وافر في التصوير والنحت والموسيقى والهندسة العسكرية والعلوم الطبيعية , واشتغل بدراسة تشريح الأجسام البشرية والحيوانات والنباتات مع عمل رسوم لأعضاء الجسم والعضلات والأوردة والشرايين وما يتصل بالدورة الدموية , وكذلك الأمعاء إلى غير ذلك من الأجزاء البشرية , وقتام بتشطير الأجسام للرجال والنساء من مختلف الأعمار , كما كان كاتباً وأدبياً ممتازاً . ويدل تعدد جوانب الثقافة في الشخص الواحد على ظاهرة من الظواهر اللافتة للأنظار والأفكار معاً , وهي عدم وجود ما يعرف الآن باسم (التخصص الضيق) ومع ذلك فإن شهرة ليورنارد دي فنشي تعتمد على تفوقه في فن التصوير أكثر من امتيازه في أي فن او علم آخر , ومن أشهر صوره الجيوكوندا La JecondeLa Jeconde وهي لسيدة إيطالية من مواليد نابولي تدعى موناليزا جيرارديني mona Lisa Gherardini تزوجت في السادسة عشرة من عمرها على كرة منها أحد ضباط مدينة فلورنسا يسمى فرانشكو زانوبي جيوكوندو Franceaco zenobi del Cieondo في الخامسة والثلاثين من عمره , وكان زواجها مرسم الفنان ليونارد منها للمرة الثالثة . وقد دخلت هذه السيدة[1] مع زوجها مرسم الفنان ليونارد بأمر من حاكم فلورنسا وعشيقها , واستطاع الفنان أن يرسم لها صورة استغرقت منه أربع سنوات كرس كل طاقاته المبدعة في إثبات أدق التفاصيل

[1] - اشتهرت هذه السيدة باسم جيوكوندا , وهو تأنيث اسم زوجها جيوكوندو.

بالرسم والألوان حتى خرجت الصورة معجزة فنية خالدة : مفاتن سيدة وديعة حسناء مثالية تتمتع بجاذبية نادرة , شاءت لها الأقدار أن تحرم من متاع الحياة الزوجية وهي ما زالت في ربيع عمرها . اختار لجلوسها في الصورة مكاناً موحشاص جلست عليه وحيدة بين الصخور التي تشقها مياه الغدير تنساب في الوادي السحيق إلى عالم المجهول كرمز لما يكتنف حياتها من غموض الناعستين وترقسم على شفتيها . واستطاع ليونارد بمواهبه العظيمة التي أودعها في صورة الجيوكوندا أن يجعل من هذه السيدة المجهولة شيئاً مذكوراً في التاريخ وعلماً بارزاً على مر العصور والأحقاب في عالم الفن التصويري , وأن يسمو إلى عداد عظماء الفنانين الذين أنجبتهم إيطاليا في عصر النهضة.

أما الشخصية الثانية التي برزت في فن التصوير فكانت ميشيل آنج Michel Ango ولد في كابريس Capresse في توسكانيا . كان على شاكلة سابقة , واشتهر بتعدد الجوانب الثقافية , فبرع في التصوير والنحت وهندسة البناء والشعر الإيطالي , واشتهر بوفرة إنتاجه الفني وتعدد الموضوعات التي عالجها والمستوى الرفيع الذي بلغه في هذا الانتاج . ويرى البعض أن ميشيل آنج , ورفائيل , وليونارد دي فنشي , يشتركون معاً في تكوين ثالوث الفن في القرن السادس عشر بما حققوه من أمجاد فنية ستظل على توالي العصور والادهار في مقدمة ما أبدعه الإنسان في ميدان الفنون التشكيلية .

2-فن النحت

شهد فن النحت بعثاً قوياً وأتيح له عامل هام ساعد على ازدهاره . إذ كانت التماثيل الرائعة التي خلقها الإغريق والرومان لا تزال قائمة ام تمتد إليها يد الزمان . كما أن اعمال البحث والتنقيب عن الآثار قد أسفرت عن الكشف عن تماثيل أخرى لا تقل روعة عن السابقة . فكانت هذه وتلك أمثلة حية يحتذيها فنانو عصر النهضة في نحت تماثيل جديدة . ومن هنا يختلف فن النحت عن فن التصوير , لأن الصور التي تركها كبار المصورين الإغريق كانت قد اندثرت وبليت بحيث أصبح في حكم

الاستحالة أن يرسم فنانو عصر النهضة صوراص على شاكلتها , بينما كانت التماثيل القديمة نماذج حية ناطقة أمام فناني النهضة مما ساعد على ازدهار فن النحت . وقد أنجب عصر النهضة نخبة من النحاتين بزوا في إنتاجهم إنتاج الإغريق . ومن أشهر أساتذة فن النحت لورنزو جيبرتي Lorenzo Ghiberti وهو من فلورنسا , وكذلك دوناتللو Donatello وقد ولد في فلورنسا وينسب إلى توسكانيا , ولم يتقيد الفنانون بتقاليد العصور الوسطى , فكان يغلب على فن النحت المظهر الوثني أكثر مما هو الحال في التصوير , لأن فناني النهضة كانوا يحرصون على إبراز مفاتن جسم الإنسان: وجهه وقوامه وسائر أجزاء جسمه دون التقيد بالأخلاقيات , فأخرجوا إنتاجاً فنياً شمل تماثيل بلغت شاواً بعيداً في الإبداع .

3-فن العمارة :

كان فن العمارة هو الفن الذي لم يتدثر طوال العصور الوسطى , فقد ظل قائماً مزدهراً معتمداً على نماذج الفن القديم . وظهر في شمال أوربا طراز جديد من العمارة هو الطراز القوطي الذي كان يتميز بكثرة الأقبية العالية والدعائم المعلقة Flying Buttresses , وانتقل هذا الطراز إلى إيطاليا وتمثل في بناء الكنائس والكاتدرائيات ولما جاء عصر النهضة وظهر الاتجاه إلى إحياء الدراسات والفنون القديمة انعكس الاتجاه على فن العمارة , فأدخلت الخصائص والرسومات الهندسية التي كان يتبعها الإغريق في مبانيهم القديمة . وشهدت فلورنسا هذا التطور الكلاسيكي في فن البناء في النصف الأول من القرن الخامس عشر , ومنها انتقل إلى بقية انحاء شبه الجزيرة الإيطالية , ومن المدن التي برزت في هذا العصر المعماري ونافست فلورنسا مدينتا البندقية وروما , ومن أشهر النوابغ في فن العمارة في مطلع عصر النهضة فيليب برينلشكي Philippe Brunelleschi وهو من مواليد فلورنسا .

نهاية النهضة في شبه الجزيرة الإيطالية :

على هذا النحو أصبحت المدن المتناثرة في شبه الجزيرة الإيطالية مهاداً للنهضة الأوربية ومراكز للإشعاع الفكري والثقافي , وسارت النهضة تشق طريقها قدماً في

ربوعها , ولما اكتمل نموها ونضجها تعرضت لعاملين تضافرا في القضاء عليها في نهاية الأمر . والواقع أن نور النهضة أخذ يخبو وشيكا منذ أواخر القرن الخامس عشر حين بدأ ما يعرف في تاريخ أوربا الحديث باسم (الحروب الإيطالية) التي كانت مظهراً من مظاهر التنافس الدولي بين فرنسا وأسبانيا . وكانت شبه الجزيرة الإيطالية هي ميدان هذه الحروب في معظم أدوارها , واستمرت ما يقرب من خمس وستين سنة , وكان استيلاء قوات الدولة الرومانية المقدسة على روما إيذاناً بانهيار النهضة الإيطالية وانطفاء شعلتها ونهاية عصرها.

أما العامل الآخر فكان الحركة الدينية الثورية التي تزعمها مارتن لوثر في ألمانيا , وكان من أهدافها التحرر من السيطرة المحكمة التي كانت تمارسها الكنيسة الكاثوليكية في روما على أفراد العالم المسيحي الكاثوليكي . وقد نقم البابوات بطبيعة الحال على هذه الحركة واعتبروها نتيجة من نتائج حركة إحياء العلوم والآداب والفنون القديمة , ومن ثم نشطوا في محاربة الحركة الإنسانية محاربة لا هوادة فيها , واستعانوا في هذا الصدد ببعض ملوك أسبانيا الكاثوليك المسرفين في تعصبهم للمذهب الكاثوليكي .

النهضة خارج شبه الجزيرة الإيطالية :

قبل أن يبدأ اضمحلال النهضة في شبه الجزيرة الإيطالية كانت روحها ومظاهرها قد تسربت عبر الألب إلى اصقاع شتى من القارة الأوربية على يد الطلاب الذين كانوا قد توافدوا من أنحاء أوربا على المدن الإيطالية ينهلون من مراكز النهضة فيها ما شاء لهم شغفهم بالتحصيل العلمي . ولما عاد هؤلاء الوافدون على بلادهم دفعهم حماسهم إلى نشر الآراء الجديدة بين مواطنيهم . وقداتسمت النهضة في كل دولة أو إقليم بطابع خاص ومظاهر معينة حسب خصائص كل شعب وأحواله السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

أرزمس :

يعتبر ديدية إرزمس Didie Erasmes أكبر داعية للنهضة خارج شبه الجزيرة الإيطالية , وهو عالم هولندي ولد في روتردام , طبقت شهرته دول أوربا حتى ان فرنسا وانجلترا وألمانيا كانت تدعيه لنفسها استناداً إلى انه أقام بكل منها زمناً يحاضر في اللغتين الإغريقية واللاتينية , وتجمع حوله علماء تلك البلاد وصفوة المثقفين فيها . وقد شغف بالبحث عن الكتب القديمة وجمعها والتعليق عليها ونشرها للإفادة منها , وقد وضع عدة مؤلفات باللغة اللاتينية .

كان إرزمس يرى أن الدراسات الإنسانية وسيلة لغاية , هي إصلاح المجتمع الأوربي وتخليصه من الشرور والآثام والفضائح الخلقية التي كانت ترتكب جهاراً , وكذلك من الجهالة المتفشية فيه . وبعبارة أخرى كان يرى ان الدراسات الإنسانية يجب أن تهدف أولاً وقبل كل شيء إلى علاج الأمراض الاجتماعية والمساوئ الخلقية وكانت الناحية الدينية بارزة في إرزمس , فدراسة الإنجيل هي الدراسة المفضلة لديه . وقد نشر النسخة الإغريقية الأصلية للإنجيل وأرفقها بترجمة لاتينية سليمة وتعليقات جديدة مبسطة , وكان يريد أن يعود الناس في أوربا على المسيحية الأولى في بساطتها ونقائها . ولكنه كان يخشى أن يؤدي إحياء الدراسات الإغريقية إلى بعث الوثنية والفساد التي يحيونها , وضعف مستواهم العلمي , والاهتمام بظواهر الدين دون لبه , واعتقاد الناس في الخرافات الدينية . فكان إرزمس في طليعة الرواد الذين دعوا على الإصلاح الديني , ولكن لم تتجاوز رغبته في إنهاض الكنيسة الثورة عليها أو الخروج على روما , وقد ظهر قبيل مارتن لوتر بفترة وجيزة.

ويختلف إرزمس عن الإنسانين الإيطاليين في أنه لم تظهر في كتاباته أية نزعة وثنية , بل كان مسيحياً متديناً مستنيراً معتدلاً , اتسمت كتاباته بالطابع الأوربي العام والبعد عن العنف . واستبدت به رغبة قوية في نشر الدراسات الإنسانية وتثقفت الناس بها حتى عقدت له الزعامة الثقافية في أوربا , وكان يرى أن التعليم أرقى مهنة .

وقد توفى في مدينة بال بسويسرا حيث كان يستعد لطبع مؤلفاته . وقد أطلق عليه بعض المؤرخين : فولتر اللاتيني Le Voltare Latin .

النهضة في ألمانيا :

لم تجد الدراسات الإنسانية في الأوساط العلمية والدينية في ألمانيا أول الأمر مناخاً صحياً تزكو فيه على الرغم من تشجيع بعض الحكام لأصحاب هذه الدراسات, وعلى الرغم من ان بعض الجامعات الإلمانية قد أفسحت للدراسات الإغريقية واللاتينية مجالاً في برامجها , فقد كانت معارضة رجال الدين الألمان لهذه الدراسات من القوة والعنف بحيث حدت من انتشارها في نطاق واسع , وقد ربط هؤلاء الرجال بين الدراسات الإنسانية وبين إيطاليا باعتبار أن هذا الإقليم هو مهد الدراسات الإنسانية منذ بدأت النهضة , وكان الألمان بوجه عام ورجال الدين بوجه خاص يشعرون بمقت شديد لرجال الكنيسة في روما نظراً لما كان يتناقله الناس في أحاديثهم ومجالسهم من أخبار تدل على تدهور رجال الكنيسة في روما في مستواهم الخلقي والديني والثقافي . وطالب الألمان بالعودة إلى المسيحية الأولى في بساطتها وطهارتها وتقواها , ورأوا أن هذا الغرض لن يتم إلا بتفهم المسيحية تفهماً صحيحاً سليماً قبل أن تفسدها فلسفة العصور الوسطى وتعقيداتها , وقبل أن تدخلها الخرافات والبدع والأساطير الدينية.

ظهر في ألمانيا حنا روخلن Johann Reuchlin كان من أعلام الفكر الألماني الحديث , تخصص في الدراسات الإغريقية واللاتينية في روما وغيرها من مدن إيطاليا وفي باريس وبال . وجاهد في سبيل نشر هذه الدراسات بين مواطنيه , ثم تعمق في دراسة العبرية . وكان اهتمامه بهذه اللغة راجعاً إلى رغبته في خدمة الديانة المسيحية على أساس أن العبرية هي الوسيلة العلمية لدراسة وتفهم كتاب (العهد القديم). وقد ثار جدل عنيف بينه وبين زميل له من رجال الفكر الألماني يدعى حنا بلفر كورن Johann Plefferkorn هاجم الأخير الدراسات الإنسانية هجوماً عنيفاً , ووقف

الرأي العام الأماني إلى جانب روخلن مما كفل له الفوز ورجحان كفته . ومن خلال هذا الجدل أدرك الشعب الألماني بما لا يدع مجالاً للشك أهمية الدراسات الإنسانية في شرح الكتاب المقدس , وبالتالي في تفهم الديانة المسيحية على أساس سليم , ومن هنا حدث ارتباط وثيق بين الدراسات الإنسانية وبين الرغبة على الإصلاح الديني , وهي رغبة جاشت في صدور الجماهير الألمانية واستهوت افئدتهم وعملوا على تحقيقها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ومن ثم اتخذ دعاة الإصلاح الديني من الدراسات الإنسانية وسيلة لتحقيق رغبتهم بعد أن كان رجال الدين يعارضون هذه الدراسات.

وقد ترتبت على هذا الوضع عدة نتائج : فقد استهدفت الدراسات الإنسانية في ألمانيا خدمة المسيحية , وخلت كتابات أعلام النهضة الألمان من أية نزعة وثنية , وغدت النهضة في المانيا دينية فلسفية جافة تتميز بطابع الجدية الصارمة البعيدة عن تقديس الجمال . ولم تلبث أن تطورات إلى قيام ما يعرف بحركة الإصلاح الديني , وهي - كما سنرى - حركة معادية للكنيسة الكاثوليكية في روما , اعتمدت على العنف وأدت إلى تصدع العالم الكاثوليكي ونشوء مذاهب مسيحية أخرى خاضت صراعاً حربياً رهيباً استطال عهوداً وأحقاباً . ومما هو جدير بالذكر أن الألمان لم يتحمسوا لمحاكاة الإغريق والرومان في طرق معيشتهم وأزيائهم وتقاليدهم على غرار ما فعل الإيطاليون . وقد ظهر هذا الفارق وضح ما يكون في فن البناء , فبينما اتجه الفنانون الإيطاليون على محاكاة النماذج الإغريقية والرومانية , تمسك الفنانون الألمان بالطراز القوطي , وهو الطراز الذي كان منتشراً في العصور الوسطى.

النهضة في فرنساً :

ظفرت النهضة في فرنسا بالمناخ الصحي الذي ساعد على ازدهارها , فبعد أن وضعت حروب المائة سنة أوزارها وهي عبارة عن عدة حروب متقطعة نشبت بين فرنس وانجلترا بسط ملوك فرنسا وامراؤها رعايتهم على رجال العلوم والآداب

والفنون . وبتشجيع ملوك فرنسا وفد إلى باريس مجموعة من كبار العلماء , كان بعضهم من الإيطاليين , والبعض الآخر من أصل بيزنطي , وأخذوا يحاضرون في جامعة باريس في اللغات العبرية والإغريقية واللاتينية , ومضى هؤلاء الملوك يبدون إعجابهم العميق بالنهضة , فأدخلوا في بلاطهم الكثير من التقاليد والمراسم والمظاهر التي كان معمولاً بها في بلاط الأمراء الإيطاليين , ثم انشئوا الأكاديميات وغيرها من المؤسسات العلمية للعناية بالدراسات الإنسانية وغيرها.

ومن مظاهر هذه الروح الطيبة أن توثقت عرى الصداقة بين فرنسوا الأول ملك فرنسا وبين رجال الدراسات الإنسانية , وكان من بينهم جيوم بوديه Cuillaume Bude , وكان من كبار العلماء المتخصصين في اللغة الإغريقية , واستغل الحظوة التي كان يتمتع يها لدى الملك فرنسوا الأول وزين له إنشاء كلية لتشجيع الدراسات الإنسانية , واستجاب له الملك فأنشأ كلية فرنسا Le college de France في باريس خارج نطاق جامعتها , وعين لها أساتذة متخصصين في اللغة الإغريقية بوجه خاص . ولا يزال هذا المعهد مفخرة من مفاخر فرنسا إلى اليوم . ولم يدخر هذا الملك جهداً في تشجيع النهضة في فرنسا وإضفاء مزيد من التقدير والتكريم على رجالها حتى أطلق لقب علمي معبر (والد وباعث الآداب) le Pere et Restaurateur des Lettres ونشطت في باريس حركة نشر الكتب الإغريقية , وأسست مطبعة يونانية متخصصة لنشر هذه المؤلفات . ومن التقاليد التي أرسيت قواعدها في فرنسا زمن النهضة والتي لا يزال معمولاً بها إلى اليوم هناك أن أصحاب المطابع لم يكونوا رجال أعمال فحسب , بل جمعوا بين الثقافة العميقة الواسعة وبين مهنة الطباعة.

ومن بين أعلام النهضة في فرنسا رابليه Francois Rabelais تعلم الطب وغدا أستاذاً في علم التشريح , وكان أول من خالف أمر البابا وشرح جثة إنسان , وأصبح مهتماً بالبحث العلمي , واشتغل قسيساً , ونشر أبحاثه في أسلوب مبسط ممتع, واهتم

العلماء الفرنسيون بدراسة القانون الروماني القديم وعكفوا على تفسير المصطلحات القانونية .

ويجدر بنا أن نشير إلى الفرق بين موقف العلماء الإيطاليين وموقف العلماء الفرنسيين في عصر النهضة الأوربية تجاه الدراسات الإنسانية وغيرها من مظاهر النهضة . لقد بهرت المخلفات القديمة أفئدة العلماء والفنانين الإيطاليين , وأيقنوا أن هذه المخلفات هي أروع وأجمل ما يمكن أن تنتجه الطبيعة أن إنتاجهم الأدبي والفني غدا صورة آو نموذجاً للمخلفات القديمة . أما العلماء الفرنسيون فقد نظروا إلى هذه الآثار الأدبية والفنية نظرة ملؤها التقدير , ولكنهم احتفظوا في نفس الوقت بشخصيتهم الأدبية أو الفنية وبأسلوبهم في التفكير والتعبير , وكان إنتاجهم مزجا بين القديم والذي يتمثل في المخلفات الإغريقية والرومانية وبين الجديد الذي يتمثل في خصائصهم الذاتية . ويتضح هذا الفارق بين الإنتاج الإيطالي والإنتاج الفرنسي في قطاع الأدب والبناء والنحت.

النهضة في انجلترا:

دخلت الدراسات الإنسانية إنجلترا متأخرة بعض الوقت , لأن هذه البلاد كانت منصرفة إلى مشكلات الحرب التي قامت بينها وبين فرنسا , وهي المعروفة باسم حرب المائة سنة , ثم لم تلبث أن شغلت مرة أخرى بحرب داخلية عرفت باسم حرب الوردتين , فلما وضعت هذه الحرب الأخيرة أوزارها أخذت الدراسات الإنسانية طريقها إلى انجلترا , وكان جماعة من الإنجليز قد شدوا رحالهم إلى شبه الجزيرة الإيطالية ونهلوا من الدراسات القديمة في فلورنسا والبندقية وروما وغيرها ما شاء لهم نهمهم العلمي . وكان معظم هؤلاء الإنجليز من أكسفورد , ولما عادوا اتخذوا من أكسفورد مكاناً لإلقاء محاضراتهم ونشر آرائهم الجديدة فأطلق عليهم (مصلحو أكسفورد) Oxford Reformers .

وقد أسهم إرزمس في ازدهار الدراسات الإغريقية في انجلترا , ففي زيارته الأولى لها حاضر في جامعة أكسفورد في هذه الدراسات , وفي زيارته الثانية لإنجلترا –

وقد امتدت حاضر في جامعة كامبردج , وترعرعت بينه وبين أعلام الإنجليز في الدراسات الإنسانية أواصر صداقة وثيقة , ويعتبر إرزمس من أعلام مصلحي أكسفورد بسبب زيارته لإنجلترا والعلاقة الوطيدة مع علمائها.

أهتم مصلحو أكسفورد بدراسة الأدبيات القديمة , ونادوا بضرورة إطلاق الفكر الإنساني من القيود التي كانت تفرضها الكنيسة على حرية البحث العلمي وحرية الفكر . وكان هؤلاء المصلحون متأثرين بروح النقد المنتشرة في عصرهم , وكانوا لا يرضون عن مساوئ الكنيسة , وكنهم لم يذهبوا في مطالبتهم بإصلاحها إلى حد المناداة بانفصالها تماماً عن روما.

ومن أعلام النهضة في إنجلترا توماس كولت Thomas Colet أدخل تعليم اللغة الإغريقية في جامعة أكسفورد , وسير توماس مور Thomas More وكلاهما كان صديقاً لإرزمس . وتعاون الثلاثة على نشر الإنجيل (حتى يصل إلى كل فلاح خلف محراثه , وكل ناسخ خلف منواله , وحتى يكون سلوى كل مسافر) .

وأخذت الدراسات الإنسانية طريقها من جامعة أكسفورد إلى جامعة كمبردج على يد إرزمس الذي حاضر في اللغة الإغريقية . وكون حلقة من دارسين نابغين شغوفين بتلك الدراسات , ثم تعاقب من إرزمس عدد من صفوة الأساتذة الإنجليز يحاضرون في اللغة الإغريقية في رحاب تلك الجامعة , حتى إذا جاءت سنة 1541 أصدر هنري الثامن مرسوماً ملكياً بإنشاء خمسة كراسي أستاذية في جامعة كمبردج للغة اليونانية واللغة العبرية واللاهوت والقانون المدني والطبيعة

وأهم فارق بين النهضة في انجلترا وبين النهضة في كل من إيطاليا وفرنسا أن النهضة في الدولتين الأخيرتين اتجهت اتجاها وثنياً , أما في انجلترا فقد أخذت النهضة طابعاً دينياً يستهدف خدمة المسيحية ,ولذلك لم تكن النهضة في انجلترا مقصورة على الآداب والفنون , بل شملت أيضاً الدين , وحاولت التوفيق بين الفن والعقيدة , وبين الجمال والدين.

واتجهت النهضة في انجلترا أول الأمر إلى جعل الآداب القديمة في متناول المثقفين , فأخرجت تراجم لأعلام الفكر القديم , مثل هوميروس , وفرجيل , وبلوتارك وغيرهم , كما ترجمت إلى اللغة الإنجليزية ألوان من الإنتاج الأدبي لأعلام النهضة الإيطاليين , ولم تقدم انجلترا في القرن السادس عشر روائع أدبية مبتكرة إلى الدراسات الإنسانية , حتى إذا جاء القرن السابع عشر بلغ الإنتاج الأدبي في اللغة الإنجليزية الذروة في الروعة والإبداع , وقد تمثل هذا الإنتاج في مؤلفات شكسبير Shakespeare وجون ملتون John Milton .

النهضة في أسبانيا والبرتغال

كان عدد من الأسبان قد زاروا شبه الجزيرة الإيطالية في القرن الخامس عشر وتقلدوا دراسات في اللغة العبرية والإغريقية واللاتينية وعادوا يحاضرون في هذه الدراسات في أشبيلية ولشبونة وغيرهما , وهكذا كانت شبه جزيرة أيبيريا في مطلع القرن السادس عشر مهيأة للدراسات الإنسانية . ولكن ما لبث أن اهتز مركز هذه الدراسات اهتزازاً عنيفاً .

اشتهر ملوك أسبانيا بأنهم مسرفون في تعصبهم للمذهب الكاثوليكي , وسنرى أن بعضاً منهم قد وضع موارد أسبانيا ومستعمراتها التي كانت لها في العالم الجديد في خدمة الكنيسة الكاثوليكية في روما لضرب البروتستانت . وكان انتشار النهضة وما أتت به من بعث الدراسات القديمة من العوامل التي أدت إلى ظهور حركة الإصلاح الديني . لقد أحس الباباوات مؤخراً ببوادر هذه الحركة المعادية للكنيسة الكاثوليكية , فوقفوا موقفاً عدائياً من الدراسات الإنسانية واستعانوا في هذا الصدد بملوك أسبانيا . وعقد البابا كلنت السابع والإمبراطور شارل الخامس ملك أسبانيا الكاثوليكياتفاقا في بولونا استهدفا منه تصفية الحركة الإنسانية , ونجم عن هذا الاتفاق أن أصبح الدراسات الإنسانية في أسبانيا خصوم أعز نفراً وأقوى نفوذاً , واستعانوا بمحاكم التفتيش تنكل وتبطش بأصحاب الدراسات الإنسانية . وفي هذا الجو الخانق انكمشت هذه الدراسات على نفسها , ولم يكن لها تأثير عميق في المجتمع الإسباني .

النهضة في الأراضي المنخفضة:

كانـت الأراضي المنخفـضة - مـا يـسمى الآن بلجيكـا وهولنـدا - تابعـة لإسـبانيا وانسحب على ممتلكـات أسـبانيا ذلـك الحجـر الـذي فـرض عـلى الدراسـات الإنـسانية في أسبانيا , وما لبثت أن قامت الثورة في الأراضي المنخفضة هادرة تروم الاستقلال عن أسبانيا . وفي غضون الصراع الحربي الرهيب الذي نشب بين فيليـب الثـاني ملـك أسـبانيا وشـعب الأراضي المنخفضة أنشئت جامعة ليدن Leyden تخليـداً لـذكرى انتـصار الهولنـديين عـلى الأسبان , وسرعان ما أصبحت هذه الجامعة مركـزاً هامـاً للدراسـات الإنـسانية . واهتمـت بالدراسـات اللاتينيـة وبخاصـة مـا يتـصل منهـا بالتـاريخ والآثـار , والدراسـات الإغريقيـة وبخاصة ما يتصل منها بالمسرحيات التـي مـن نـوع التراجيـدي (المـآسي) , كـما وضـعت مسرحيات باللغة اللاتينية شعراً ونثراً , وقد استهدفت الدراسـات الإنـسانية بوجـه عـام في الأراضي المنخفضة نشر ونقد المؤلفات التي وضعها رجال الدراسات الإنسانية الأوائل.

النهضة في الروسيا والبلقان:

كان أثر النهضة ضئيلاً للغاية في الروسيا وفي بلاد البلقان الخاضعة للدولة العثمانية , ولم يتعد هذا الأثر بعض مظاهر فرديـة لا ترقـى إلى تطـوير جـذري مبـاشر أحـست بـه الجماهير في تلك الأقاليم , ولم يطرأ أي تغيير عـلى المجتمـع أو نظـم الحكـم أو الفنـون أو الدين أو الأدب . ومن المظاهر الفردية صورة رسمها أحد فناني مدينـة البندقيـة للـسلطان محمد الفاتح , ووضعت في قصر السلطان في الآستانة وتشيد قصر الكـرملين Kremlin في موسكو , وقد اقتبس تصميمه من ميلان .

نتائج النهضة

أثر النهضة في الأوضاع السياسية في أوربا:

كانــت ألمانيــا وإيطاليــا تكونــان في العــصور الوســطى الإمبراطوريــة الرومانيــة المقدسة . وقد تـداعى نفـوذ الإمبراطـور في هـذين الإقليمـين خـلال القـرنين الثـاني عـشر

والثالث عشر , إذ واجه الإمبراطور في ألمانيا خصوماً أشداء هم حكام الإمارات الإقطاعيـة . وكانت هذه الإمارات وحدات سياسية , وكان بعضها ذا طابع ديني يحكمه أسقف أو كبير اساقفة , والبعض الآخر ذا طابع علماني يحكمه أمير , ومن ناحية أخرى كـان بعـض هـذه الوحدات السياسية عبارة عن مقاطعة كبيرة , والبعض الآخر لم يكن يتجاوز مدينـة . وقـد نجح هؤلاء الحكام في أن يجعلوا من أنفسهم حكاماً مستقلين من الناحية العملية , وكـان اعترافهم بالإمبراطور , مجرد اعتراف شـكلي , يقبلـون أحيانـاً أخـرى , أمـا في إيطاليـا فقـد اصطدم الإمبراطور بالبابا , وخاض الاثنان صراعاً اسـتطال أمـده وتعـددت صـورة , ولـيس هذا البحث مجالا لعرضه.

فلما جاءت النهضة ازدادت نفوذ إمبراطـور الدولـة الرومانيـة المقدسـة وهنـاً عـلى وهن في كل من ألمانيا وإيطاليا . ففي ألمانيـا حـاول الإمبراطـور الاسـتعانة بالمـدن وأفـراد الطبقة الوسطى لدعم مركزه تجاه الأمـراء ورجـال الـدين , وكـانوا يـسيطرون عـلى الأرض ويحكمون الإمارات الإقطاعية , ولكن كان هؤلاء الحكام أحـرص عـلى الاحتفـاظ بإمـارتهم وامتيازاتهم من تحقيق وحدة سياسية فعلية تجمع شتات الوطن الألماني . وظلت ألمانيا في القرنين الخامس عشر والـسادس عـشر ممزقـة إلى وحـدات سياسـية تجـاوز عـددها 350 وحدة تـشكل خليطـاً غـير متجـانس في التكـوين الجغـرافي والاتجـاه الـسياسي والمـستوى الاقتصادي , ولكن جمعت بيـنهما الجرمانيـة في الجـنس وفي اللغـة , وعـلى ذلـك لم يكـن للنهضة تأثير على الأوضاع السياسية الداخلية في ألمانيا . أما إيطاليا فكما أن مجتمعها إبان النهضة كان يموج بالمتناقضات الاجتماعية , فقد كانت هي أيضا بلد المتناقضات السياسية . لقد كانـت مـدنها مهـاداً طيبـة لمولـد النهـضة وازدهارهـا , وكانـت فلورنـسا والبندقيـة وغيرهما مراكز إشعاع فكري وفني للقارة الأوربية , وكانـت فلورنـسا بالـذات , عـلى عهـد أميرها لورنزو دي مدتشي , عاصمة أوربا في الفنون والإبداع الفكري.

ومع ذلك فإن إيطاليا لم تكسب شيئاً من النهضة سياسـياً . لم تـستقم لهـا حكومـة مركزية موحدة تبسط نفوذهـا عـلى كافـة أرجـاء الـبلاد وتعنـوا لهـا جبـاه الجميـع , بـل

ظلت موزعة بين وحدات سياسية ناصب بعضها البعض العداء , وخضع بعضها للنفوذ الأجنبي المباشر حيناً , وللتوجيه الأجنبي حيناً أخر . وأكثر من ذلك , أصبحت إيطاليا ميداناً لصراع رهيب بين ملكي فرنسا وأسبانيا من اجل السيطرة على أوربا , ودخلتها القوات المسلحة الأجنبية غازية , ونشرت فيها الخراب والدمار , وأذلت بلاداً متحضرة ومسالمة كانت قد أصابت شهرة عريضة في دنيا المال وعالم الثقافة , فأصبحت مسرحاً لحروب بشعة يطلق عليها (الحروب الإيطالية) وهي تشكل صفحة مفزعة دامية في تاريخ إيطاليا الحديث سنعرض لها في شيء من التفصيل في الفصل الرابع من هذا البحث.

أما في دول غرب أوربا فكانت الصورة تختلف تماماً عن وسط أوربا , إذ نجح ملوك فرنسا وأسبانيا وانجلترا فيما أخفق فيه إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في ألمانيا وإيطاليا , ونعني بهذا النجاح توحيد المملكة وبسط السلطة المركزية في أنحاء البلاد كانت الدول الثلاث قد قطعت شوطاً في إنشاء الحكومة المركزية الموحدة , وجاءت النهضة فساعدت على دعم القوى الباعثة للقومية واستكمال الشخصية المستقلة للأمم.

عرفت الملكيات في غرب أوربا كيف تستغل ظهور الطبقة الوسطى في دعم مركزها تجاه النبلاء أمراء الإقطاع وتجاه كبار رجال الدين , كانت ترى في رجال الدين مصدر خطر يتهددها , لأن ولاء الجماهير موزع بين الملكية والكنيسة . وكان أفراد الطبقة الوسطى لا يطيقون بقاء امتيازات النبلاء وكبار رجال الدين , ومن ثم تلاقت مصلحة الملكيات مع مصلحة أفراد الطبقة الوسطى في دول غرب أوربا للحد من الحقوق والامتيازات التي كانت تتمتع بها الطبقتان الأخريان والتي كانت تجعل من كل منهما حكومة داخل الحكومة lmperium in imperie وكان الموقف الداخلي في تلك الدول ينبئ بوجود جبهتين متنازعتين : جبهة تضم الملك وسكان المدن أفراد الطبقة الوسطى , وجبهة تضم النبلاء ورجال الدين . وكان افراد الطبقة الوسطى عماد

الحياة الاقتصادية , ويتمتعون بثراء عـريض , فقـدموا الأمـوال للملكيـة لتـستطيع المـضي بنجاح في سبيل القضية المشتركة . ومن ناحية أخرى منحت الملكية أفراد الطبقة الوسطى الكثير من الحقوق دعماً لمركزهم في المدن , وأصبحوا بمضي الزمن طبقة ثالثة في المجـالس الإقطاعية التي سوف تكون نواة البرلمانات الحديثة.

وجاء اختراع البارود – ثمرة من ثمار النهضة – سنداً قويـاً للملكيـة وأفـراد الطبقـة الوسطى على السواء في نضالهم ضـد الأمـراء الإقطـاعيين : ذلـك أن الأمـير الإقطـاعي كـان يعتمد على السلاح التقليدي القديم وهو سلاح الفرسان , وهو سـلاح بـاهظ التكـاليف لم يستطع أن يصمد أمام الأسلحة النارية . وكان الملوك جد حريصين عـلى اسـتخدام الـسلاح الجديد الفتاك في صراعهم ضد الإقطاعيين , ومـن ثـم فـإن النهـضة التـي جـاءت بالبـارود كانت عاملاً هاماً في سرعة تدهور النظام الإقطاعي وانهيار نظام الفروسية واختفـاء طبقـة رقيق الأرض Serfs وازدياد نمو الروح القومية واستخدام اللغات القومية على نطاق واسـع , وقيام الملكيات ذات الحكومة المركزية الموحـدة التـي غـدت بـدورها ملكيـات مـستبدة مطلقة تحررت من نفوذ البابا السياسي . هـذه هـي المظـاهر الـسياسية الجديـدة أطلـت برأسها على تاريخ أوربا الحديث وقبل أن يسدل الستار على عصر النهضة.

ظهور نظريات سياسية جديدة :

عصفت النهضة بنظرية سياسية ظلت سائدة في أوربا طوال العـصور الوسـطى وهي أن العالم المسيحي يشكل وحدة عامة سياسية ودينية , ويخـضع لقـوتين هـما : البابا الرئيس الديني الأعلى . والإمبراطور وهو إمبراطـور الدولـة الرومانيـة المقدسـة , وهو الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية والمـسئول عـن الأمـن والمنفـذ لأوامـر الكنيـسة . ويجب على كل فرد طـاعتهما طاعـة عميـاء . فلـما جـاءت النهـضة واتـسعت الآفـاق العقلية أمام الباحثين أخذوا يفكـرون مليـاً في النظريـات والأنظمـة الـسياسية ومـدى صلاحيتها لتحقيق الرفاهية للمحكومين وقدرتها على مسايرة التغيرات العميقـة التـي

طرأت على شتى مناحي الحياة الأوربية , ومن ثم ظهرت نظريات سياسية كان بعضها معروفاً من قبل ومارسها بعض الملوك ممارسة جزئية مثل لويس الحادي عشر ملك فرنسا , وتبيح هذه النظرية استخدام كافة الوسائل الخلقية وغير الخلقية لتحقيق أهداف الحاكم , وفيها تحريض سافر له على تجاهل تعاليم الأديان السماوية ونبذ الأخلاق وإخضاع جميع المبادئ للمصلحة السياسية . ولكن الجديد فيها أن سياسياً من فلورنسا بإيطاليا هو مكيافيلي وجد في نفسه الجرأة على تسجيلها في كتابه (الأمير) مطالباً بتطبيق هذه السياسة تطبيقاً حرفياً لتنفيذ الوحدة الإيطالية التي كانت تهفو إليها نفسه , ولذلك يرى البعض أن طريقة مكيافيلي ولو أنها ليست جديدة إلا أنها تعتبر حدثاً هاماً في تاريخ الفكر السياسي , لأن هذا الفكر ظل طوال العصور ذا طابع ديني مسيحي لتأثره بتعاليم الكنيسة . أما كتابة مكيافيلي فهي بداية عهد جديد للتفكير السياسي.

ونادى سياسي إنجليزي هو : توماس مور بنظرية تقول إن الهدف من قيام الحكومة هو السهر على مصالح المحكومين و وتأسيساً على هذه النظرية بسطاً رائعاً في كتابه (عالم الكمال Utopia) صور فيه الدولة المثالية وشرح أنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية شرحاً طريفاً سنعرض له مع كتاب الأمير وكتاب ثالث في الفصل القادم .

تحطيم الحواجز الطائفية:

كان كل فرد في العصور الوسطى ينتمي إلى نقابة او طائفة سواء كان طبيباً أو تاجراً أو صانعاً أو قصاباً أو خبازاً أو نجاراً . وبازدياد التخصص في الصناعة والتجارة ازداد عدد النقابات والطوائف وبخاصة في المدن بحيث شملت جميع المهن والصناعات والحرف . وكانت كل نقابة او طائفة تفرض على العضو الذي ينتمي إليها قيوداً ثقيلة في اتصاله بالمجتمع . بل وفي نظام معيشته وملبسه وأسلوبه في العمل , وكان هذا النظام صارماً , ولم يكن في مقدور العضو أن يتحلل منه , بل أصبح بمثابة آلة تسير

وتتحرك داخل نطاق القيود المفروضة عليه , وانتهى به الأمر إلى أن أصبح مسلوب الشخصية سليب الإرادة . فلما جاءت النهضة حطمت الحواجز التي كانت تحول دون الاندماج الطليق للفرد في المجتمع واسترد حريته بعد نبذ ولاءه الطبقي للهيئة التي كان ينتمي إليه,وأصبح يمارس نشاطه المهني أو الصناعي او التجاري حراً من كل قيد . واعتقد أن هذا التحرر يعود عليه بمكاسب عديدة , فهو يحقق له مزيداً من الربح , وهو يوسع دائرة معلوماته وينشئ له صلات بزملائه خارج المدينة التي هو فيها , ويوثق اتصالاته بسائر طبقات المجتمع , كما ان الحرية تتمشى مع الاتجاهات التحررية التي أتت بها النهضة .

نتائج أخرى للنهضة:

وهناك آثار أخرى للنهضة منها القضاء على احتكار الكنيسة للعلم , فقامت مدارس وجامعات جديدة , وتحرر العقل البشري من الخرافات والقيود التي كانت مفروضة على حرية الفكر والبحث العلمي مما أدى إلى توالي ظهور مخترعات وكشوف جغرافية كان لها آثارها البعيدة في تطور البشرية ز وبعد أن كانت وسائل التعليم واكتساب المعرفة محدودة باهظة التكاليف , أصبحت بفضل اختراع الطباعة وكشف الورق في متناول الكثيرين , فوجد نوع من وحدة الثقافة ووحدة الفكر بين الشعوب غرب أوربا , وكان عصر النهضة هو الذي شهد نهاية النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي عرفته أوربا في العصور الوسطى.

ثلاثة من أعلام الفكر الأوربي الحديث

في مطلع عصر النهضة

حفل عصر النهضة بعدد من صفوة المفكرين الأوربيين بسطوا آراءهم في الحكم والسياسة والمجتمع والاقتصاد والدين في مؤلفات لا تزال تعتبر مصادر يستقى منها الباحثون في النظريات والأنظمة السياسية والدستورية وغيرها من نواحي المعرفة مادتهم العلمية عن عصر النهضة , وتعتبر هذه المؤلفات من أروع ما خلفه هذا

العصر من تراث للإنسانية . وقد آثرنا أن نعرض عرضاً سريعاً موجزاً ثلاثة من أولئك الأعلام , هم على حسب ترتيب ظهورهم : دانتى , مكيافيلي , توماس مور.

دانتي اليجييري :

ولد دانتي اليجييري Dante Alighieri في مدينة فلورنسا , ودرس في بادوا وبولونا في شبه الجزيرة الإيطالية ثم في باريس . وقد زج بنفسه في الحياة السياسية في فلورنسا حيث عين في يونيو عضواً في مجلس المائة ثم مستشارا , وبقي في هذا المنصب شهرين , وهو الحد الأقصى لشغل هذا المنصب طبقاً لنص دستور فلورنسا . وقد كان يشوب الحياة السياسية في فلورنسا منازعات طبقية عنيفة بين النبلاء والأثرياء من جهة , وأفراد الطبقة الدنيا من جهة أخرى . وكانت هناك تجمعات سياسية مختلفة في أهدافها ووسائلها واتجاهاتها . وحدث أن تغلب أنصار البابا على أنصار الإمبراطور الألماني , ورأى الألوان نفى دانتي , فهام على وجهة ينتقل من مدينة إلى أخرى مثل بادوا وفيرونا وأودينى ثم رافنيا حيث لفظ أنفاسه الأخيرة .

ودانتي من رواد اللغة الإيطالية ألف بها معظم إنتاجه الأدبي. وقد قسم اللغة الإيطالية إلى لغتين لغة عامية Locutio Vulgaris , ولغة مظاهر النهضة الحديثة وطالب بضرورة إخضاع هذه اللغة الفصحى لقواعد النحو والصرف.

وباللغة الإيطالية نظم دانتي قصائد عاطفية جعلته من أعلام الشعر والأدب في نظر معاصريه وغيرهم , وأطلق على هذه القصائد اسم ديوان الأغاني Canzoniere ومنها قصيدته (الحياة الجديدة) . وقد اعتزل الحياة واتخذ دانتي من النفي فرصة لزيادة حصيلته الثقافية فغذى منهوماً بالقراءة , وتعمق في المطالعات الإغريقية واللاتينية وأخرج الكوميديا الإلهية Divina Commedia تكلم فيها عن زيادة خيالية قام بها للجحيم والجنة , حادث في أثنائها النزلاء فيهما من رجال الأدب والعلم والدين والسياسة , وحرص على أن يذكر أنه قابل معبودته بياتريش.

والأساس في الكوميديا الإلهية هو الرغبة الدينية الشديدة في معرفة أسرار الحياة الأخيرة ولقد كانت هذه الفكرة قد استهوت عقول الكثيرين في العصور القديمة والوسطى , غلا أن الكوميديا الإلهية لا تتميز بطابعها الخيالي فحسب , بل بعبقريتها وعمق فكرتها وروعة خيالها مما أفرد لها مكاناً مرموقاً في التراث الأدبي العالمي.

وقد نجح دانتي في تصوير العدالة الإلهية يوم الحشر أروع تصوير . فعدالة الله سبحانه وتعالى عدالة مطلقة لم تفرق بين الأمير الثري وبين الشخص الفقير . والمناصب مهما سمت لم تعصم شاغليها من الحساب الدقيق , فمنهم من تردى في نار جهنم , ومنهم من تمتع بنعيم مقيم في جنات الفردوس . والجحيم في تصوير دانتي يزخر بعدد من الباباوات ومن إليهم من رجال الدين , وكذلك بعدد من رجال السياسة.

وتنقسم الكوميديا الإلهية إلى ثلاثة أقسام : الجحيم , والأعراف, ويطلق البعض عليه المطهر , والفردوس , وهذه الأجزاء الثلاثة تضم مائة أنشودة : أربعاً وثلاثين للجحيم , وثلاثاً وثلاثين لكل من الأعراف والفردوس .

استهل دانتي وصف زيارته للجحيم بقوله إنه وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ضل الطريق في غابة موحشة مظلمة كثيفة الشجر , وفوجئ ببعض حيوانات مفترسة نهمة تخرج عليه , فاستولى عليه الرعب من هول المفاجأة , ولكن سرعان ما لمح شبحاً يقترب منه , فإذا هو شخص تبدو عليه أمارات صمت استطال أمده فأفقده القدرة على الكلام بسهولة , والتمس دانتي منه إنقاذه من موت محقق . وتبين له أن هذا الشبح ليس إلا الشاعر اللاتيني الوثني فرجيليو Virgilio الذي هدأ من روعه , وأبلغه انه موفد من لدن بياتريش عشيقة دانتي لينقذه من الوحوش أولاً , ثم يصحبه إلى الجحيم , ثم إلى الأعراف (المطهر) حيث تكون عشيقته في انتظاره وتأخذه إلى الجنة .

ولما وصل دانتي إلى الجحيم وجد مكتوباً على بابها هذه العبارات (الطريق إلى حيث يحشد القوم المجرمون ,أنا عدالة الخلاق العظيم , صنعتي يد القدرة الإلهية

والحكمة السامية والحب الأزلي , لم يسبق وجودي غير . الكائنات السرمدية , ولقد كتب على الخلود . أيها الداخلون من بابي , اتركوا كل أمل).

دخل دانتي جهنم يصحبه مرشده الشاعر الوثني فرجيليو , وجلسا في زورق سار بهما في نهر يمتد إلى طبقات جهنم ودركاتها , ووصف دانتي كل درك فيها , ونظر إلى النزلاء الذين رآهم في جهنم , فإذا هم أرواح الرهبان الذين باعوا صكوك الغفران للناس بالأموال وجعلوا منها تجارة رابحة لهم , وهؤلاء وجدهم على صورة مفزعة , فقدغرست رءوسهم في الأرض بينما اشتعلت أقدامهم نارا, وقابل المنجمين والعرافين الذين خدعوا الناس بإدعائهم كشف حجب الغيب , ومرتكبي الخيانة الزوجية من الجنسين , والذين خانوا أوطانهم , والمرتشين من رجال القضاء , واللصوص وقطاع الطرق , والذين يغتابون الناس , ومزيفي النقود , والمسرفين والبخلاء وأهل البدع , والعائبين في الذات الإلهية , والمصابين بالشذوذ الجنسي , ومن إليهم من النماذج البشرية . ورأى دانتي أرواح هؤلاء الناس تتعرض لعذاب متنوع يتفاوت شدة وعنفاً واعتدالاً . وقد رأى في جهنم العلماء والفلاسفة والشعراء الذين لم يدركوا عصر المسيحية فعاشوا في عصور الوثنية , ولكنهم كانوا يحيون في حياتهم الدنيا حياة فاضلة , ولذلك كان عذابهم يسيراً , وحسبهم حرمانهم من رؤية الله . اما غيرهم فكان ينزل عليهم شواظ من نار دون انقطاع وهم راقدون على رمال محرقة في أوضاع مختلفة . ورأى في جهنم إبليس , ويهوذا الذي خان المسيح , كما شاهد بروتوس وكاسيس اللذين خانا ولي نعمتهما يوليوس قيصر , كما لاحظ أن جهنم عامرة بعدد من الباباوات.

ومن الجحيم انتقل دانتي ومرافقة إلى سور الجنة وهو الأعراف أو المطهر . ولما بلغاه شعرا بطمأنينة وهدوء واستنشقا هواء نقياً تحت زرقة السماء الصافية , ونزلا في مياه بحر مجاور لهما تطهرا فيه , ولمحا زورقاً يتلألأ نوراً يقترب منهما , ونزلت منه أرواح كثيرة تستحم في مياه البحر لتطهر من أدرانها قبل دخولها الجنة . ووصف

الأعراف متكوناً من سبع دوائر تختص كل واحدة منها بخطيئة من الخطايا السبع الكبرى التى أشارت إليها المسيحية (المتكبرون , والحاسدون , وأهل الخمول والكسل , والبخلاء , والمسرفون , وأولو الشر , والنهم) . وعبر دانتي ومرافقه سوراً من اللهب ضرب بين الأعراف والجنة ووجد أجمل البساتين تفوح منها رائحة الورود والأزهار .

واختلفت آراء الباحثين حول الأهداف التي توخاها دانتي من تأليف الكوميديا الإلهية , وتتجلى في الكوميديا الإلهية صور الصراع بين العصور الوسطى المتجمدة وبين روح النهضة المتحررة , فالمؤلف يتمشى تارة مع روح الكنيسة , حين يتحرج عن وصف ملامح وأجسام بعض السيدات , وتارة اخرى يخرج على تعاليم الكنيسة , حين يضع في جهنم بعض البابوات , وحين يضع في الجنة بعض الناس وكان مكانهم في جهنم من وجهة نظر الكنيسة . وقد تراءت الكنيسة الكاثوليكية لدانتي مهتزة اهتزازاً عنيفاً : فقدت قدرتها على الخير واستشرى الفساد بين رجالها بسبب رغبتهم الجامحة في الجري وراء الثروات وفي السيطرة الدنيوية .

لقد قيل إن دانتي قد سلخ قرابة ثمانية عشر عاماً في وضع الكوميديا الإلهية , وقد جاءت بمثابة موسوعة او دائرة معارف مصغرة صب فيها بأسلوب جذاب شتى أنواع العلوم والمعارف من مذاهب فلسفية واتجاهات سياسة ومبادئ دينية مر بها المجتمع على توالي العصور والأحقاب . فهي ثمرة لقاء فكري بين الثقافات العربية والمسيحية واللاتينية والإغريقية . ولكن يظهر فيها بوضوح أثر التراث الشرقي العربي الإسلامي , فقد دانتي الكثير من هذا التراث الذي كان قد انتشر في أوربا طولا وعرضاً منذ استيلاء العرب على أسبانيا , وسرعان ما غدت الأندلس معبراً رئيسياً من معابر الثقافة العربية الإسلامية تشق طريقها إلى أوربا منذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد تضئ ظلمات الحياة العقلية والفكرية أمام الأوربيين في العصور الوسطى ولتمهد الطريق لقيام النهضة الأوربية.

وقد وضع دانتي باللغة اللاتينية رسالة (الملكية) de Monarchia وقد قرر فيها أن الحرب هي آفة التقدم , وأن السلام العالمي يجب أن يكون هدف السياسة . وذهب إلى أن مصدر الشرور والنكبات في الماضي والحاضر هو طموح رجال الدين وتطلعهم إلى الاستئثار بسلطات دنيوية وتجميع ثروات عريضة مما لا يتفق مع رسالتهم , وقرر أن إصلاح الكنيسة يجب أن يبدأ بنشر روح التقشف والقناعة بين رجالها . وفضلاً عن هذه الآراء التي تضمنتها رسالة دانتي , فقد أشار فيها أيضاً إلى فكر سياسي معين : هو أن قيام الدولة العالمية أمر لامناص منه لتحقيق السلام العالمي الذي يجلب معه الخير والسعادة للبشرية . ولكنه رأى ان هذه الدولة العالمية يجب تكون الإمبراطورية الرومانية المقدسة , واشترط ألا يستمد إمبراطورها لقبه ونفوذه من البابا , بل يستمدها من الله سبحانه وتعالى مباشرة ودون أن يخضع هذا الإمبراطور لسلطان البابا على أي نحو من الأنحاء . ومما هو الجدير بالذكر أنه لم يمض وقت طويل حتى غدت هذه الرسالة (الملكية) سلاحاً في الجدل السياسي الذي نشب بين لويس ملك بافاريا وبين البابا يوحنا الثاني والعشرين . وقد أحرق مندوب البابا هذه الرسالة علناً .

وقد وضع دانتي باللغة الإيطالية كتاباً اسمه الوليمة ll Convivio عالج فيه موضوعات شتى في السياسة والحكمة والأخلاق والحب . وله مؤلف آخر باللغة الإيطالية أيضاً يسمى العامية الفصحى De Vulgaris Eloquenta وتتخلص الفلسفة السياسية في مؤلفات دانتي في أن مثله الأعلى في نظم الحكم السياسة هو الإمبراطورية الرومانية المقدسة , وأنه كان لا يجيد قيام النظام الجمهوري , وأن هدفه سيطرة القانون لا الحرية.

نيقولا مكيافيلى:

ولد نيقولا ميكافيلي Nicolss Mackiavel في فلورنسا من اسرة متوسطة الثراء ولا يكاد الباحثون يعرفون شيئاً ذا غناء عن نشأته الأولى , غير أن القسط الذي حصل عليه ميكافيلي من التعليم قد أهله ليتدرج في الوظائف الحكومية في فلورنسا

حتى وقع عليه اختيار مجلس الثمانين ليكون أميناً لمجلس العدلية , وهو منصب خطير, لأن هذا المجلس – وقوامه عشرة أعضاء فقط – كان يخطط للسياسة الخارجية التي تسير عليها فلورنسا . وقد أوفد المجلس مكيافيلي في بعثات سياسية متلاحقة كان بعضها إلى خارج إيطاليا , والبعض الآخر إلى الإمارات المختلفة في شبه الجزيرة الإيطالية لتنفيذ السياسة : خبر الكثير من خفايا السياسة الدولية , ولمس عن كتب أخلاق رجال السياسة , وأضاف إلى حصيلته العلمية مزيداً من المعلومات والآراء السياسية . وقد اعترف مكيافيلي في رسائله أن المناصب السياسية تتواءم مع ملكاته لأنه لا يفقه كثيراً ولا قليلاً في شئون الاقتصاد , وليس له ميل فطري للفنون .

وكان من بين الآراء التي خرج بها من تجاربه أن اعتماد دولة ما على دولة أجنبية في الدفاع عن أراضيها يعتبر نكبة تؤدي إلى ضياع الدولة الأولى . ولذلك رأى أن سلامة فلورنسا تتطلب إنشاء جيش وطني قوي بدلاً من الاعتماد على الجنود المرتزقة , وكان أمراً مألوفاً في تلك العصور استخدام الجنود المرتزقة في الدفاع عن المدن الإيطالية وفي تكوين الجيوش الأوربية عامة . وقد بذل مكيافيلي جهداً مضيئاً في إنشاء جيش قوي لفلورنسا دل صدق وطنيته ورغبته في حماية مدينته.

وحدث أن أراد البابا جيل الثاني إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا , وكان على فلورنسا أن تختار بين صداقة البابا الطموح وبين صداقة حليفتها فرنسا . واختارت فلورنسا لإبلاغه استمساك فلورنسا بتحالفها مع فرنسا , واشتعلت الحرب بين فرنسا وبين البابا جيل الثاني واستطاع إجلاء الفرنسيين عن إيطاليا , ولكنه استبدل النفوذ الإسباني بالنفوذ الفرنسي , وكان من نتائج هذه الأحداث أن أسقطت الجمهورية الفلورنسية وعادت أسرة مدتشي إلى الحكم وطرد مكيافيلي من منصبه , وأصبحت فلورنسا خاضعة خضوعاً تاماً للأسرة ممثلة في الكاردينال جيوفاني مدتشي . ومع ذلك فقد عرض مكيافيلي خدماته على أسرة مدتشي أملا في استرداد وظيفة . ولعله كان يعتقد أن رجلا مثله لا يمكن أن تستغني عنه الحكومة الجديدة , وأن خبراته

السابقة تجعل وجوده في منصبه أمراً لا غناء عنه ولكنـه سرعـان مـا أفـاق عـلى الحقيقـة المؤلمة , فلم تقتنع الحكومة الجديدة بعزله , بل أمرت بنفيه مـدة عـام عـلى أن يبقـى في حدود دولة فلورنسا , ولما لم تسفر مساعيه في العودة إلى منصبه عـن النتيجـة التـي كـان يبتغيها رأى أن ينتقل بمواهبه وخبراته من ميدان السياسة إلى عالم التأليف . وفي منفـاه في سان كاشيانا شرع يؤلف كتاب (الأمير) وقدمه لأسرة مدتشي , ثم وضع كتاباً ثانياً بعنوان (مطارحات) , وأتبعه بكتاب ثالث (تاريخ فلورنسا) ثم بكتاب رابع (فن الحرب) تلـك أبرز ملامح أوروبا في عصر النهضة لتبدأ حقبة جديدة هي تاريخها في العصر الحديث.

يصعب تحديد عام بعينه باعتباره بداية التاريخ الحديث لأوروبا, لذلك يعتبر عصر النهضة الأوروبية من دلائل الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة .رغـم ذلـك اعتبر البعض سقوط القـسطنطينية في يـد الأتـراك العثمانيـين عـام1453م بدايـة للتـاريخ الأوروبي الحديث، فقد ترتب على هذا الحادث قيام حركة لإحياء العلوم في أوروبا, عنـدما غادر القسطنطينية عدد كبير من العلماء اليونانيين إلى أوروبا حاملين معهم مخطوطـاتهم الثمينة التي انبثقت منها دراسات جديـدة مهـدت الطريـق لظهـور النهـضة الأوروبيـة و حركة إحياء العلوم.

ويشمل تاريخ أوروبا في العصور الحديثة أكثر من أربعمائة سنة من نهاية العـصور الوسطى إلى بداية القرن التاسع عشر الميلادي, ويمكن القول أن بـوادر النهـضة ظهـرت في القرن الثالث عشر وبرزت خصائصها تدريجيا خلال القرنين الرابـع عـشر والخـامس عـشر, بحيث عبرت قوى النهضة عن نفسها بوضوح في القرن السادس عـشر, الـذي ظهـرت فيـه الدولة الحديثة وحركة الإصلاح الديني .

أما القرن السابع عشر فقد امتـاز بظهـور الملكيـات المطلقـة في أوروبـا ,لـذلك هـو عـصر الـسيطرة الفرنـسية, فقـد خرجـت أوروبـا مـن الـصراع الـديني العنيـف منهكـة القوى, فأصبحت تتطلع لإقامة نظـام حكـم قـوي يـستطيع أن يـؤمن الاسـتقرار ويحفـظ

النظام, وتمثل ذلك بتدعيم الأنظمة الملكية في الدولة الحديثة, فظهر في فرنسا على سبيل المثال ملوك البوربون العظام. ورغم أن القرن السابع عشر امتاز بانتشار الملكيات المطلقة في أوروبا إلا أن انجلترا ظلت بعيدة عن هذا النظام بسبب عزلتها وتقاليدها الموروثة.

أما القرن الثامن عشر الذي انتهى باندلاع الثورة الفرنسية عام1789 ,فيعرف بعصر الملكيات المستبدة المستنيرة, بمعنى أن الملكية صارت تعتبر نفسها من ذلك الوقت خادمة للشعب بعد أن كانت سيدته, فهي تعمل لصالح الشعوب المحكومة ولصالح الدولة ذاتها في الوقت نفسه. وهذا النوع من الملكيات عرف في روسيا التي ظهرت على مسرح السياسة الأوروبية عندما بدأت تهاجم الأتراك في القرن السابع عشر.

وقد نجح طراز الملكيات المستبدة في تحقيق الأغراض التي وجد من اجلها ,إلا في فرنسا التي انفردت بنوع من الحكم الاستبدادي في عهد لويس الخامس عشر, فاثأر المقاومة ضده في كل جانب. ثم لم تلبث أن انتشرت آراء فلاسفة الثورة لتعمل على تحطيم النظام القديم, حتى إذا بدا حكم لويس السادس عشر " الرجل الضعيف" انفجرت الثورة عام 1789 والتي اعتبرت نهاية عصر بأكمله، وذلك لأنها :

- قضت على بقايا الأنظمة و التقاليد الإقطاعية في أوروبا.
- قضت على فكرة الحكومة المطلقة نهائيا.
- أدت إلى إيجاد نظام الحكومة الدستورية التي يحصل فيها الشعب على حق الاشتراك في إدارة شؤون الحكم بواسطة ممثليه إلى جانب الهيئة الحاكمة.
- أدت إلى نجاح الطبقة المتوسطة التي انتشرت على يد أهلها النظم الديمقراطية في القرن التاسع عشر .

وشهد القرن الثامن عشر نزاعا استعماريا قويا بين فرنسا وبريطانيا في أمريكا والهند انتهى لصالح انجلترا بموجب صلح باريس عام 1763م وفقدت فرنسا

مستعمراتها في أمريكا والهند, و انتقل ميدان التنافس بينهما إلى القارة الأوروبية والذي انتهى بهزيمة نابليون الأول إمبراطور فرنسا في موقعة واترلو عام 1815م.

مظاهر الانتقال من العصور الوسطى إلى الحديثة

هذه المظاهر الجديدة على أوروبا والتي بدأت أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر,والتي لم تبدأ بعام محدد ولم تشرق على أوروبا دفعة واحدة ,لكن بذورها بدأت تنبت في أواخر العصور الوسطى و أتت ثمارها في العصر الحديث.

ومن هذه المظاهر:

الناحية الثقافية : أول ما ظهر التطور في أوروبا تمثل في الناحية الثقافية, فقد كانت الكنيسة وحدها تتولى الثقافة والتعليم في العصور الوسطى, وكان العلماء أنفسهم رجال الدين الذين يقررون ما يقبله الناس أو يرفضونه ,وتعاليمهم لا تقبل المناقشة. وكانت اللغة اللاتينية هي اللغة الأساسية الواجب على الفرد أن يتعلمها ويتقنها. وهي لغة الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى .

و كانت اللغات القومية للتخاطب المحلي فقط, ثم تطورت تدريجيا في العصور الحديثة إلى الناحية القومية ولم تعد اللغة اللاتينية وحدها لغة الثقافة و الأدب. وتصدت الجامعات لسيادة الكنيسة البابوية وناهضت مبدأ خضوع جميع الكنائس في البلاد الغربية خضوعا تاما للبابوية.

و أصبح التفكير حرا بهدف الوصول إلى الحقيقة, وتوفير أسباب السعادة للإنسان, ولم يعد التفكير بالعالم الآخر- بعد الموت- هو الشغل الشاغل للناس, فظهرت حركة أدبية واسعة النطاق عرفت بالحركة الإنسانية و عرف المشتغلون بها بالإنسانيين, تمثل عملهم بالاهتمام بحياة الإنسان بعد أن تناستها العصور الوسطى التي اهتمت بالجوانب الروحية الأخروية على حساب المادية الدنيوية مما أدى إلى ظهور الرهبنة.

وزالت وصاية رجال الدين على التفكير والعلم وأصبحت الحقيقة بذاتها الهدف المنشود .واهتم الإنسانيون بالبحث عن الحقائق في كنوز المعرفة القديمة اليونانية و الرومانية, و اهتموا بجمع المخطوطات القديمة و دراستها و التعليق عليها. وازداد عدد المقبلين على تعلم اللغة اللاتينية واليونانية في بداية العصور الحديثة لتفسير ما جاءت به المخطوطات, وبعدها انتقلوا إلى الاهتمام باللغات القومية كالايطالية والفرنسة والانجليزية وغيرها، الأمر الذي أصبح مظهرا من مظاهر النزعة القومية وعاملا هاما لنشر الأفكار الجديدة التي أتت بها النهضة, ففي ايطاليا كتب الشاعر الكبير دانتي كتابه الشهير(الكوميديا الإلهية) باللغة الايطالية, وفي انجلترا وضع شوسر (قصص كانتر بيري) باللغة الانجليزية, وغيرهم كثر في أوروبا الذين كتبوا أعمالهم بلغاتهم القومية.

وصاحب ذلك الاهتمام بترجمة التراث القديم إلى اللغات المحلية وترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات القومية, بعد أن كانت المعلومات الدينية حكر على رجال الدين الذين سخروها لمصالحهم المادية المختلفة, ونجم عن المطالبات بإصلاح الكنيسة ظهور حركة الإصلاح الديني على نطاق واسع, وترتب عليها اعتناق بعض شعوب أوروبا المقيدة البروتستنتية .

ومن المظاهر الثقافية عناية بعض الشعوب الأوروبية بجغرافية العالم واكتشاف أبعاده. وكان احتلال البرتغاليين سبته على الساحل الإفريقي عام 1415م بداية المغامرات البحرية التي أدت إلى دوران فاسكوداجاما حول افريقية عام1492م و بداية الاستعمار البرتغالي في الشرق, ثم اكتشاف أمريكا, و انتقال التفوق التجاري من المدن الايطالية إلى الدول التي تطل على المحيط الأطلسي. و بدا تنافس الدول الأوروبية بالبرتغال ثم اسبانيا ثم هولندا و فرنسا و انجلترا على الاستعمار خارج أوروبا.

وأثبتت حركة الكشوف الجغرافية بطريقة علمية كروية الأرض بعد نجاح رحلة ماجلان حول الأرض. وغيرها من النظريات التي عارضها رجال الدين في العصور

الوسطى. و هكذا ازدادت معرفة الإنسان بان العلم لا يقف عند حد وان الحقيقة بنت البحث.

المظاهر السياسية :

تمثلت أهم المظاهر السياسية بظهور الدولة القومية الحديثة،فقد أدى تطور الحركة التجارية في أوروبا مطلع العصر الحديث خصوصا بين الشرق والغرب،إما بطريق آسيا وروسيا عبر البلطيق،أو بطريق بحر قزوين والأنهار الروسية،وإما بطريق البحر المتوسط الذي كان أهمها جميعا، فكان البنادقة ينقلون المتاجر الشرقية من موانئ المتوسط إلى المدن الايطالية الشمالية،ومنها إلى أوروبا عبر جبال الألب ثم إلى وسط ألمانيا أو إلى شمالها ثم الأراضي المنخفضة.

ونجم عن ذلك أن ظهرت في أوروبا منطقتان رئيستان للصناعة،أحدهما شمال غرب أوروبا والأخرى في إيطاليا الشمالية،وبينهما عدة مراكز صناعية،وعرف هذا الطريق بأنه(السلسلة الفقرية الاقتصادية لأوروبا)،فساهم في نشأة الدولة القومية الحديثة؛ ذلك أنه بفضل قيام الصناعات وانتشار التجارة حول الطريق،ظهرت طبقة جديدة تحملت عبء هذا النشاط،وهي الطبقة الوسطى(أو البرجوازية)، كما حدث في فرنسا وانجلترا وهولندا وبلجيكا.

ولما أصبحت التجارة والصناعة هي مصدر الثروة والقوة التي امتلكتها الطبقة الوسطى ،فقد زالت أهمية الأرض كمصدر منفرد للثروة، وأدى ذلك إلى زوال طبقة رقيق الأرض وزوال نظام الإقطاع الأوروبي بأكمله،وظهور الدولة القومية الحديثة.وقامت الطبقى الوسطى بالدور الأكبر في الدولة الحديثة،إذ لاعتبارات جغرافية، اتفق أهل الإقليم الواحد في اللغة والجنس وإلى حد ما في الدين على تقسيم أوروبا إلى مجموعات من الأمم،وكانت الطبقة الوسطى عماد النشاط الاقتصادي في كل أمة.

وشعرت الطبقة الوسطى بتفوقها على الطبقات الأخرى،وأنها بحاجة إلى حكم جديد يهتم بمصالحها وعلاقاتها السياسية كافة، بعيدا عن نموذج النظام السياسي الذي

كان سائدا في العصور الوسطى، ووجدت الوسيلة في إنشاء سلطة مركزية قوية تهتم بحماية نشاطها الاقتصادي وتنميته، ولأنها صاحبة الثروة فالحكومة المركزية بحاجة إلى معونتها المالية اللازمة لنفقاتها لتأدية واجبها على الوجه الأكمل. وساندت الطبقة الوسطى نظام (الملكية المطلقة) للقضاء على سلطة النبلاء،حتى أصبحت منيعة الجانب. وتطرف الملوك في هذا النظام فاعتبروا أنفسهم يمثلون الله على الأرض ويستمدون سلطانهم منه، هذا ما عرف باسم (حق الملوك المقدس).

وبالتالي أصبحت الدولة القومية ذات النظام الملكي الوراثي هي الوحدة السياسية في التكوين الأوروبي الحديث،وكانت انجلترا وفرنسا واسبانيا والبرتغال أسبق هذه الوحدات، بينما تأخر تطبيق هذا النظام في ألمانيا وايطاليا إلى القرن التاسع عشر. ففي انجلترا مثلا وبعد انتهاء حرب المائة عام مع فرنسا (1337-1453م) اقتصرت جهود ملوكها على انجلترا ذاتها، وامتاز تاريخها باجتماع كلمة النبلاء ورجال الدين والعامة على تقييد الملكية، وذلك منذ صدور(العهد الأعظم) الماجنا كارتا عام 1215م الذي وضح الحقوق والواجبات لكافة طبقات المجتمع الانجليزي. وفي سنة 1455 بدأت الحرب الأهلية المشهورة باسم (حرب الوردتين)، والتي استمرت ثلاثين عاما،والسبب في تسميتها أنها وقعت بين أسرتين عريقتين من الأسر الحاكمة في انجلترا وهما أسرة(يورك) وكان شعارها الوردة البيضاء، وأسرة لنكستر وشعارها الوردة الحمراء. وكان سبب الحرب التنافس بينهما على منصب ملك انجلترا وانتهت الحرب بانتصار لنكستر، وتأسيس ملكية تيودور السابع القوية .

أما في فرنسا فبعد حرب المائة عام،وانتهاء نفوذ انجلترا من الأراضي الفرنسية، استطاعت فرنسا أن تحقق وحدتها السياسية المتكاملة، من خلال حكومة ملكية ذات سلطة مركزية.وسعى ملكها شارل الثامن (1483-1498 لإتمام تلك الوحدة،كما رغب بتوسيع نفوذ فرنسا إلى خارج حدودها،خصوصا على حساب ايطاليا المقسمة إلى إمارات عديدة،فكان أول من بدأ عام 1494الحروب الشهيرة المعروفة باسم

الحروب الايطالية،والتي انتهت بمعاهدة عام 1559 على أثر تدخل الدول الأوروبية خصوصا اسبانيا.ولم تحقق فرنسا أطماعها في ايطاليا .

المظاهر الاقتصادية:

جاءت المظاهر الاقتصادية لأوروبا الحديثة نتيجة للكشوف الجغرافية وحركة الاستعمار الذي بدأته البرتغال واسبانيا خارج القارة الأوروبية. فقد استطاعت البرتغال اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح حول إفريقيا؛ فتمكنت من ربط آسيا بأوروبا بطريق مائي جديد مهد السبيل للبرتغاليين للسيطرة على تجارة الشرق الأقصى.

ونتج عن حركة الكشوف الجغرافية انتقال مركز التجارة من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطي،وبالتالي انتقلت الزعامة التجارية من دول المتوسط إلى دول غرب أوروبا؛ ونتج عن ذلك تدفق منتجات الشرق على أوروبا بكميات أوفر وأسعار أقل مما كانت عليه سابقا. كما اهتمت أوروبا بإغراق البلاد المكتشفة بمنتجاتها الصناعية،فنشطت الصناعة وزاد حجم التجارة،وبالتالي فتحت الكشوف الجغرافية ميادين جديدة للاستغلال والنشاط الاقتصادي.وازداد التنافس بين الدول الأوروبية خصوصا في العالم الجديد(القارة الأمريكية)،الذي أصبح مصدر تدفق الذهب والفضة إلى أوروبا،مما ساعد على تدهور نظام التعامل البدائي،ثم تضخم العملة وتدهور قيمتها.

وارتبطت الثورة التجارية بانتشار الرأسمالية كنظام اقتصادي جديد،حين أصبح بإمكان الفرد أو مجموعة من الأفراد استغلال مدخراتهم في عمليات تجارية أو صناعية بقصد الحصول على الربح. ونمت العمليات الرأسمالية نموا سريعا،وتطورت أشكال الشركات التجارية،فحلت الشركات المساهمة محل الشركات الأسرية.

المظاهر الدينية:

وهي مرتبطة بالمظاهر الفكرية،لأن تحرر الإنسان في تفكيره دفعه إلى مناهضة سلطة الكنيسة المطلقة وبالتالي ظهور حركة الإصلاح الديني. ومنذ أوائل القرن السادس عشر واجه شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة مشكلة في ألمانيا

تمثلت بالحركة الدينية التي تزعمها مارتن لوثر ضد الكنيسة الكاثوليكية في روما،نتج عنها انقسام ديني مذهبي جعل سكان ألمانيا فريقين:كاثوليكي وبروتستانتي؛مما أدى إلى حرب أهلية في ألمانيا امتدت إلى بقية أوروبا،ونتج عنها كثير من الدماء.

ومن آثار هذه الحركة على العالم المسيحي أن خرج على الكنيسة الكاثوليكية أكثر من نصف أوروبا الغربية تحت اسم البروتستانتية،كما ظهرت أنواع جديدة من المذاهب البروتستانتية،بينما بقيت الدول الكبرى مثل فرنسا واسبانيا والنمسا وايطاليا على كاثوليكيتها.

ومن العوامل التي أدت إلى انتشار حركة الإصلاح الديني مطلع العصر الحديث في أوروبا:

- تدهور الكنيسة الكاثوليكية في روما.
- روح النقد والتحرر الفكري من القيود التي فرضتها الكنيسة.
- رغبة حكام الوحدات السياسية في ألمانيا بالتحرر من سيطرة الكنيسة في روما.
- صكوك الغفران،وكانت السبب المباشر لقيام حركة الاصطلاح الديني وتحولها إلى حركة ثورية.

مؤتمر فيينا 1815

عبارة عن مؤتمر لسفراء الدول الأوروبية ترأسه رجل الدولة النمساوي كليمنس فينتزل فون ميترنيخ عقد المؤتمر في فيينا في الفترة من أيلول / سبتمبر 1814 إلى حزيران / يونيو 1815 كان هدفه تسوية العديد من القضايا الناشئة عن حروب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وتفكك الإمبراطورية الرومانية المقدسة. أسفر هذا المؤتمر عن إعادة رسم الخريطة السياسية للقارة، ووضع حدود لفرنسا ودوقية نابليون في وارسو وهولندا وولايات نهر الراين والمقاطعة الألمانية في ساكسونيا وعلى الأراضي الإيطالية المختلفة وإنشاء مناطق نفوذ لكل من فرنسا والنمسا وروسيا وبريطانيا تتوسط فيها تلك الدول في حل المشاكل المحلية والإقليمية. كان مؤتمر فيينا نموذجاً لعصبة الأمم والأمم المتحدة بسبب هدفها في إحلال السلام من جانب جميع الأطراف.

كانت الخلفية المباشرة هزيمة فرنسا النابليونية واستسلامها في مايو/ أيار 1814 الأمر الذي وضع حداً لـ 25 عاماً من الحرب المتواصلة تقريباً. استمرت المفاوضات على الرغم من اندلاع القتال الناجم عن عودة نابليون من المنفى واستعادته للحكم في فرنسا خلال مئة يوم من آذار / مارس إلى تموز / يوليو 1815الوثيقة الختامية للمؤتمر وقعت قبل تسعة أيام من هزيمته النهائية في واترلو في 18 يونيو/ حزيران 1815 الأمر المثير للاهتمام في مؤتمر فيينا هو أنه لم يكن مؤتمراً بالمعنى الحرفي للكلمة حيث لم تعقد جلسة عامة أبداً كما جرت معظم النقاشات بصفة غير رسمية، ووجهاً لوجه بين القوى العظمى مثل فرنسا والمملكة المتحدة والنمسا وروسيا وفي بعض الأحيان بروسيا، مع مشاركة محدودة أو معدومة من قبل المندوبين الآخرين. من ناحية أخرى كان الكونغرس المحاولة الأولى في التاريخ حيث تجتمع القوى على نطاق القاري بهدف الوصول إلى معاهدة، بدلا من الاعتماد أساسا على الرسل والرسائل بين العواصم المختلفة. أدت التسوية في نهاية مؤتمر فيينا - على الرغم من التغييرات

اللاحقة - لتشكيل إطار للسياسة الدولية الأوروبية حتى اندلاع الحـرب العالميـة الأولى في عام 1914

وقعت تسويات جزئية بالفعل خلال معاهدة باريس بين فرنسا والتحالف السادس وخلال معاهدة كيل التي شملت القضايا التـي أثـيرت حـول الـدول الاسـكندنافية قـررت معاهدة باريس وجوب انعقاد مؤتمر عام في فيينا وأنه سيتم توجيـه الـدعوات إلى جميـع القوى الفاعلة في الحرب الحالية قرر الافتتاح في يوليو / تموز 1814.

المشاركون:

شكلت القوى الأربع العظمى سابقاً قلب التحـالف الـسادس ومـع اقـتراب هزيمـة نـابليون حـددوا مـواقفهم المـشتركة والمـذكورة في معاهـدة شـومو آذار / مـارس 1814، وتفاوضوا على معاهدة باريس مع آل بوربون في فرنسا خلال إعادة تنصيبهم :

- النمسا ومثلها الأمير ميترنيخ وزير الخارجية ونائبه البارون يوهان فون فيسينبيرغ.
- المملكة المتحدة ممثلة من قبل دوق ولينغتون.
- روسيا وزير الخارجية الكونت كارل روبرت نيسيلرود.
- بروسـيا مثلـت مـن طـرف الأمـير كـارل أوغـست فـون هـاردينبيرغ المستـشار، والدبلوماسي والباحث فيلهلم فون همبولت.
- كانت فرنسا القوة الخامسة ممثلة بوزير خارجيتهـا تـشارلز مـوريس دو تـاليران - بيريغو الموقعون الثلاثة الآخرون على معاهدة باريس (1814).
- إسبانيا البرتغال النرويج والسويد وآخرون مثل دنمارك وهولندا وسويسرا والولايـات البابـاوية.

مسار المؤتمر:

في البداية اجتمع ممثلوا القوى الأربع المنتصرة آملين في استبعاد الفرنسيين من المشاركة في مفاوضات جدية. استطاع تاليران بمهارته السياسية إدراج نفسه في المجالس الداخلية في الأسابيع الأولى من المفاوضات. حيث تحالف مع ثمانية من القوى الأوروبية الأصغر (بما في ذلك إسبانيا والسويد والبرتغال) في لجنة للسيطرة على المفاوضات حالما نجح تاليران في إقحام اللجنة في المفاوضات الداخلية انسحب منها متخلياً عن حلفائه أدى تردد الحلفاء الكبير حول كيفية إدارة شؤون المؤتمر دون إثارة احتجاج موحد من القوى الأقل شأناً إلى الدعوة لعقد مؤتمر تمهيدي حول البروتوكول. دعي إلى هذا المؤتمر كل من تاليران وماركيز لابرادور ممثل إسبانيا، في 30 سبتمبر أيلول 1814.

المرسوم الأخير:

وقع المرسوم النهائي الذي ضم كافة الاتفاقيات في 9 حزيران/ يونيو 1815 تشمل بنوده:

تمنح روسيا أغلب دوقية وارسو على أن تحتفظ بفنلندا (التي كانت قد ضمتها من السويد عام 1809 حتى عام 1917.

تمنح بروسيا خمسي ساكسونيا وأجزاء من دوقية وارسو ودانتزغ وأرض الراين وستفاليا.

تم إنشاء اتحاد ألماني من 38 دويلة من أصل 360 كانت تشكل بمجملها الإمبراطورية الرومانية المقدسة برئاسة الإمبراطور النمساوي. أدرجت أجزاء فقط من أراضي النمسا وبروسيا في الاتحاد.

وحدت هولندا وجنوب هولندا في نظام ملكي دستوري يحكمه ملك للتعويض عن خسارة آل أورانج ناساو لأراضي ناساو لصالح بروسيا، تشكل المملكة المتحدة

الهولندية ودوقية لوكسمبورغ اتحاداً شخصياً بحكم آل أورانج - ناساو حيث تكون لوكسمبورغ (ولكن ليس هولندا) ضمن الاتحاد الألماني.

بوميرانيا السويدية التي استولت عليها الدنمارك في العام السابق تسلم لبروسيا. ضمان حيادية سويسرا.

تتنازل هانوفر عن دوقية لاونبيرغ للدنمارك، ولكن تتوسع أراضيها بضم الأراضي الخاضعة سابقاً لأسقف مونستر والأراضي البروسية في فريزيا الشرقية.

يعترف بمعظم المكاسب الإقليمية لكل من بافاريا وفورتمبيرغ وبادن وهيسه - دارمشتات وناساو خلال عمليات الاستيعاب بين عامي 1801 - 1806. ضمت بافاريا أيضاً راينيشه بالاتينيت وأجزاء من دوقية نابليون في فورتسبورغ ودوقية فرانكفورت الكبرى منحت هيسه - دارمشتات مدينة ماينتس مقابل التخلي عن دوقية ويستفاليا لبروسيا.

تستعيد النمسا السيطرة على تيرول وسالزبورغ من المحافظات الإيليرية السابقة ومقاطعة ترنوبل من روسيا. كما تمنح لومبارديا والبندقية في إيطاليا ودوبروفنيك في دالماسيا. تبقى الأراضي النمساوية السابقة في جنوب غرب ألمانيا تحت سيطرة بادن وفورتمبيرغ كما فقدت ممتلكاتها في هولندا.

يستعاد أمراء هابسبورغ إلى عرشي دوقية توسكانا الكبرى ودوقية مودينا. الدولة البابوية تحت حكم البابا وتستعيد حدودها السابقة باستثناء أفنيون وكومتا فينايسي والتي بقيت جزءاً من فرنسا.

تم تثبيت سيطرة المملكة المتحدة على مستعمرة كيب في جنوب أفريقيا وتوباغو وسيلان وغيرها من مختلف المستعمرات في أفريقيا وآسيا. كما أعيدت المستعمرات الأخرى وأبرزها جزر الهند الشرقية الهولندية والمارتينيك إلى أصحابها السابقين. استعيد ملك سردينيا في بيدمونت ونيس وسافوي ومنح السيطرة على جنوى مما وضع نهاية للجمهورية في المدينة.

أعطيت دوقيات بارما وبياتشينزا وغاستالا لماري لويز زوجة نابليون.

أنشئت دوقية لوكا لصالح آل بوربون - بارما حيث تعود حقوقها لبارما بعد وفاة ماري لويز.

فرديناند الرابع من البوربون، ملك صقلية يستعيد السيطرة على مملكة نابولي بعد أن قام يواكيم مورات (الملك المنصب من طرف بونابرت)، بدعم نابليون في المائة يوم وإعلان الحرب على النمسا.

أدينت تجارة الرقيق. تكفل حرية الملاحة في العديد من الأنهار بما فيها الراين.

التغييرات الأخرى:

كانت نتائج المؤتمر الرئيسية فضلاً عن تأكيده خسارة فرنسا للأراضي التي ضمتها بين عامي 1795-1810 والتي سبق أن اتفق عليها في معاهدة باريس توسيع روسيا التي حصلت على أغلب دوقية وارسو وبروسيا التي اكتسبت وستفاليا وأراضي شمال الراين. كما تم تأكيد توحيد ألمانيا مما يقرب من 300 دويلة نجمت عن انهيار الإمبراطورية الرومانية المقدسة (المنحلة في 1806) في 38 ولاية مما يسهل إدارتها (كان منها 4 مدن حرة).

شكلت هذه الدول اتحاداً ألمانياً فضفاضاً بقيادة بروسيا والنمسا.

وافق النواب في المؤتمر على العديد من التغييرات الإقليمية الأخرى. نقلت النرويج من سيادة الدنمارك إلى السويد الأمر الذي أشعل الحركة القومية في النرويج وتشكيل مملكة النرويج يوم 17 مايو/ أيار 1814. حصلت النمسا على لومبارديا والبندقية في شمال إيطاليا بينما ذهبت أغلبية الأراضي الإيطالية في الشمال والوسط إلى سلالات هابسبورغ دوقية توسكانا ودوقية مودينا ودوقية بارما). وأعيدت الولايات البابوية للبابا. أعيد لمملكة سردينيا بيدمونت ممتلكاتها في البر الرئيسي وحصلت أيضاً على جمهورية جنوة. في جنوب إيطاليا سمح لصهر نابليون يواكيم

مورات بالاحتفاظ بمملكة نابولي ولكن تأييده لنابليون في المائة يوم أدى إلى استعادة آل بوربون للعرش عبر فرديناند الرابع.

أنشئت المملكة المتحدة الهولندية نقلت دوقية لاونبيرغ من هانوفر إلى الدنمارك وضمت بوميرانيا السويدية إلى بروسيا وسعت سويسرا وأعلنت دولة محايدة أثناء الحروب فقدت البرتغال مدينة أولايفينزا لصالح إسبانيا وفي مؤتمر فيينا أرادت استعادتها البرتغال تاريخياً أقدم حليف للمملكة المتحدة وبدعم منها نجحت في إدراج حقها في استعادة أولايفينزا .

تعرض المؤتمر لانتقادات متكررة في القرن التاسع عشر والمؤرخين الأكثر حداثة بتجاهل الدوافع الوطنية والليبرالية وفرض رجعية خانقة في القارة. كان جزءاً لا يتجزأ في ما أصبح يعرف باسم النظام المحافظ حيث نزعت الشرعية عن الحريات والحقوق المدنية المرتبطة بالثورتين الأمريكية والفرنسية وتم شراء السلام والاستقرار بدلاً من ذلك.

في القرن العشرين مع ذلك أعجب العديد من المؤرخين برجال الدولة في المؤتمر الذي عمل على منع حرب أخرى أوروبية أخرى واسعة النطاق لما يقرب من مائة عام (1815-1914). من بين هؤلاء هنري كسنجر، الذي كتب في أطروحته للدكتوراه العالم المسترد (1957) حول ذلك. قبل افتتاح مؤتمر السلام في باريس عام 1918 دعت وزارة الخارجية البريطانية للعودة إلى تاريخ مؤتمر فيينا ليكون بمثابة المثال لمندوبيها لكيفية تحقيق سلام ناجح. بالإضافة إلى أن قرارات المؤتمر وضعتها القوى العظمى الأربع (النمسا وبروسيا وروسيا والمملكة المتحدة)، ولم تستطع كل بلدان أوروبا إيصال حقوقهم للمؤتمر. على سبيل المثال أصبحت إيطاليا مجرد تعبير جغرافي" وقسمت إلى ثمانية أجزاء (بارما ومودينا وتوسكانا ولومبارديا والبندقية وبيدمونت وسردينيا والدولة البابوية ونابولي وصقلية) الخاضعة لسيطرة القوى المختلفة في حين أن بولندا كانت تحت نفوذ روسيا بعد المؤتمر .بالتالي الترتيبات التي وصلت إليها القوى العظمى الأربعة أدت في النهاية إلى نزاعات مستقبلية. حافظ مؤتمر فيينا على توازن القوى في أوروبا لكنه لم يحد من انتشار الحركات الثورية في القارة.

مفهوم القومية

عند الحديث عن القوميـة أو بالأحرى لفض كلمة قومي أو قوميـة ، أو عند وصف شخص ما بأنه ذو توجه قومي ، أو القول بان بلد ما قامت بعمل ما من منطلـق أو دافـع قومي يكون وقع الكلمة على أسماعنا مقبول جدا ومفهوم بشكل جيـد ولا يحتـاج إلى أي توضيح ، ولكن لو طلب منا إعطاء تعريف محدد لهذا المفهوم فسنجد أنفسنا وقد دخلنـا متاهات منهجية معقدة ، وبالتالي عدم القدرة على الخروج بمفهوم محدد وشـامل يغطـي فكرة ومعنى هذه الكلمة ، وقد يكون مـن المـستحيل التوصـل إلى تعريـف علمـي قـصير دقيـق يتـألف مـن جملـة أو جملتـين ، ويتـضمن كـل مـا تنطـوي عليـه الفكـرة القوميـة ويستثني ويستبعد كل ما هو خارج عنها .

ويعود ذلك -باعتقادنا- إلى أن قومية كل أمة من الأمم قد عبرت عن نفسها بشكل يخالف الآخرين كما أنها تغيرت وتعـدلت بمـرور الـزمن، فالقوميـات الأمريكيـة لا تـشابه القوميات الأوربية والآسيوية مشابهة تامة لفقدانها الأصول التاريخية العميقـة ولاخـتلاف ظروفها المادية والـسياسة والاقتـصادية والاجتماعيـة والجغرافيـة، بالإضـافة إلى العوامـل التاريخية المتباينة التي دخلـت في تكـوين كـل أمـة وفكرتهـا القوميـة ، فتـأخر الوحـدتين الألمانية والإيطالية من حيث الزمن واختلاف تاريخهما ، جعل قوميتهما تختلفان نوعـا مـا عن القوميتين البريطانية والفرنسية ،اللتين سبقتاهما ، ونرى أن الشعور القومي الذي ظهر في فرنسا الثورية بين 1789 و1790 والذي تأثر بتفكير القرن الثامن عشر كان أشد إنسانية من شعورها القومي في سنة الإرهاب 1793 كما أن قومية ألمانيـا في عهـد بـسمارك 1871 تعتبر معتدلة إذا ما قورنت بالقومية في عهد رايخ هتلر 1939 .

وقد حاول الباحثون في جميع أنحاء العـالم إيجـاد مفهـوم محـدد للقوميـة يـساعد ولـو بـدرجات بـسيطة بتقـديم تعريـف مقبـول ولـو منهجيـاً وذلـك لأغـراض الدراسـات الـسياسية ولكـنهم في النهايـة اضـطروا مـن اجـل النهـوض بدراسـتهم الـسياسة أو تـأثراً

بفلسفتهم السياسية إلى وضع تعاريف خاصة بهم، ولما كانت الأغلبية الساحقة من الباحثين في القومية هم أيضا من دعاة قومية معينة سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فإن كلا منهم تأثر بطبيعة الحال بالقضية التي يدعو إليها وجاءت مواطن التركيز في تعريفه بما يتفق والظروف الموضوعية المحيطة بهذه القضية ، وبذلك لم يتحقق الوضوح اللازم إلا نادرا حيث نشأت عقبات كثيرة عرقلت سير عملية البحث العلمي.

ومن التعريفات التي حاولت تحديد مفهوم القومية التعريف الذي اتفق عليه كل من رينان و تريتشكه وباري وزنكويل الذي ينظر إلى الأمة على اعتبار أنها كائن عضوي هيجلي، أي عبارة عن روح أو مبدأ روحي ينبعث من تاريخ الإنسان وطبيعته.

وقد يدل هذا التعريف على رمزية خالصة مرفوضة موضوعياً إلا أن الأهمية التاريخية المعاصرة لهذا الرمز لا يمكن إغفالها، فالقوميون في كل مكان يعتبرون الأمة كائناً سامياً يعلو على الطبيعة ،أو شيئا يسمو على الأفراد والمؤسسات التي يتألف منها.

أما هكسلي وهدون فيعرفان الأمة بأنها مجتمع ألف بينه اعتقاد مشترك بالنسبة لأصوله ، ومشاعر عدائية مشتركة بالنسبة لجيرانه.

ويعرف الإيطالي مانشيني القومية بأنها مجتمع طبيعي من البشر يرتبط بعضه ببعض بوحدة الأرض والأصل ، والعادات واللغة من جراء الاشتراك في الحياة وفي الشعور الاجتماعي)، ويعتبر هذا التعريف من أهم وأشهر التعريفات التي قدمت للقومية باعتباره حدد السمات والعناصر الأساسية للقومية.

أما بالنسبة للمفكرين العرب فقد حاول العديد منهم وخصوصا دعاة القومية العربية وضع مفهوم محدد للقومية يتناسب مع الحالة العربية ومعطياتها، ومن هذه التعريفات تعريف الدكتور جورج حنا حيث يعرف القومية بأنها عقد اجتماعي في

شعب له لغة مشتركة، وجغرافية مشتركة، وتاريخ مشترك، ومصير مشترك، ومصلحة اقتصادية مادية مشتركة، وثقافة نفسية مشتركة، وهذا العقد يجب أن يكون فيه كل هذه المقومات مجتمعة. أما الدكتور منيف الرزاز فهو يعرف القومية بأنها الرابطة التي تربط أبناء الأمة الواحدة في الوطن الواحد.

ويلاحظ من خلال التنوع في هذه التعريفات ، الإشكالية الكبيرة في وضع مفهوم محدد يمكن اعتماده كأساس للانطلاق في دراسة قومية ما ، حيث يظهر المنحى الذاتي أو الخصوصية القومية في كل ما ذكر من تعاريف ، ويظهر ذلك وبشكل أوضح إذا ما تناولنا ما يسمى بالمفهومين الألماني والفرنسي في تعريف القومية حيث يركز المفهوم الألماني على مسألة اللغة وأهميتها في بناء القومية ، بينما ترى القومية الفرنسية أن مشيئة العيش المشترك هي محور القومية ومعيارها، ويظهر من هذين المفهومين الهدف الذي يسعى إليه دعاة كل قومية من هاتين القوميتين ، حيث تسعى القومية الألمانية إلى ضم جميع المتكلمين باللغة الألمانية في أوروبا ، ومنهم سكان الالزاس إلى الدولة الألمانية ، بينما نرى في الجانب الآخر أن القومية الفرنسية وهي التي سبقت القومية الألمانية بقرن من الزمان قد أتمت وحدتها السياسية بالاستيلاء على بعض البلاد التي لا يتكلم أهلها الفرنسية ومنها طبعا منطقة الألزاس.

وخلاصة الأمر أن القومية تظهر بالشكل الذي يريده القوميين لها ، وقد لا تكون فكرة خالصة ثابتة ، وإنما تجمعات متباينة من العقائد والظروف ، لها أساليبها الخاصة في الاحتفاظ ببقائها وفي التحول لا إلى مجرد حقيقة ، بل إلى أمر واقعي كذلك، والحقيقة أن الخيال والواقع والصواب والخطأ عناصر تختلط مع بعضها اختلاطاً شديداً في القومية الحديثة ، ولذلك فإن الأسلوب الوحيد لإدراك فحوى القومية هو تحديد العقائد ، بغض النظر عن صحتها أو عدم صحتها ، والظروف المتوفرة فيها ، وكما يقول هيرتز في تعريفه للقومية: (أن القومية فكرة ترى وجود شخصية جماعية للدولة تتباين من حيث إيحائها والشعور بذاتها وكثافتها وضخامتها بالنسبة للدولة ،

فقد تمثل دولة متحدة منقرضة أو دولة متحدة قائمة ، وقد تتجه نحو إقامة دولة متحدة في المستقبل وهي تعتمد في هذا كله على الخصائص الطبيعية الأصيلة التي تكون شخصيتها وتبرر ادعائها.

نشوء الفكرة القومية

لم يختلف الباحثون في تعريف القومية فحسب بل اشتمل كذلك تاريخ بدايتها الأولى وتفسير نشوء الأمم فهناك في هذا الصدد مجموعتان من الآراء :

الأولى يعتبر أصحابها أن الشعور القومي ظاهرة طبيعية ملازمة للإنسان منذ أن وجد المجتمع البشري وأن بعض سمات القومية قديمة قدم الإنسانية نفسها ، فيذهب كون مثلاً إلى أن التاريخ على مر العصور شهد بذور الشعور القومي في التمسك العميق من جانب الناس بأرضهم وتقاليدهم والسلطة القائمة في إقليمهم ، ويذهب آرنست باركر في إلى القول بوجود أمم في أوروبا قبل بداية التاريخ المكتوب

أما أصحاب المجموعة الثانية من الآراء فيذهبون إلى أن القومية ظاهرة حديثة نسبياً لم تعرفها المجتمعات البشرية القديمة فيقول برنارد رسل مثلاً أن معظم الناس في العصر الحديث يقبلون القومية على أنها طبيعية ولا يدركون إلى أي حد هي جديدة ، ولعلها بدأت أول ما بدأت بجان دارك في حرب المائة عام ثم تلاشت في فترة الحروب الدينية وولدت من جديد في عهد الثورة الفرنسية ، وينكر هذا الفريق أن الرومان مثلا كانوا يعرفون القومية أو أن الإغريق كانوا أمة واحدة، ويختلف أصحاب هذا الرأي في ما بينهم حول البدايات الحقيقية للقومية في أوروبا ، فمنهم من يرى أن المشاعر التي ظهرت في أواخر القرون الوسطى في الممالك التي توحدت في أوروبا أو كانت في طريقها إلى الوحدة داخل حدود إستراتيجية معينة تضم أقواماً تسود بينهم لغة رئيسية واحدة هي البداية الحقيقية لظاهرة القومية .

ومنهم من يذهب إلى أن القومية بدأت تظهر قبل ذلك ، فيذهب أوجست تيري إلى القول أن الروح القومية الفرنسية كانت قد استيقظت فعلا في القرن التاسع

الميلادي ، ويعزو لونجتون بداية اليقظة إلى أوائل القرن الثاني عشر ويؤكد رانكه أنها بدأت بعد ذلك بقرن كامل ،أي في القرن الثالث عشر . بينما يؤكد جيزو وميشليه وكثيرون غيرهم أهمية حرب المائة عام في القرنين الربع عشر والخامس عشر.

وربما نجد انه من الصعوبة القول بأن أحد الآراء السابقة أقرب إلى الموضوعية من الآخر فكلاهما يحددان بداية القومية وفق مفهوم مختلف عن الآخر لفكرة القومية نفسها ، فإذا ما قلنا باستحالة قيام الدولة الفرعونية أو البابلية أو الكنعانية على أسس قومية فكيف نفسر أذن الروح الجماعية التي كانت تقود هذه الأقوام للدفاع عن أرضها وسيادتها ضد الغزاة من الأقوام الأخرى وكيف نفسر الصراعات القديمة بين الإمبراطوريات المختلفة وما الدافع الذي كان يقودها في تلك الصراعات ، ألا أننا وبنفس الوقت لا نستطيع القول أن تلك الأقوام كانت تمتلك رؤيا سياسية متكاملة حول مفهوم القومية .

ومن هنا نرى أن فكرة القومية هي فكرة قديمة حديثة إذ أن الحضارات القديمة قد امتلكت شعوريا قومياً - ربما بمفهوم تلك الحقبة الزمنية - وهذا المفهوم اتخذ صور متعددة مثل الولاء للحاكم ، أو التعلق بالأرض ، أو الشعور الجماعي بالسمو على الأقوام الأخرى ، أو الاعتقاد بديانة واحدة ، أو مذهب معين ضمن هذه الديانة .

ويمكن اعتبار ما سبق هو بداية تبلور مفهوم للقومية أو بعبارة أدق قومية مبتدئة.

وبما أن التطور التاريخي للعالم قد شمل كل مظاهر الحياة فليس من المغالاة الفكرية أن نقول أن مفهوم القومية قد واكب التطور التاريخي حتى وصل إلى صورته الحالية ، حيث أننا نستطيع القول أن كل ما أضافه مفكري القومية الحديثة هو بلورة مفاهيم موجودة ومطبقة فعلا وتحويلها إلى أفكار نظرية مطالبين بتطبيقها على الواقع ، فباعتقادنا الشخصي جداً فأنهم لم يأتوا بجديد.

فلو تناولنا أي دراسة قومية حديثة لوجدنا أنها تدعو إلى فكرة قديمة كمثال يجب الإقتداء به أو محاكاة فكرة لأقوام أخرى، وعلى سبيل المثال ،كان ميكافيللي يستوحي أفكاره في الدعوة إلى الوحدة الإيطالية من التاريخ العظيم للإمبراطورية الرومانية وأمجاد روما، بينما استوحى الفرنسيون أفكارهم القومية من مملكة الغال القديمة وأمجاد شارل مارتل، واستوحى الألمان و الإنجليز أفكارهم من ممالك القبائل الجرمانية القديمة ،وركز القوميون العرب في أفكارهم على التاريخ المجيد للعنصر للعربي ابتداء بالوحدة العربية الأولى في معركة ذي قار، واستكمالاً في بناء الإمبراطورية العربية العظيمة من الصين شرقاً حتى فرنسا غرباً، بينما ركزت الحركة الصهيونية الحديثة في دعوتها إلى وطن قومي،على أمجاد دولة اليهود القديمة وأمجاد الملوك داود وسليمان ،وهناك أيضا الدولة الإيرانية التي قامت على الأمجاد الفارسية القديمة وحاولت أحياء صراعها القديم مع الإمبراطورية العربية في حربها مع العراق، وأيضا الدولة التركية الحديثة التي تستمد بعدها القومي من أمجاد آل عثمان ومحاولتها إعادة استعمار الدول العربية ، ونرى أيضا أن بعض القوميات الحديثة التشكيل فعلا ،قد اضطرت إلى محاكاة القوميات الأخرى كنموذج لوحدتها القومية وذلك لافتقادها البعد القومي التاريخي وأكبر مثال على ذلك القومية الأمريكية الحديثة التي تبنت الأفكار القومية للثورة الفرنسية كأساس لانطلاقها .

وهذه الأمور يمكن اعتبارها مدخلاً للفصل الثاني من هذا البحث والذي يتناول أثر البعد القومي في تشكيل العلاقات الدولية عبر التاريخ .

وبناءاً على ما سبق لا يستطيع أحد إنكار قِدم مفهوم القومية بغض النظر عن مفهومه في تلك الحقب من الزمن ، ولكن تبلور بعض المفاهيم الحديثة كمبدأ السيادة والكيان السياسي ومفهوم المواطنة ، ومفهوم سيادة الشعب ،قد ساهم بفرض مفاهيم حديثة للقومية أي بمعنى القيام بعملية تحديث لهذا المفهوم وللسلوكيات الدولية الناتجة عنه لتوائم متطلبات التقسيمات الدولية الحديثة ،حيث ظهرت فكرة الدولة التي تعتمد

أساسا على وجود مجموعة من الأفراد يعيـشون عـلى أرض معينـة وتحـت سـلطة معينـة تحكمهـا مجموعـة مـن المبـادئ كالحريـة والديمقراطيـة والمؤسـسات الـسياسية وسـيادة القانون والمشاركة الـشعبية ، وبـذلك تحولـت معظـم القوميـات القديمـة إلى دول قوميـة تسعى إلى تنظيم علاقاتها مع بعضها البعض ضمن إطار من التفاعل الدولي يـؤدي بالتـالي لخدمة الأهداف القومية لهذه الدول .

ومهما كان الاختلاف في تحديد قدم أو حداثة مفهوم القومية فإننا في هـذا البحـث لسنا معنيين بتحديد تاريخ محدد لبدء هذا المفهوم بقدر ما نحـن معنيـون بتحديـد دور هذا المفهوم وأثره في تطور العلاقات الدولية وهذا الأمر لا يحتاج إلا لملاحظة نوع السلوك الدولي في أي زمان والحكم عليه إن كان يجوز وصفه بأنه نابع من بعد قومي أم لا وذلـك باعتقادنا يساعد بالضرورة في تحديد البعد الزمني لهذا المفهوم .

القومية البلجيكية والتحرر من السيطرة الهولندية

كثيراً ما يتم التقليل من شأن بلجيكا بافتراض أنها دولة مصطنعة بلا هوية واضحة، لكنه في الواقع منذ العصر الذهبي لأدواق بيرجندي في القرن الخـامس عـشر ظلـت مـدن ومقاطعات فلاندرز وبرابانت وبروكسل وبروج وأنتويرب ضمن مراكز الجذب الاقتـصادي والثقافي في أوروبا. وكان في وسع وطن يضم فنانين مثـل فـان أيـك، وفـان ديـك، وروبـنس منافسة دوقيات مثل توسكانا أو إيل دو فرانس في الإبداع .وعقـب القـرن الـسادس عـشر برزت هذه الهوية البيرجندية - أو الفلمنكية كما كانت تسمى في ذلـك الوقـت - وتميَّـزت عن هوية شمال هولندا عبر تعرضـها لتـأثير كـل مـن حركـة الإصلاح الكـاثوليكي والحكـم الإسباني، ثم الحكم النمـساوي بعـد عـام 1713 ومـن ثـم بـدأت تتكـوَّن صـورة البلجـيكي الكاثوليكي الكادح الذوَّاقة صاحب الحس الساخر ذي الطابع البلجيكي الخاص .

أصبحت بلجيكا دولة مستقلة لأول مرة عام 1790. عقد الإمبراطور جوزيف الثـاني (حكـم مـن 1765 حتـى 1790 العـزم عـلى دمـج الأمـم والمقاطعـات المختلفـة التـي

تقع ضمن إمبراطورية هابسبورج ضمن ما أطلق عليه - بزهو إمبراطوري - «حشد واحد موجَّه بنفس الأسلوب». وفي عام 1787 استبدل بالامتيازات والتقاليد التي كانت متبعة في فلاندرز وبرابانت منذ العصور الوسطى إدارة موحدة حديثة. فعلى سبيل المثال أمر أن تُقَام جميع أسواق القرى في نفس اليوم. لكنَّ سكان هولندا النمساوية تمردوا على الإمبراطور، بدايةً من الكاردينال كبير أساقفة مالين .

لم يظهر المتمردون أيًّا من علامات نقص الهوية التي يُتهم بها البلجيكيون اليوم؛ إذ بدءوا يُطلقون على أنفسهم اسم «الأمة البلجيكية» (وهو اسم مستوحًى من الاسم اللاتيني للمقاطعات) ويكونون مجموعات من متطوعين مسلحين يرتدون أزياء موحدة ويلوِّحون بأعلام مكونة من اللون الأحمر والأسود والأصفر، وهي ألوان علم مقاطعتَيْ فلاندرز وبرابانت وألوان علم بلجيكا الآن. وفي اختيار حاسم للمسميات استأثر المتمردون البلجيكيون لأنفسهم بلقب «الوطنيين»، بينما ندَّد النبيل المحلي والجنرال النمساوي الشهير تشارلز جوزيف دي ليني «بلقب الوطني» السخيف ذاك، الذي كان محلَّ إعجابٍ كبيرٍ في يوم منن الأيام.

عكست منشورات «الوطنيين» إحساسًا قويًّا بالهوية البلجيكية، القائمة على التاريخ والجغرافيا المشتركة وعلى حب الحرية وكراهية التوحيد الإداري. ورد في أحد هذه المنشورات أن «الأمة البلجيكية قد ميزت نفسها دومًا عبر روحها ومدح «هذه الروح الطيبة التي جعلت الأمة تفضل دومًا مبادئها القديمة على الأنظمة المستحدثة.» وهي المبادئ التي حفظها ميثاق الحقوق الذي أقسم عليه كلُّ مَن تولَّى منصب دوق برابانت منذ عام 1356، فضلًا عن مواثيق المقاطعات والمدن المختلفة: «لقد ضاعت حرية البلجيكيين مع مرور الزمن.

وفي المقابل، كان جوزيف الثاني مكروهًا باعتباره طاغية حنث بتعهداته. وكانت ثورة برابانت - كما سُميت - كاثوليكية ومتمسكة بالتقاليد، وجمهورية؛ نظرًا لعدم توفر أسرة ملكية حاكمة. وهكذا أُجبرت القوات النمساوية على الجلاء من

بروكسل في 12 ديسمبر 1789. وشهد يوم 10 يناير عام 1790 عزل الإمبراطور والإعلان عن دولة مستقلة تُدعَى الولايات المتحدة البلجيكية، يحكمها مجلس نواب ذو سيادة، استنادًا إلى دستور صِيغَ جزئيًّا وفقًا لدستور الولايات المتحدة الأمريكية. وحلَّ شعارُ قَلَنْسُوَة الحرية الحمراء محَلَّ النسر الأسود ذي الرأسين - شعار أسرة هابسبورج - على المباني العامة؛ ومِن ثَمَّ كانت أول جمهورية حديثة في أوروبا بلجيكية لا فرنسية .

لكنَّ تلك الجمهورية لم تَدُمْ إلا أقلَّ من عام؛ إذ مزَّقتْها الصراعات بين دعاة التمسك بالتقاليد ودعاة التحديث؛ مما أدَّى إلى نجاح القوات النمساوية في استعادتها بسهولة في ديسمبر 1790 كي تَفقِدها لصالح جيوش الجمهورية الفرنسية في نوفمبر 1792، ثم تستعيدها مجددًا النمسا في ربيع 1793. لكن في صيف عام 1794 استعادتْها فرنسا مرة أخرى. وطوال العشرين عامًا التالية قُسِّمتْ مقاطعتا فلاندرز وبرابانت القديمتان إلى أقاليم فرنسية

وعلى الرغم من الاحتلال الفرنسي - أو بسببه - لم يتلاشَ الشعور القومي البلجيكي. وكما لاحظ الحاكم الذي عيَّنه نابليون على بروكسل السيد دي لا تور دو بان: «إن هذا الشعب ليس إنجليزيًّا ولا نمساويًّا ولا معاديًا لفرنسا ... بل هو شعب بلجيكي.» بعد سقوط الإمبراطورية الفرنسية، لم يرغب أحد تقريبًا في البقاء داخل الإطار الفرنسي. وهكذا أصبحت بلجيكا - كما كان يطلق عليها عادةً في ذلك الوقت - عام 1815 جزءًا من مملكة هولندا التي تأسستْ مؤخرًا على يَدِ فيلَم الأول المنتمي لعائلة أورينـي-ناسو (حكم من 1813 حتى 1840لم يكن لدى المملكة الجديدة عاصمة واحدة مثل المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا؛ إذ كان حس الهوية البلجيكي قويًّا؛ حتى إن العاصمة كانت تنقل بالتناوب - ومعها من ستمائة إلى سبعمائة موظف مدني ودبلوماسي محتجٍّ - كل عام بين بروكسل ولاها.

إذا كان القليل من البلجيكيين يرغبون في أن يصبحوا فرنسيين، فإن عددًا أقلَّ رغب في الاحتفاظ بالهوية الهولندية، وحتى في المقاطعات المتحدثة بالفلمنكية ظلت الفرنسية —باعتبارها لغة النُّخَب المثقَّفة واللغة المستخدمة في الجامعات - جزءًا لا غنى عنه من الهوية القومية البلجيكية؛ إذ أخبر المحامون العاملون في مدينة جنت الملك فيلَم الأول عام 1822: «أن استخدام اللغة الفرنسية أصبح شائعًا، وهي إلى حدٍّ ما اللغة القومية لطبقات المجتمع العليا.» وكانت محاولات المَلِك لجعل الهولندية لغة الحكومة الرسمية في المقاطعات المتحدثة بالفلمنكية غير مقبولة في عشرينيات القرن التاسع عشر بنفس الدرجة التي أصبحت فيها مقبولة عندما وضع البلجيكيون تشريعاتهم الخاصة لفرض هذه اللغة بعد قرن من الزمان. ومن الأسباب الأخرى لكراهية العامة للمَلِك - الذي أطلقوا عليه اسم السيد جيوم - قناعتُه بأن سلطته لا تخضع للدستور، وانتماؤه للمذهب البروتستانتي ومحاولاته لتقييد سلطة البرلمان والصحافة واستقلالهما، رغم كونهما أقلَّ بمراحل من وضعهما في فرنسا تحت حكم شارل العاشر .

ومع انتشار الأخبار بقدوم جيشٍ هولندي آخر في 19 سبتمبر اقتحمت الجماهير مجلس مدينة بروكسل بحثًا عن السلاح والمال. ومن 23 حتى 27 سبتمبر، شهدت مدينة بروكسل معركة البلجيكيين ضد القوات الهولندية التي أُجبرتْ على الانسحاب؛ ومِن ثَمَّ برهنت الدولة على وجودها في شوارع عاصمتها. أُسست حكومة مؤقتة يوم 26 سبتمبر، وفي الرابع من أكتوبر أَعلنتِ استقلالَ بلجيكا، وفي نفس الشهر طلب الملك فيلَم تدخل القوى العظمى، استنادًا إلى التحالف الرباعي الذي عُقد عام 1814 ومؤتمر آخن عام 1818 الذي ضمن حماية حدود هولندا واستقلالَها؛ ومِن ثَمَّ أصبح مصيرُ بلجيكا في يد أوروبا عقب شهر فحسب من تأسيسها .

وخلافًا لما حدث في عام 1790 - عندما تصرفت القوى العظمى منفردة ورفضت الاعتراف بالولايات المتحدة البلجيكية - نسَّقتْ تلك القوى سياساتها عام

1830، وكانت فرنسا وإنجلترا الدولتين الفاعلتين. فعلى العكس من تقوقعها الحالي كانت بريطانيا في هذا الوقت قوة أوروبية بمعنى الكلمة؛ إذ تعاونت عام 1827 مع فرنسا وروسيا لإنقاذ اليونان من محاولة استردادها من قبل العثمانيين؛ ومِن ثَمَّ أصبحتْ فرنسا - منذ معركة نافارين التي دمَّرَتْ أثناءها تلك القواتُ المتحالفة الأسطولَ المصري التركي - أبعدَ ما تكون عن العدو المعتاد لإنجلترا، بل أصبحتْ حليفتَها التقليدية، حتى إن دوق ولنجتون نفسه - رئيس الوزراء من 1828 حتى 1830 - كان يعتبر الحفاظ على التحالف مع فرنسا شاغل بريطانيا الرئيسي بعد حلول السلام. وهكذا أصبح دعم فرنسا سمة إنجليزية جنبًا إلى جنب مع تحدث الفرنسية جيدًا .

سجل بالمرستون - وزير الخارجية منذ عام 1830 - إعجابه بثورة يوليو 1830؛ إذ استخدم لأول مرة في 31 مايو 1831 أمام مجلس العموم تعبير «الائتلاف الودي، أما زميله اللورد هولاند فقد اعتبر أن التحالف بين فرنسا وبريطانيا هو التحالف المقدس الحقيقي .

كانت فرنسا هي أشدَّ الدول تبنِّيًا للنزعة القومية عام 1830، وسادت توقعات بأنها ستشن حربًا. وفي محاولة لإرضاء الرأي العام، عمل الوزراء الفرنسيون على «إعادة توحيد» بلجيكا كليًّا أو جزئيًّا مع فرنسا؛ ومِن ثَمَّ أعلن تاليران - الذي عُيِّن سفيرًا لفرنسا في لندن في سبتمبر عام 1830 - أن بلجيكا «ليست أمة، وأبدًا لن يجعلها مائتا بروتوكول أمة.» وكان يؤيد استيلاء فرنسا على مناطق ماريامبور وفيليبفيل ولوكسمبورج وغيرها.

وتماشيًا مع الشراكة الفرنسية البريطانية، بدأ رئيس الوزراء البريطاني ولنجتون من سبتمبر عام 1830 يستشير فرنسا فيما يتعلق بمستقبل بلجيكا من أجل «أمن أوروبا». تخلَّى ولنجتون عن الملك فيلَم الأول باعتباره قضية خاسرة، رغم أن تكوين هولندا المتحدة في الفترة بين 1813 إلى 1815 كان بمبادرة بريطانية لخلق حاجز أمام فرنسا، وأصرَّ على اجتماع القوى العظمى الخمس جميعًا - بما فيها فرنسا - في لندن .

من العوامل الأخرى التي دعمت استقلال بلجيكا - بينما توقع الرأيُ العام في جميع أنحاء أوروبا نشوبَ حرب شاملة - كان ضعف القوى العظمى الأخرى؛ إذ كانت روسيا وبروسيا والنمسا مشغولة مواجهة تمرد في بولندا وقعتْ أحداثُه في نوفمبر 1830، ويرجع سببه جزئيًّا إلى مخاوف الضباط البولنديين من أن يستدعيهم القيصر نيقولا الأول لقمع الانتفاضة في بلجيكا. وهكذا عانت القوى العظمى الثلاث من نقص الأموال.

القوميات في إمبراطورية النمسا والمجر

مع اليقظة القومية في أنحاء الإمبراطورية العثمانية وتنامي الفكرة القومية بقوة في شرقي أوروبا, كان من الطبيعي أن تطفو على السطح مشكلة مصير النمسا وهي إمبراطورية متعددة القوميات. ففي مطلع القرن التاسع عشر كانت تلك الإمبراطورية تحت حكم أسرة الهاسبورج عبارة عن تجمع من عدة أقاليم يختلف كل منها عن الآخر في المساحة وعدد السكان والتقاليد والثقافة والاقتصاد واللغة. وكانت هذه الأسرة قد ضمت تلك البلاد على مدى سنوات طوال بطريقة أو بأخرى مثل الميراث أو المصاهرة أو الدبلوماسية أو بالحرب. وتقلبت حدودها وتذبذبت من قرن لآخر حتى لقد شملت في فترة ما لإمبراطورية أسبانيا العظمى في العالم الجديد (أمريكا الجنوبية). ولقد كانت الأسرة نفسها رمز وحدة الإمبراطورية, وكان مركزها قد أصبح قوياً بلا منازع من خلال الحروب الكبيرة التي دخلتها ضد العثمانيين خلال القرون 16-18 حيث كانت الأسرة تمثل المركز الأمامي في خط الدفاع عن المسيحيين ضد الأتراك. وقبل القرن الثامن عشر كان وزن الحكومة المركزية والبلاط الملكي يقع في الأطراف البعيدة مع فترات إستثنائية قليلة. وكانت الأسرة تهتم بالجيش وبالسياسة الخارجية تاركة مجتمع الريف لسيطرة النبلاء. وفي القرن الثامن عشر وأثناء حكم ماريا تريزا وجوزيف الثاني حدثت محاولة لوضع نظام إداري واحد في البلاد, بحيث تكون

الألمانية لفة الحكومة, ولكنها واجهت مقاومة شديدة كتلك التي واجهت الدولة العثمانية حين فكرت في فرض بعض الإصلاحات في الدولة .

وفي القرن التاسع عشر كان يعيش بين ظهراني الإمبراطورية النمساوية أحد عشر قومية كل منا تختلف عن الأخرى اختلافا كبيراً في النفوذ والتقاليد. والذين كانت لغتهم هي لغة السياسة والأدب في الحكومة والمجتمع وطالما أمدوا الجهاز الحكومي والجيش بالعناصر اللازمة على مدى التاريخ .ويليهم المجريون الذين كانوا يتمتعون بالكبرياء القومي والوعي بذاتيتهم وكانوا قادرين دوماً على المحافظة على سيطرتهم على أقاليمهم الخاصة تاريخياً والتي كانت تعرف بأراضي تاج القديس ستيفن وتضم عدداً كبيراً من الرومانيين والسلوفاك وسلاف الجنوب. ويلي الجرمان والمجريون في المكانة والنفوذ كل من التشيك, والبولنديين, والكروات, والإيطاليين ولكل منهم أهمية معينة داخل الإمبراطورية. وفي قاع السلم الاجتماعي يأتي السلوفاك والصربيين والسلوفينيين والرومانيين والروثينيين .ويلاحظ أن الترتيب القومي لكل شعب من تلك الشعوب انعكس على وضعه الاجتماعي, فبينما كان الكروات يمثلون في السلم الاجتماعي طبقة وسطى وأخرى ارستقراطية, كان الصربيون والرومانيون والسلوفينيون فلاحين في عمومهم .

ومن بين شعوب إمبراطورية النمسا الذين كانوا أكثر تأثراً بما يجري في الإمبراطورية العثمانية أولئك الذين كانت تربطهم ببعض روابط عرقية وهم كل من الرومانيين وسلاف الجنوب الصربيين والكرواتيين. فالرومانيين يعيشون في ترانسلفانيا بشكل أساسي لكن لهم وجود في بوكوفينا وبانات. ولغتهم وقوميتهم تتطابق مع سكان ولاشيا ومولدافيا. وأما سلاف الجنوب فكان موقفهم أكثر تعقيداً فالسلوفينيون يعيشون أساساً في كارنيولا ,وستيريا وهم كاثوليك وفلاحون ويتكلمون لغة اللساف الغربيين غير المفهومة لمعظم الصربيين والكروات. وأما الكرات فكانوا يعيشون أساساً في دلماشيا وكرواتيا وسلافونيا والبوسنة والهرسك التي احتلتها النمسا 1878 وهم

كاثوليك ويتكلمون اللغة التي يتكلمها الصرب ولكن بحروف لاتينية .ودلماشيا عبارة عن أرض تابعة للبندقية استولت عليها النمسا في 1797 وسكانها من الفلاحين الكروات أساساً لكن المدن كانت تضم عدداً كبيراً من الإيطاليين من الطبقة الوسطى. وفي كل من كرواتيا وسلافونيا كروات نبلاء وطبقة وسطى وفلاحون. وأما الصرب الإمبراطورية فكانوا يتركزون أساساً في فويفودينا على حدود كرواتيا وفي البوسنة والهرسك, وهم أرثوذكس شأن أقرانهم في بلاد الصرب ويستخدمون الأبجدية السيريلية في الكتابة السيريلية أبجدية أخترعها القديس سيريل ولا تزال أشكالها الحديثة تستعمل في الصرب وبلغاريا والإتحاد السوفييتي سابقاً - المترجم.

ولقد ظلت سلوفيينا ودلماشيا وبوكوفينا على علاقات وثيقة مع أسرة الهاسبورج والحكومة النمساوية. وبصرف النظر عن الجدل السياسي القومي الذي كان قائماً في القرن التاسع عشر في الدولة, إلا أن مراكز الحركات القومية المحلية كانت توجد في ترانسلفانيا وكرواتيا-سلافونيا, وهي مناطق كانت ترتبط ارتباطا وثيقاً بالمجر خلال العصور الحديثة, وكانت ضمن أراضي تاج القديس ستيفن, ولم يكن يدور بين صفوة أهلها منازعات سياسية حادة حول العلاقة مع أسرة الهاسبورج وحكومة النمسا كتلك التي كانت تحدث بين صفوة المجر. ومثلما كان يحدث في إمارات البلقان عندما كان اللساف والرومانيون يعملون على التخلص أولاً من الثقافة اليونانية وهيمنة اليونانيين السياسية في إمبراطورية النمسا كان الصراع خلال الفترة محل دراسة ضد المجر التي كانت تعمل على فرض القومية المجرية على ترانسلفانيا وكرواتيا-سلافونيا .فإذا علمنا أن زعماء المجر في القرن التاسع عشر كانوا يهتمون بشكل رئيسي بالحصول على حقوق كاملة في الحكم الذاتي من أسرة الهاسبورج أدركنا كيف أن صراع ثلاثي الأبعاد كان يحدث قوامه حكومة النمسا والمجريون, والقوميات الأخرى التي كانت جزء من مجال المجر تاريخياً. وعلى هذا سوف نفرد الصفحات التالية للحديث عن الحركات القومية في الأقاليم الثلاثة: ترانسلفانيا ,وكرواتيا, وسلافونيا.

وبطبيعة الحال لن نناقش تطور إمبراطورية الهاسبورج بشكل عام أو موضوعات أخرى خارج نطاق المسألة القومية إلا إذا كانت تتصل بتكوين دول البلقان قومياً.

القومية البولندية ومحاولة التخلص من الهيمنة الروسية

بعد تقسيم بولندا (1772 - 1795)، تم ضم أغلبية يهود بولندا إلى بلاد أوربية أخرى هي: النمسا وبروسيا وأساساً روسيا. وبحلول عام 1828 كان ثلثا يهود بولندا يعيشون في مدن صغيرة (شتتلات) ويشكلون 50% من سكانها، يعملون تجاراً صغاراً ويمارسون بعض الحرف مثل تقطير الخمور والصناعات المنزلية، وخصوصاً النسيج، دون تَدخُّل كبير من الحكومة المركزية الضعيفة.

وبدأت عملية دمج أعضاء الجماعة اليهودية أو تحديثهم مع دخول نابليون بولندا عام 1807 الذي منحهم حقوقهم المدنية وطبق عليهم القرارات نفسها التي طُبقت عليهم في فرنسا وهي أن الحقوق تمنح لليهود بمقدار استعدادهم للاندماج، ولذا حُجبت الحقوق السياسية عنهم لمدة عشرة أعوام تُعَد فترة انتقالية كان عليهم أن يتخلصوا خلالها من سماتهم الخاصة وأن يندمجوا في بيئتهم. ثم عُقد، عام 1815، مؤتمر فيينا الذي حوَّل بولندا إلى مملكة مستقلة تحت حكم القيصر. وكان دستورها يتضمن بنوداً تحمي حقوق اليهود وتزيدها بمقدار اندماجهم في المجتمع. وكتب أحد الأساقفة البولنديين إلى المفكر الألماني اليهودي المستنير ديفيد فرايدلندر يسأله عن أفضل السبل لإصلاح (أي تحديث) يهود بولندا، فاقترح ضرورة تدريب اليهود على الحياة المتحضرة قبل إعطائهم حقوقهم المدنية، أي أنه اقترح عليه عملية التحديث الأوتوقراطي (من أعلى) التي طُبِّقت في روسيا. بعد ذلك، كوَّن بعض اليهود الأثرياء (من التجار المندمجين وأعضاء المهن الحرة) لجنة المؤمنين بالعهد القديم عام 1825 لتطوير التعليم اليهودي، وبالفعل تأسست مدرسة حاخامية حديثة. وعلى مستوى التحديث الاقتصادي، أُلغي القهال عام 1822، كما فُرضت ضريبة على تجار الخمور اليهود (وهذه من بقايا نظام الأرندا) حتى يتركوا هذه الوظيفة التي كانت تسبب

سخط الجماهير ضدهم، ولتشجيعهم على الاشتغال بالزراعة. وقد ظهرت طبقة من المثقفين البولنديين اليهود، في وارسو أساساً، انتماؤهم القومي لبولندا أكثر تحدداً ووضوحاً. ومع هذا، لم يحرز أعضاء الجماعة اليهودية نجاحاً كبيراً في مجال محاولة الاندماج بسبب عدم اكتراث البورجوازية البولندية بهم وعدم ثقتها فيهم. كما يُلاحَظ أن اليهود خارج وارسو لم يُظهروا ميلاً كبيراً لعملية الدمج والتحديث. وصدر مرسوم روسي عام 1862 أعطى اليهود حرية بيع وشراء الأرض والمنازل والسكنى أينما شاءوا، وأُبطل القَسَم اليهودي، كما مُنع استخدام العبرية واليديشية لتعميق دمجهم واندماجهم. وحينما اندلع تمرد عام 1863، لم تشترك فيه أعداد كبيرة من اليهود، كما أن يهود ليتوانيا وقفوا ضده. وحينما بدأ الروس في التنكيل بالثوار، لم ينل اليهود منهم أي أذى، الأمر الذي أبعدهم عن الحركة القومية البولندية.

وفي عام 1870، بدأت الحركة القومية البولندية تأخذ طابعاً معادياً لليهود (باعتبارهم جماعة وظيفية مالية)، فطالبت بصبغ التجارة والصناعة بالطابع البولندي، واتهمت رأس المال اليهودي بأنه غريب وبأن الجماهير اليهودية معادية للحضارة الحديثة جاهلة بها. وتم تأسيس أحزاب قومية شعبية بولندية جعلت الحرب ضد دمج اليهود هدفاً أساسياً لها، كما بدأت تظهر بين أعضاء الجماعة اليهودية الاتجاهات الصهيونية. وتجدر الإشارة إلى أنه، رغم تدني أحوال اليهود بشكل عام، كانت تُوجَد طبقة ثرية تشغل مراكز مهمة في التجارة الخارجية وفي تجارة الأخشاب والغلال وفي المهن الحرة.

ومع الحرب العالمية الأولى، كان وضع يهود روسيا وبولندا متشابهاً في كثير من النواحي، من أهمها الانفجار السكاني. ويُلاحَظ أنه، مع عام 1772، كان في بولندا 70% من يهود العالم وأكثر من 80% من الإشكناز (وهو القطاع الذي أفرز الصهيونية ومعظم الحركات اليهودية الأخرى). وإذا وضعنا في الاعتبار أن اليهود الأصليين، في معظم دول أوربا، اندمجوا في السكان وكانوا لا يشكِّلون كثافة سكانية حقيقية، وأن

أعدادهم تزايدت بسبب هجرة أعداد من يهود اليديشية، فيمكن القول بأن كل الجماعات اليهودية التي ظهرت في الغرب في القرنين الأخيرين هي من فروع يهود بولندا، وهو ما يجعل قول هتلر والأدبيات النازية حقيقياً حيث أعلن أن الجيب اليهودي في بولندا ومنطقة الاستيطان هو « المستودع البولندي الذي يُصدِّر الفائض البشري اليهودي وأنه يشكل البنية التحتية البيولوجية لليهودية العالمية ».

وتذكر الموسوعة اليهودية أن أعضاء الجماعة اليهودية كانوا يشكلون 6.8% من مجموع سكان بولندا عام 1816، ثم قفز العدد إلى 13% عام 1897، أي أن كل مائة بولندي كان يُوجَد بينهم ثلاثة عشر يهودياً رغم هجرة أعداد كبيرة منهم إلى خارج بولندا. وتُعدُّ هذه من أعلى النسب التي حققها أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث. وقد زاد عدد يهود أوربا ككل في تلك الفترة من 2.730.000 إلى 8.960.500، وبلغ عدد يهود بولندا عام 1939 نحو 3.510.000.

في منتصف القرن التاسع عشر (حوالي عام 1857)، كانت هناك 181 مدينة بولندية منها 88 (أي نحو نصفها أو 6.48% منها) تضم أغلبية يهودية مطلقة. كما كان هناك 120 مدينة 40% من سكانها يهود، أي أن 66.2% من مدن بولندا كانت ذات طابع يهودي فاقع. وكان 1.5% 9من مجموع يهود بولندا يعيشون في المدن ويشكلون 33% من سكانها مقابل 16.4 % من المواطنين. وكل هذا يعني استقطاباً كاملاً وعزلة تشبه من بعض الوجوه عزلة يهود الأرندا. لكن الصورة لم تتغير كثيراً مع نهاية القرن التاسع عشر. وفي بوزنان، قفز عدد أعضاء الجماعة اليهودية من 2.775 عام 1865 (أي12.2% من مجموع سكان المدينة) إلى 166.628عام 1910 (أي 40.7% من سكانها). وفي عام 1897، كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكلون أكثر من 50% من السكان في 57 مدينة بولندية من واقع 110 مدن. أما المدن التي كان يشكل اليهود أكثر من 40% من سكانها، فكانت 81 مدينة. وحتى عام 1921، كان اليهود يشكلون 40% من عدد السكان في 99 مدينة (من واقع 196 مدينة).

وتزايدت معدلات الهجرة بسبب الضغوط التي مارستها الحكومة على أعضاء الجماعة اليهودية ليتركوا الريف، وبسبب جاذبية المراكز الصناعية

القوميات في إمبراطورية النمسا والمجر

الإمبراطورية النمساوية المجرية كانت ملكية ثنائية حكمت بواسطة هابسبورگ منذ العام 1867 حتى سقوطها في العام 1918 مع انتهاء الحرب العالمية الأولى. تواجدت المنطقة في أوروبا الوسطى والشرقية. تضمنت عدة دول ومناطق أوروبية وهي النمسا والمجر وبوهيميا ومورافيا وسلوڤاكيا، بالإضافة إلى أجزاء من بولندا ورومانيا وسلوفينيا وكرواتيا وإيطاليا ومناطق أخرى عديدة. تشكلت إثر الثورة التي أقامها القوميون المجريون إبان فترة حكم إمبراطورية النمسا. أعطيت المجر برلماناً وحكماً ذاتياً. حكمها فرانز يوسف حتى وفاته في العام 1916. حتى العام 1914 كانت الملكية تشهد نوعاً من الاضطرابات بين أقلياتها، وشهد نفس العام اغتيال النمساوي المجري فرانز فرديناند بواسطة صربي قومي مما تسبب في بدأ الحرب العالمية الأولى. وسقطت إثر هزيمتها في تلك الحرب، علاوة على الثورات الداخلية بواسطة التشيكيين واليوغسلاف والمجريين.

كان فيينا عاصمة الإمبراطورية. في تلك الفترة كانت النمسا المجر ثاني أكبر دول أوروبا بعد الإمبراطورية الروسية. كما كانت ثالث أكبر دول أوروبا من حيث عدد السكان بعد روسيا والإمبراطورية الألمانية. تسمى أيضًا المملكة النمساوية ـ المجرية والملكية الثنائية، كانت ضمن بلاد أوروبا الوسطى من عام 1867 حتى عام 1918م. وقد تشكلت من الإمبراطورية النمساوية التي كانت تشتمل على مملكة المجر.

كانت النمسا قد سيطرت على المجر في أواخر القرن السابع عشر وفي أواسط القرن التاسع عشر الميلادي. ولكن ضعفت سلطة النمسا بعد أن توالت الهزائم التي مُنيت بها. وأدت مطالبة المجر بوضع مساو للنمسا إلى تشكيل مملكة النمسا ـ المجر. وحكمت البلاد عائلة هابسبيرج، وهي سلالة من الحكام ذوي النفوذ، شغلت كثيراً

من العروش في أوروبا منذ عام 1273م .في عام 1878م، سيطرت النمسا ـ المجر على إقليمي البوسنة والهرسك وضمتهما إليها عام 1908م .نعمت النمسا بحياة ثقافية مزدهرة. وخلال أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين عاش في مدينة فيينا العاصمة وعمل بها مفكرون ذوو تأثير قوي من أمثال العالم النفسي فرويد، كذلك أسهم المؤلفان الموسيقيان گوستاف مالر، وآرنولد شوينبرگ في نهضة البلاد الفنية .

لم تصبح النمسا - المجر أبدًا أمة قوية. فقد كانت القوميات الكثيرة المختلفة التي تألفت منها أكثر انشغالاً بنيل استقلالها منها بتعزيز المملكة. وعانت البلاد استياء عامًا طوال أكثر من أربعين عامًا .في عام 1914م، أقدم گاڤريلو پرنسيپ، وهو أحد الوطنيين الصربيين من البوسنة، على قتل الأرشيدوق فرانسيس فرديناند، ولي عهد النمسا ـ المجر. وكان فرانسيس فرديناند يمثل تهديدًا لوحدة الشعب السلافي الجنوبي في زعم الصرب، كذلك جاء العمل احتجاجًا على سيطرة النمسا ـ المجر على البوسنة والهرسك، ذلك لأن معظم الصربيين كانوا يدعون بأن لِصربيا، التي تقع جنوبي النمسا - المجر الحق في المقاطعتين. وقد قدر الصربيون أهمية المنطقة لأنها كانت تؤمِّن منفذًا إلى البحر الأدرياتيكي الذي كان مهمًا لصناعة السفن لديهم. أدى الاغتيال إلى إعلان النمسا - المجر الحرب على صربيا. ووعدت روسيا بدعم صربيا فأعلنت ألمانيا، حليفة النمسا- المجر، الحرب على روسيا وحليفتها فرنسا. اجتاحت ألمانيا بلجيكا لكي تهاجم فرنسا، ودخلت بريطانيا القتال تأييدًا لبلجيكا .وبذلك بدأت الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918م.

أرسلت النمسا-المجر خلال الحرب قوات إلى إيطاليا وبلغاريا ورومانيا وألبانيا . ولكن الروح المعنوية صارت منخفضة جدًا بسبب الهزائم التي عانتها القوات .وفرّ الآلاف من الجنود، وحارب كثير من جنود النمسا ـ المجر إلى جانب الحلفاء .وبعد أن انتهت الحرب عام 1918م، تشكلت الدول الجديدة: النمسا والمجر وتشيكوسلوفاكيا

السابقة، بكاملها من أراضي النمسا-المجر. وألحقت أراض أخرى بإيطاليا و بولندا ورومانيا و يوغوسلافيا السابقة. ويسجل انهيار النمسا ـ المجر نهاية إمبراطورية عائلة هابسبورگ .

بلغت مساحة المملكة نحو 670,000 كم^2، وعاش فيها نحو 50 مليون نسمة يتألفون من 23 مليونًا من السلاف، و12 مليونًا من الألمان، وعشرة ملايين من المجريين، وكثير من الجماعات الأقل عددًا، واحتفظت كل جماعة بعاداتها ولغته.

القومية الايطالية وتوحيد ايطاليا

لم يكتمل توحيد الشعب الإيطالي في دولة وطنية في القرن التاسع عشر، حيث بقي العديد من الإيطاليين خارج حدود المملكة، وهذه الحالة خلقت الحركة الوحدوية الإيطالية إيطاليا الضائعة هي حركة رأي قومية إيطالية نشأت بعد الوحدة الإيطالية. انتشرت هذه الحركة القومية بين الإيطاليين والقوميات الأخرى التي كانت لديها الرغبة في أن تصبح جزءً من إيطاليا. لم تكن حركة إيطاليا الضائعة منظمة رسمية، بل كانت مجرد حركة ترى ضرورة توسع إيطاليا لتصل إلى "حدودها الطبيعية". هذه الأفكار الوطنية والقومية كانت شائعة في أوروبا في القرن التاسع عشر.

التعصب القومي والحربين العالميتين خلال حقبة ما بعد التوحيد، كان بعض الإيطاليين غير راضين عن الوضع الحالي للمملكة الإيطالية حيث أرادوا أن تشمل المملكة ترييستي وايستريا وغيرها من المناطق. نجحت هذه الحركة ذات المطامع الإيطالية في الحرب العالمية الأولى بضم ترييستي وترينتو مع كل أراضي فينيتسيا جوليا وترينتينو.

أعلنت المملكة الإيطالية الحياد في بداية الحرب، وذلك لأن التحالف الرسمي الثلاثي مع ألمانيا والنمسا والمجر، كان دفاعيًا وتطلب من أعضائه التعرض للهجوم أولاً. كما حمل الكثير من الإيطاليين عداوة تاريخية للنمسا التي احتلت مناطق تقطنها العرقية الإيطالية، وبالتالي لم تكن إيطاليا ترغب في دخول الحرب. طلبت النمسا

والمجر الحياد من إيطاليا، في حين أن الوفاق الثلاثي الذي ضم بريطانيا وفرنسا وروسيا) أراد تدخلها. وفي ميثاق لندن الموقع في أبريل 1915، وافقت إيطاليا على إعلان الحرب ضد قوات دول المحور المركزي مقابل منطقة فريولي وترينتينو ودالماسيا.

كان من نتائج الحرب العالمية الأولى، حصول إيطاليا على ترييستي وغوريتسيا واستريا وزادار .وخلال الحرب العالمية الثانية، وبعد احتلال المحور ليوغوسلافيا، أنشأت إيطاليا حكومة دالماتيا) (من 1941 إلى سبتمبر 1943، وبالتالي ضمت مملكة إيطاليا مؤقتًا سبليت وكوتور وأغلب دالماسيا الساحلية. بين عامي 1942 و 1943، ضمت أيضًا كورسيكا ونيس إلى المملكة مؤقتًا، موفية بذلك تمامًا المطامع الإيطالية.

كان هدف الحركة المعلن تحرير كل الأراضي الإيطالية، التي لا تزال خاضعة لحكم أجنبي بعد الوحدة الإيطالية. كانت اللغة هي المعيار الذي حددت به الحركة الجنسية الإيطالية المزعومة في البلدان، التي يفترض أنهم قد حرروها وهي ترينتينو وترييستي ودالماسيا واستريا وغوريتسيا وتيسينو ونيس وكورسيكا ومالطة. بينما عززت النمسا والمجر المصالح الكرواتية في دالماسيا واستريا، بهدف إضعاف المطالب الإيطالية في منطقة البلقان الغربي، قبل الحرب العالمية الأولى.

بعد الحرب العالمية الثانية، تلاشت حركة المطامع القومية من السياسة الإيطالية. ولم يبق سوى بضعة آلاف من الإيطاليين في استريا ودالماسيا، نتيجة للهزيمة في الحرب العالمية الثانية، وذبح ما يقرب من 2,000 إيطالي انتقامًا من الفظائع الفاشية. اختيار 200-250 ألف شخص الجنسية الإيطالية في ما أصبح يعرف بالهجرة الإسترية.

حركات الانفصال:

حظيت عملية التوحيد الإيطالية بشعبية حينها عمومًا بين الناس الذين يعيشون في شبه الجزيرة الإيطالية، وخاصة فيما يتعلق بإنهاء الحكم النمساوي. ومع ذلك، ظهر معارضون للوحدة في القرن التاسع عشر، وخاصةً حكام الدول التي ضمت إلى المملكة، ولا تزال النزعات المحلية بارزة حتى يومنا هذا. هناك حركتان انفصاليتان

كبيرتان (بلغ مؤيدوهما في الماضي أقل من 5 % من الأصوات في الانتخابات الوطنية، وحاليًا في الانتخابات الأخيرة لعام 2008 حصدوا حوالي 10 ٪ على الصعيد الوطني و 20 ٪ في الشمال) ممثلة في الأحزاب السياسية النشطة وهي : رابطة الشمال في الشمال وحركة استقلال صقلية في الجنوب. نشأت حركة الانفصال في الجنوب نتيجة لثورة الفلاحين ضد الحكومة الجديدة. بينما يمثل الحركة الأولى عدة نواب في البرلمان الوطني.

تمتلك منطقة فينيتو (تشير إلى معظم أراضي ما كان يعرف بجمهورية البندقية) شعورًا قويًا خاصًا متزايدًا نحو الحكم الذاتي أو الاستقلال. وفي الانتخابات الأخيرة، حصل ليغا نورد (حزب رابطة الشمال) على 28.4 ٪ بينما حصل حزب على 29.3%. وإن كان كبار ممثلي، يفضلون الحصول على الحكم الذاتي (وليس الاستقلال) ضمن إطار وحدوي إيطالي.

هناك حركة انفصالية قوية في منطقة في ألتو أديجي جنوب تيرول الإيطالية، يتزعمها الأغلبية الناطقة بالألمانية في المنطقة، من أجل الوحدة مع النمسا. كانت الحركة أقوى ما يمكن بعد الحرب العالمية الثانية. الأحزاب الانفصالية لا تزال موجودة، ولكن تمت تهدئتها بمنح الأقاليم حكمًا ذاتيًا واسعًا من قبل الحكومة الإيطالية.

القومية الألمانية

نشأت فكرة رابطة الشعوب الجرمانية بهدف توحيد جميع المجتمعات السكانية الناطقة بالألمانية فى أوروبا فى دولة قومية واحدة تُعرف باسم ألمانيا العظمى.

كان لرابطة الشعوب الجرمانية أثر واضح فى السياسة الألمانية فى القرن التاسع عشر، خلال حركة توحيد ألمانيا، عندما تم إعلان الإمبراطورية الألمانية كدولة قومية عام 1871، ولكن دون انضمام النمسا.

تبنى أنصار الاتحاد الجرمانى - منذ تنظيمه عام 1891 - أيديولوجيات عرقية، الأمر الذى أدى إلى ظهور السياسة الخارجية التى سعت إليها ألمانيا النازية بقيادة أدولف هتلر منذ عام 1938.

تحولت النظرة للشعوب الجرمانية بعد الحرب العالمية الثانية، واعتبرت هذه الأيديولوجيا من الأيديولوجيات المحرمة في فترة ما بعد الحرب، لأنها ارتبطت بشكل صارخ ومدمّر ذاتيًا بالمفاهيم العنصرية لـ "العرق السائد"، وقُسّمت البلاد إلى مناطق سوفيتية وفرنسية وأمريكية وبريطانية ثم إلى ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية.

تطوّرت مصطلحات عنصرية عن هذه الأيديولوجيا، مثل: (الشعب الألماني) في إشارة إلى الألمان العرقيين في بلدان أخرى إلى ألقاب خفيفة بين (المجريين).

لكن تلك الأيديولوجية لم تبق حاليًا إلا بين اليمين المتطرّف وأولئك الذين يدافعون بالفعل عن "ألمانيا العظمى"، والذين يطلق عليهم اسم الفاشيين أو النازيين الجدد.

وهي فكرة سياسية عن القوميين الشاملين. ويسعى أنصار الاتحاد الجرماني العام في المقام الأول إلى توحيد جميع المجتمعات السكانية الناطقة بالألمانية في أوروبا في دولة قومية واحدة تُعرف باسم ألمانيا العظمى، حيث كانت المجتمعات "الناطقة بالألمانية" تشمل الألمانية الدنيا واللغة الفريزية والناطقة بالهولندية في البلدان المنخفضة، وأحيانًا تكون مرادفة للمجتمعات الناطقة بالجرمانية، حتى تشمل الدول الإسكندنافية.

لقد كان لرابطة الشعوب الجرمانية تأثير كبير في السياسة الألمانية في القرن التاسع عشر خلال حركة توحيد ألمانيا عندما كان قد تم إعلان الإمبراطورية الألمانية كدولة قومية عام 1871 دون النمسا ألمانيا الصغرى، وخلال النصف الأول من القرن العشرين في الإمبراطورية النمساوية المجرية والإمبراطورية الألمانية. ومن أواخر القرن التاسع عشر، تبنى العديد من المفكرين أنصار الاتحاد الجرماني، منذ تنظيمه عام 1891 في الاتحاد الجرماني العام، أيديولوجيات استعراقية وعنصرية، وهو ما أدى في النهاية إلى ظهور السياسة الخارجية التي سعت إليها ألمانيا النازية بقيادة أدولف هتلر منذ عام 1938، ويعد ذلك أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية.ونتيجة لكارثة الحرب العالمية الثانية، كان يُنظر إلى رابطة الشعوب

الجرمانيـة باعتبارهـا مـن الأيـديولوجيات المحرمـة في فـترة مـا بعـد الحـرب في كـل مـن جمهورية ألمانيا الاتحادية وجمهورية ألمانيا الديمقراطية .وظلت رابطة الشعوب الجرمانية أيديولوجية منقرضة علميًا، وفي أحـسن الأحـوال تكـون محـدودة عـلى بعـض الجماعـات الهامشية للنازيين الجدد في ألمانيا والنمسا.

تبدأ أصول رابطة الشعوب الجرمانية مع ولادة الرومانسية القومية خلال الحـروب النابليونية، مع كون فريدريك لودفك يان وإرنست موريتز أرندت من أوائل مؤيديها. وقد كان الألمان، في الجـزء الأكـبر، شـعبًا متحـررًا ومفككًـا منـذ الإصـلاح البروتـستانتي، عنـدما تفككت الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى مجموعة من الدول بعد انتهاء حـرب الثلاثـين عامًا بتوقيع صلح وستفاليا.

وقد سعى مؤيدو تفكيك ألمانيا العظمى إلى توحيد الشعوب الناطقـة بالألمانيـة في أوروبا، تحت قيادة الألمان والنمساويين من الإمبراطوريـة النمـساوية. وقـد كانـت رابطـة الشعوب الجرمانية منتشرة على نطـاق واسـع بـين ثـورات 1848، ولا سـيما بـين ريتـشارد فاغنر والأخوين غريم .وقد دافع كتـاب مثـل فريـدريك لـست وبـول أنطـون لاغـارد عـن الهيمنة الألمانيـة في أوروبـا الوسـطى والـشرقية، حيـثما كانـت الهيمنـة الألمانيـة في بعـض المناطق قد بدأت في وقـت مبكـر مـن القـرن التاسـع مـع التوسـع الألمـاني الـشرقي، وهـو التوسع الجرماني في الأراضي السلافية والبلطيقية. وقد كان أنصار الاتحاد الجرماني ينظـرون إلى هذه الحركة باعتبارها حلم الوصول إلى الشرق، والتي كان الألمان يميلـون فيهـا بـشكل طبيعي لانتهاج سياسة ليبنسراوم من خلال التحرك شرقًا لإعادة توحيـد الأقليـات الألمانيـة هناك.

وقد كُتب النشيد الألماني أغنية الألمان، عام 1841 بواسطة هوفمان فـون فالرسـلبن، ويحدد في مقطعه الأول توحيد ألمانيا كغاية يجب الوصـول إليهـا. مـن نهـر الميـز إلى نهـر نيمان / من نهر أديجي إلى مضيق بيلت"، أي أنها تشمل بروسيا الشرقية وجنوب تيرول.

القضية الألمانية:

بحلـول الـستينيات مـن القـرن التاسـع عـشر (1860) كانـت مملكـة بروسـيا والإمبراطورية النمساوية أقوى دولتين تهيمن عليهما النُخب الناطقة باللغة الألمانية .فقد سعت كلتا الدولتين إلى توسيع نفوذهما وأراضيهما. وقد كانت الإمبراطوريـة النمـساوية - مثل الإمبراطورية الرومانية المقدسـة - دولـة متعـددة الأعـراق، ولكـن الـشعوب الناطقـة بالألمانية هناك لم يكن لها أغلبية عددية مطلقة، وقد كان تأسيس الإمبراطورية النمساوية المجرية أحد نتائج القومية المتنامية لأعراق أخرى خاصة المجريين .وتحت قيـادة الـبروسي أوتو فون بسمارك تغلب على تأثيرات القومية من أجل توحيد كل ما يُمسى اليـوم بألمانيـا. وبعد استبعاد بسمارك النمسا والألمان النمساويين من ألمانيا في الحرب الألمانية وبعد عدد قليل من الأحداث الأخرى على مدى السنوات القليلـة التـي تلتهـا، أنـشأت حركـة توحيـد ألمانيا الإمبراطورية الألمانية التي يهيمن عليهـا البروسـيون ("الـرايخ الثـاني") عـام 1871 في أعقاب إعلان فيلهلم الأول رئيسًا لاتحاد الدول الناطقـة باللغـة الألمانيـة، بيـنما تجاهلـت الحركة الملايين من الرعايا غير الألمان والذين أرادوا الحصول عـلى حـق تقريـر المـصير مـن الحكم الألماني.

ومع ذلك، ظل دمج الألمـان والنمـساويين رغبـة قويـة لكثـير مـن النـاس في ألمانيـا والنمسا، خاصة بين الليبراليين والاشتراكيين الـديموقراطيين وكـذلك الكاثوليـك الـذين كـانوا أقلية في ألمانيا.

كما كان هناك رفض للكنيسة الرومانية الكاثوليكية مع حركة بعيدًا عن روما التـي كانت تدعو الناطقين بالألمانية إلى اختيار المذهب اللوثري أو الكنيسة الكاثوليكية القديمة

القومية الألمانية في النمسا:

بعـد ثـورات 49/1848، التـي دعـى فيهـا الثـوار القوميـون الليبراليـون إلى حـل ألمانيا العظمى، وقعـت الهزيمـة النمـساوية في الحـرب النمـساوية البروسـية 1866 والتـي

كان من آثارها استبعاد النمسا الآن من ألمانيا وزيادة الصراعات العرقية في مملكة هابسبورغ المتعددة الجنسيات وكذلك ظهور حركة وطنية ألمانية في النمسا. وقد طالبت المنظمات، بقيادة القومي الألماني المتطرف والمعادي للسامية جورج فون شونيرر، باعتبارها الاتحاد الجرماني العام بربط جميع الأراضي الناطقة بالألمانية من مملكة دانوب إلى الإمبراطورية الألمانية، ورفضت تمامًا الحركة الوطنية النمساوية. وقد كانت عرقية شونيرر وقوميته الألمانية العنصرية مصدر إلهام لأيديولوجية هتلر .وفي عام 1933، شكل النازيون النمساويون وحزب شعب ألمانيا العظمى الليبرالي القومي مجموعة عمل، تحارب معًا ضد النظام الفاشي النمساوي الذي فرض هوية وطنية نمساوية مختلفة، وفقًا لها، تقول أن النمساويين كانوا "أفضل الألمان"، بينما تبنى كورت شوشنيج سياسة الترضية تجاه استيلاء هتلر، النمساوي المولد، على النمسا إلى الرايخ الثالث وتسمية النمسا باسم "الدولة الألمانية الفضلى" وما زال يكافح للحفاظ على النمسا دولة مستقلة .ومع عملية آنشلوسضم النمسا عام 1938، تم تحقيق الهدف التاريخي للقوميين الألمان في النمساوبعد عام 1945، تم إعادة إحياء المخيم الوطني الألماني في اتحاد الأحرار وحزب الحرية النمساوي .

الاتحاد الجرماني العام:

تأسست حركة الشعوب الجرمانية رسميًا عام 1891، عندما قام إرنست هاس، وهو أستاذ في جامعة لايبتزغ وعضو في الرايخستاغ، بتنظيم الاتحاد الجرماني العام وهو منظمة سياسية قومية متطرفة لها نفوذ تروج للإمبريالية ومعاداة السامية وتدعم الأقليات الألمانية العرقية في البلدان الأخرى .وقد حصلت المنظمة على دعم كبير بين الطبقة الوسطى المتعلمة والطبقة الغنية، وشجعت المنظمة الوعي القومي الألماني، خاصة بين الألمان العرقيين خارج ألمانيا .وفي كتابه المكون من ثلاثة مجلدات، بعنوان "دويتشه بوليتيك" (1905-1907)، دعى هاس للتوسع الإمبريالي الألماني في أوروبا. وقد بشر بسياسات توسعية مماثلة في ميونخ الأستاذ كارل هاوشوفر وإيوالد

بانس وهانز جريم، مؤلف الشعار السياسي وأخوه يعقوب الذي نشر معاهدة حول "حقوق" الألمان. وقد تكلم جورج شونيرر وكارل هيرمان وولف عن مشاعر أنصار الاتحاد الجرماني في الإمبراطورية النمساوية المجرية

وقد تطور الاتحاد الجرماني العام تدريجيًا ليصبح عنصرية بيولوجية، مع الاعتقاد بأن الألمان هم "العرق الأسمى" وأن الألمان في حاجة إلى الحماية من الاختلاط مع الأعراق الأخرى، وخاصة اليهود. وبحلول عام 1912، في المنشور لو كنت القيصر" دعا العضو البارز في الاتحاد الجرماني العام هاينريش كلاس الألمان لغزو المناطق الشرقية التي يسكنها السلاف "الأقل مكانة" وإخلائها من السكان واستيطان المستعمرين الألمان هناك.

رابطة الشعوب الجرمانية في الدول الإسكندنافية:

انتشرت أيضًا النزعات الجرمانية العامة بين حركة الاستقلال النرويجية، ولا سيما التي اقترحها بيتر أندرياس مونش وبيورنستيرن بيورنسون .كما أعربت شخصيات ثقافية بارزة مثل كنوت همسون وهنريك إبسن عن تعاطفهم مع فكرة الاتحاد الجرماني العام . وقد قام بيورنسون، الذي كتب كلمات نشيد النرويج الوطني، بنشرها عام 1901: تبنى يعقوب جريم فكرة رابطة الشعوب الجرمانية المكافحة للدنماركية التي اقترحها مونش وقال أن شبه جزيرة يوتلاند بأكملها قد امتلأت بالألمان قبل وصول الدنماركيين وأن هناك ما يبرر إعادة مطالبة ألمانيا بها، بينما ينبغي دمج بقية الدنمارك في السويد . وقد قاوم ينس يعقوب أسموسن وورساي، وهو عالم آثار كان قد حفر أجزاء من دانيفيرك، هذا الاتجاه من التفكير وجادل بأنه لم يكن هناك وسيلة لمعرفة لغة أوائل سكان الأراضي الدنماركية، وأن الألمان لديهم مطالبات تاريخية أكثر إصرارًا بأجزاء كبيرة من فرنسا وإنجلترا، وأن السلاف يمكنهم بنفس المنطق ضم أجزاء من ألمانيا الشرقية. وبغض النظر عن قوة حجج وورساي، حفزت رابطة الشعوب الجرمانية القوميين الألمان في دوقية شليسفيغ وهولشتاين وأدت إلى

قيام حرب شليسفيغ الأولى عام 1848. وهذا بدوره ربما ساهم في حقيقة أن رابطة الشعوب الجرمانية لم تشتهر في الدنمارك كما اشتهرت في النرويج.

حدود "الرايخ الألماني الأكبر" المخططة على أساس توقعات مختلفة ومستهدفة وممنهجة بشكل جزئي فقط مثل جنرالبلان أوست من إدارة الدولة وإدارة مصادر الوحدة الوقائية.

أصبحت الحرب العالمية الأولى المحاولة الأولى لتنفيذ أيديولوجية رابطة الشعوب الجرمانية في الممارسة العملية، وجادلت حكومة الاتحاد الجرماني العام بقوة لنشر الإمبريالية التوسعية مزودة الشعب الألماني بـليبنسراوم أماكن إعاشة.

بعد الهزيمة في الحرب العالمية الأولى، كان تأثير النخب الناطقة بالألمانية على أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية محدودًا للغاية. وفي معاهدة فرساي، تم تخفيض حجم ألمانيا بشكل كبير. كما تم تقسيم الإمبراطورية النمساوية المجرية .وقد اعتمدت إمبراطورية النمسا المقعدية، والتي تتفق إلى حد ما مع المناطق الناطقة بالألمانية في الإمبراطورية النمساوية المجرية كان الانقسام الكامل في المجموعات اللغوية مستحيلاً بسبب المناطق المتعددة اللغات والمستبعدات من اللغة) اسم الجمهورية الألمانية النمساوية ألمانية :على أمل توحيد ألمانيا .وقد كان الاتحاد مع ألمانيا واستخدام اسم "الجمهورية الألمانية النمساوية" ممنوعًا بموجب معاهدة سان جرمان 1919 وكان لا بد من تغييرها مرة أخرى إلى النمسا.

كانت الفترة التي تلي الحرب العالمية الأولى هي الفترة التي أخذ فيها أدولف هتلر النمساوي المولد، تحت تأثير أسطورة الطعنة في الظهر، لأول مرة الأفكار القومية الألمانية في كتابه كفاحي .والتقى هتلر بـهاينريش كلاس عام 1918، وأمد كلاس هتلر بالدعم في انقلاب بير هول عام 1923. وتشارك هتلر وأصدقائه الاشتراكيون القوميون معظم الرؤى الأساسية المتعلقة برابطة الشعوب الجرمانية مع الاتحاد الجرماني العام، وبرغم ذلك قادت الاختلافات في الأسلوب السياسي المجموعتين إلى

التنافس المفتوح. وقطع حزب العمال الألماني في بوهيميا علاقاته مع حركة الاتحاد الجرماني العام، التي كان يُنظر إليها على أنها تهيمن عليها الطبقات الغنية بشكل كبير، وانضمت إلى القوات مع حزب العمال الألماني بقيادة آنتون دريكسلر، الذي أصبح فيما بعد حزب العمال الألماني الاشتراكي القومي (الحزب النازي) الذي كان من المقرر أن يرأسه أدولف هتلر عام 1921 شعب واحد، رايخ واحد، قائد واحد")، من أجل فرض المشاعر القومية الجرمانية في النمسا من أجل الضم.

وقد كانت مبادرة الألمانية :حرفيًا العودة إلى الإمبراطورية، والتي تعني العودة إلى الرايخ، انظر رايخ سياسة سعى إليها النازيون الذين حاولوا إقناع الألمان العرقيين الذين يعيشون خارج الرايخ الثالث كما هو الحال في النمسا والسوديت أنه ينبغي عليهم السعي جاهدين لضم هذه المناطق إلى "موطنها" في ألمانيا العظمى. كما أدت هذه الفكرة إلى السبيل لإقامة دولة أكثر توسعية بشكل لا يمكن تصوره، وهي الرايخ الألماني الأكبر، التي حاولت ألمانيا النازية إقامتها .وكان من المتوقع أن يتم الضم العسكري للإمبراطورية الجرمانية، عمليًا كل أوروبا الجرمانية في الرايخ الألماني الأكبر الممتد بشكل هائل. وعند الحديث إقليميًا، يشمل هذا الضم الرايخ الألماني نفسه الموسع بالفعل (يتكون من مرحلة ما قبل 1938 ألمانيا الأصلية والنمسا وبوهيميا ومورافيا والألزاس واللورين وأوبين-مالميدي وميمل وستيريا السفلى وكارنيولا العليا وكارينثيا الجنوبية والاحتلال الألماني لبولندا وهولندا والإقليم الفلامندي لبلجيكا ولوكسمبورج والدنمارك والنرويج والسويد وآيسلندا وعلى الأقل المناطق الناطقة بالألمانية من سويسرا وليختنشتاين وكان الاستثناء الوحيد الملحوظ هو المملكة المتحدة التي كان يقطنها أغلبية الأنجلوسكسونيون، والتي لم يكن يتوقع أن يتم تقليصها لتصبح إقليمًا ألمانيًا ولكن لتصبح شريكًا حليفًا في الملاحة البحرية للألمان.

الجدير بالذكر أن الحرب العالمية الثانية أدت إلى تراجع رابطة الشعوب الجرمانية، بقدر ما أدت الحرب العالمية الأولى إلى زوال القومية السلافية. وقد تدمرت

أجزاء من ألمانيا نفسها، وقُسمت البلاد، أولاً إلى مناطق سوفيتية وفرنسية وأمريكية وبريطانية ثم إلى ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية .وقد ازدادت الكوارث، حيث عانت ألمانيا من خسائر إقليمية أكبر مما كانت عليه في الحرب العالمية الأولى، مع ضم أجزاء كبيرة من ألمانيا الشرقية مباشرة من قبل الاتحاد السوفيتي وبولندا .وقد كان حجم هزيمة الألمان ليس له مثيل. وأصبح أيديولوجية رابطة الشعوب الجرمانية من المحرمات تقريبًا لأنها ارتبطت بشكل صارخ ومدمر ذاتيًا بالمفاهيم العنصرية لـ "العرق السائد" وأونترمينش على أيدي النازيين .وفي الحقيقة، تطورت مصطلحات عنصرية، مثل الشعب الألماني في إشارة إلى الألمان العرقيين في بلدان أخرى تلاعب بها النازيون خلال الحرب العالمية الثانية، لاحقًا إلى ألقاب خفيفة بين الهنغاريين (المجريين). ومع ذلك، أحيا إعادة توحيد ألمانيا عام 1990 الجدل القديم، ولكن تظل هذه الأيديولوجية ليس إلا لليمين المتطرف وأولئك الذين يدافعون بالفعل عن "ألمانيا العظمى" اليوم والذين غالبًا ما يسمون باسم الفاشيين و/أو النازيين الجدد.

التقدم العلمي المادي والثورة الصناعية

الثورة الصناعية هي انتشار وإحلال العمل اليدوي بالميكنة وقد بدأت في بريطانيا ب القرن 18 .وما زالت مستمرة في أجزاء أخري من العالم . وما يميزها هو تحويل الاقتصاد الزراعي لاقتصاد صناعي . وبدأت السلع التقليدية التي كانت تنتج في البيوت والورش أخذت تنتج علي نطاق واسع في المصانع . ونمت الكفاءة الإنتاجية بشكل سريع من خلال التطبيق العلمي والمعرفي المنظم ز وأدت الثورة الصناعية في ظهور المدن عندما هاجر القرويون ليعملوا في المصانع .

وكانت الثورة الصناعية أول خطوة في نمو الاقتصاد الحديث . وكان النمو الاقتصادي في أوربا يواكب التكنولوجيا العسكرية المتفوقة خلال القرنين 18و19 وامتدت للولايات المتحدة الأمريكية . وامتد التصنيع في القرن 20 علي نطاق واسع لأجزاء من آسيا والمحيط الباسفيكي . وحاليا أصبح الإنتاج الميكن والنمو الاقتصادي الحديث آخذ في الانتشار لأماكن أخرى .

أسبابها :

بدأت الثورة الصناعية أول ما بدأت في إنجلترا؟ لأن إنجلترا قد انتصرت في حروب عظمى على القارة وحفظت في الوقت نفسه أرضها من خراب الحرب؛ ولأنها حققت السيطرة على البحار فظفرت بمستعمرات وفرت لها الخامات واحتاجت إلى السلع المصنوعة؛ ولأن جيوشها، وأساطيلها، وسكانها المتزايدين، هيئوا لها سوقاً متسعة للمنتجات الصناعية؛ ولأن النقابات الحرفية عجزت عن تلبية هذه المطالب المتسعة؛ ولأن مكاسب التجارة المترامية الحدود كدست رأسمال يبحث عن وجوه جديدة للاستثمار؛ ولأن إنجلترا سمحت لنبلائها-ولثرواتهم-بالاشتغال بالتجارة والصناعة؛ ولأن إحلال الرعي تدريجياً محل فلاحة الأرض أجبر الفلاحين على النزوح من الحقول إلى المدن حيث زادوا من عدد العمال المتاحين للصناعة؛ ولأن العلم في إنجلترا كان يوجهه رجال ذوو نزعة علمية، في حين كان على القارة منصرفاً أغلبه إلى البحث المجرد؛ وأخيراً لأن إنجلترا كان لها حكومة دستورية حساسة لمصالح التجارة، شاعرة على نحو غامض بأن السبق في الثورة الصناعية سيحقق لإنجلترا الزعامة السياسية للعالم الغربي طوال حقبة قرن أو يزيد .

أما سيطرة بريطانيا على البحار فكانت قد بدأت بهزيمتها للأرمادا الأسباني؛ وامتدت هذه السيطرة بفضل الانتصارات على هولندا في الحروب الإنجليزية الهولندية، وعلى فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية؛ ثم جاءت حرب السنين السبع فكادت تجعل المحيط حكراً على بريطانيا، وكان للبحرية البريطانية التي لا تقهر الفضل في تحويل القنال الإنجليزي إلى ما يشبه الخندق المائي الحالي لهذا "الحصن الذي شيدته الطبيعة.. ليدرأ عنها شر المرض وذراع الحرب" كما قال شكسبير. فلم يعف الاقتصاد الإنجليزي من نهب الجند المغيرين وسلبهم فحسب، بل غذته وحفزته حاجات الجيوش البريطانية وجيوش الحلفاء المحاربة في القارة، ومن هنا هذا التوسع الزائد في صناعات النسيج والمعادن، والحاجة لآلات تزيد من سرعة الإنتاج ولمصانع تستكثر منه .

وسهلت السيطرة على البحار فتح المستعمرات, وكانت كندا أغنى بقاع الهند المثمرة التي وقعت من نصيب إنجلترا في حرب السنين السبعة، وأكسبت رحلات كرحلات الكابتن كوك 76-1768 الإمبراطورية البريطانية جزائر أفادتها من الناحية الإستراتيجية في الحرب والتجارة، وثبت انتصار رودني على دجراس (1782)-السيطرة البريطانية على جميكا، وبربيدس، وجزر البهاما. ثم ظفرت بنيوزيلنده في 1787، وباستراليا في 1788. وأتاحت تجارة المستعمرات وغيرها من أقطار ما وراء البحار للصناعة البريطانية سوقاً أجنبية لا ينافسها فيها منافس في القرن الثامن عشر، وكانت التجارة مع المستوطنات الإنجليزية في أمريكا الشمالية تستخدم 1.078-سفينة و29.000 ملاح. وازدهرت لندن وبرستل ولفربول و جلاسجو ثغوراً هامة لتجارة الأطلنطي هذه. وأخذت المستعمرات السلع المصنوعة وأرسلت عوضاً عنها الطعام والتبغ والتوابل والشاي والحرير والقطن والخامات والذهب والفضة والأحجار الكريمة. وقيد البرلمان استيراد المصنوعات الأجنبية بفرض الرسوم العالية عليها وثبط تنمية صناعات المستعمرات أو الصناعات الأيرلندية المنافسة لصناعات بريطانيا. ولم تقم مكوس داخلية (كتلك التي عرقلت سير التجارة الداخلية في فرنسا) عقبة في سبيل انتقال السلع في أرجاء إنجلترا وإسكتلندة وويلز؛ وكانت هذه الأقاليم أوسع منطقة للتجارة الحرة في غربي أوربا. وحظيت الطبقتان العليا والوسطى برخاء عظيم جداً، وبقدرة شرائية كانت حافزاً إضافياً للإنتاج الصناعي.

ولم تكن النقابات الحرفية كفئاً لتلبية حاجات الأسواق المتسعة في الداخل والخارج. لقد أسست أولاً لسد حاجات البلدة وما حولها، وغلت يدها نظم عتيقة ثبطت الابتكار والتنافس والاقتحام، ولم تكن معدة لجلب المواد الخام من مصادر نائية، أو للحصول على رأس المال اللازم للإنتاج الموسع، أو لحساب الطلبات من الخارج أو الحصول عليها أو تلبيتها. وحل محل معلم النقابة الحرفية شيئاً فشيئاً "مقاولون" ومتعهدون يعرفون كيف يجمعون المال، ويتوقعون الطلب أو يخلقونه،

ويحـصلون عـلى الخامـات، وينظمـون الآلات والعـمال للإنتـاج لأسـواق في كـل أركـان المسكونة .

أما المال فقد جاء من أرباح التجارة أو الأعمال المالية، ومن غنائم الحرب ومراكـب القرصنة، ومن التعدين أو استيراد الذهب أو الفضة، ومن الثروات الكبيرة التي تحققت في تجارة الرقيق أو في المستعمرات. كان الإنجليز يرحلون عن بلادهم فقراء، فيعـود بعـضهم أغنياء. ففي تاريخ مبكر (1744) أتيح لخمسة عشر رجلاً عائدين من جزر الهنـد الغربيـة من المال ما يكفي لشراء انتخابهم للبرلمان، وما وافى عام 1780 حتى كـان النوابـون الـذين أثروا في الهند قوة في مجلس العموم، والكثير من هذا المال المجلوب كان متاحاً للاسـتثمار. وبينما كان النبلاء ف يفرنسا ممنوعين من الاشتغال بالتجارة أو الصناعة، وكـان نظـراءهم في إنجلترا معفين من هـذا الخطـر، ونمـت الـثروة المتأصـلة في الأرض بفـضل اسـتثمارها في المشروعات التجارية؛ من ذلك أن دوق بردجووثر غـامر بميراثـه في تعـدين الفحـم. وأودع آلاف البريطانيين مدخراتهم في المصارف التي كانت تقرض النقود بفوائد منخفضة .وانتشر مقرضو المال في كل مكان، فقد اكتشف المصرفيون أن أيسر طـرق الإثـراء هـي التعامـل في نقود غيرهم. فكـان في لنـدن عـشرون مـصرفاً في 1750، وخمـسون في 1770، وسـبعون في 1800 وعد بيرك اثني عشر مصرفاً خارج لندن في 1750؛ وفي 1793كـان هنـاك أربعمائـة. وأضافت النقود الورقية إلى اللقاح المخصب، فبلغت في 1750 اثنـين في المائـة مـن العملـة وفي 1800 بلغت عشرة في المائة. وغامرت الأموال المختزنة بالاستثمار حين نـشرت التجـارة والصناعة أرباحهما المتصاعدة.

واحتاجـت الحوانيـت والمـصانع المتكـاثرة إلى رجـال. وتعـاظم المـدد الطبيعـي من العمال بفضل العدد المتزايد من الأسر الريفية التي لم تعـد قـادرة عـلى كـسب قوتهـا من الفلاحة. وطالبت صناعة الصوف المزدهـرة بالـصوف؛ وانتـزع المزيـد مـن الأرض مـن الفلاحة وخـصص للرعـي؛ وحلـت الأغنـام محـل الرجـال؛ ولم تكـن قريـة "أوبـرن" (التـي

حزن عليها جولدسمث القرية المهجورة الوحيدة في بريطانيا. ففي الفترة من 1702 إلى 1760كان هناك 246 قانوناً برلمانياً يصرح بنزع أربعمائة فدان من الزراعة، ومن 1760 إلى 1810 كان هناك 2.438 قانوناً، تأثرت بها خمسة ملايين فدان تقريباً(7). ولما تحسنت الآلات الزراعية، لم تعد الملكيات الصغيرة مرغوبة، لأنها عجزت عن استعمال الآلات الجديدة أو دفع ثمنها؛ فباع الألوف من المزارعين أراضيهم وأصبحوا أجراء في مزارع واسعة أو في مصانع ريفية أو في المدن. وأنتجت المزارع الكبيرة المزودة بطرائق وتنظيم وآلات أفضل غلة للفدان أكثر من مزارع الماضي، ولكنها كادت تمحو كل أثر للمزارعين الأحرار، أو الفلاحين الملاك، الذين كانوا الدعامة الاقتصادية والحربية والأخلاقية لإنجلترا. وزودت أثناء ذلك الهجرة من ايرلندة والقارة أعداد الرجال والنساء والأطفال المتنافسين على الاشتغال في المصانع .

ولم يلعب العلم إلا دوراً متواضعاً في التحول الاقتصادي الذي طرأ على إنجلترا القرن الثامن عشر. وقد استعان وات ببحوث ستيفن هيلز في الغازات، وجوزف بلاك في الحرارة والبخار، على تحسين الآلة البخارية. وكانت جمعية لندن الملكية يتألف أكثرها من رجال عمليين يحبذون الدراسات التي يرجى تطبيقها على الصناعة. وكذلك كان استعداد البرلمان البريطاني لمراعاة الاعتبارات المادية؛ ومع أن ملاك الأرض كانوا مهيمنين عليه، فإن العديد منهم شاركوا في التجارة أو الصناعة، وكان أكثر الأعضاء ميالين إلى قبول الهدايا واستجابة إلى الالتماسات من رجال الأعمال لتخفيف القيود التي فرضتها الحكومات السابقة على الاقتصاد. وظفر المدافعون عن حرية المشروعات وحرية التجارة-وترك الأجور والأسعار حرة في الصعود أو الهبوط طبقاً لقوانين العرض والطلب-هؤلاء ظفرت بتأييد عدة زعماء برلمانيين، فتحطمت ببطء الحواجز القانونية المعوقة لانتشار التجارة والمصنوعات. وهكذا تحققت جميع الشروط اللازمة لتفوق إنجلترا في الثورة الصناعية .

البدايات :

كان الأوربيون قد اخترعوا واستخدموا ميكنات معقدة ولاسيما في وسائل النقل بظهور السفن السريعة وماكينات الطبع . فظهرت الطبقة العاملة والمدربة علي استعمال الميكنة وتشجيع تبادل الأفكار وترويج الميكنة والبحث عن الطاقة وفتح السواق التجارية لتصريف الإنتاج للصناعة الحديثة . وأثناء الثورة الصناعية في بريطانيا كان الطلب متزايدا علي الفحم الحجري .وفي سنة 1709م .بدأ استخدام فحم الكوك في صناعة الصلب بإنجلترا من الحديد .. وفي سنة 1784 م. بدأ الحديد المسحوب في الظهور الذي يمكن تشكيله لأحجام .وكان الحديد المفتاح المعدني للثورة الصناعية حيث كانت تصنع منه الماكينات والآلات والسفن والبيوت . ودخلت البشرية ثورة عصر البخار منذ القرن 18 م. وفي سنة 1712 قام المهندس الإسكتلندي جيمس وات قد جعل الآلة البخارية تستخدم في أغراض أخرب غير مناجم الفحم . فجعلها تدير الطواحين والمناشير التي كانت قبله تدار بمساقط المياه مما جعل إنشاء المصانع في أي مكان و ليس بالضرورة بجوار مصادر المياه.

وشارك وات في تكوين مركز ابتكار تقني الذي أصبح حجر الزاوية في الاقتصاد البريطاني و الثورة الصناعية عام 1775م. حيث كان يشارك في حل المشكلات التقنية ونشر أبحاثه علي الشركات البريطانية .وهذا الربط المعلوماتي والتفاعلي بين هذه الشركات وفر الوقت وقلل من الأموال التي تنفقها شركة بمفردها علي الأبحاث . مما حقق تطورا سريعا ومتناميا للثورة الصناعية . لأم كل المصانع كانت مشاركة جماعية وتفاعلية معا لتطوير صناعاتها ومنتجاتها وخلق طرق تقنية ومنتجات جديدة . فلهذا دخلت المنتجات الحديدية والآلات البخارية في عدة مجالات كالقوارب البخارية وقاطرات السكك الحديدية البخارية والسفن البخارية . وبد أ عصر الآلة البخارية في الظهور والشيوع معتمدا علي الطاقة البخارية . وقبل الثورة الصناعية كان الغزل والنسيج يدويا وفي البيوت. وكان هذا متبعا منذ عدة قرون . لكن مع ظهور المكوك الطائر الذي اخترعه الإنجليزي جون كاي كان أهم اختراع في

صناعة الملابس عام 1733 م. لأنه ميكن طريقة النسيج جزئيا . وأعقبه عام 1770 م المخترع الإنجليزي جيمس هارجريفز فاخترع المغزل الجيني الذي كان يغزل عددا من الخيوط جملة واحدة . وكان الغزل بتم بالقوة المائية والبخارية لتشغيل مغازل القطن والصوف . وهذا التطور جعل إنجلترا أكبر مصدر للأنسجة لدول العالم . وقبل الثورة الصناعية كان ثلاثة أرباع سكان إنجلترا يعيشون في قري صغيرة . لكن في منتصف القرن 19 م.كان نصف سكانها يعيشون في المدن الصناعية المزدحمة . وتحددت الأجور وساعات العمل والعطلات.وتقسيم العمل .

مقوماتها

كانت العناصر المادية للثورة الصناعية هي الحديد والفحم والنقل والآلات والطاقة والمصانع. ولعبت الطبيعة دورها بتزويدها إنجلترا بالحديد والفحم وسيولة الطرق. ولكن الحديد على الصورة التي جلب بها من المناجم كانت تتخلله الشوائب التي لا بد من إزالتها بصهره بالنار. وكذلك كان الفحم تختلط به الشوائب التي أزيلت بتسخينه أو "طهوه حتى يستحيل إلى "الكوك" وتحول خام الحديد المحمي المنقى لدرجات متنوعة بالكوك المحروق إلى حديد مشغول أو زهر أو صلب .

ورغبة في زيادة الحرارة بنى أبراهام درابي 1754 وما بعدها أفراناً عالية تزود فيها النار بهواء إضافي من منفاخ تشغله ساقية. وفي 1760 استعاض جون سميتن عن المنفاخ بمضخة هواء مضغوط تشغلها المياه من جهة والبخار من جهة أخرى، ورفع تيار الضغط العالي الثابت إنتاج الحديد الصناعي من اثني عشر طناً إلى أربعين طناً للفرن في اليوم. ورخص الحديد رخصاً أتاح استعماله في مئات النواحي الجديدة؛ مثال ذلك أن رتشارد رينولدز بنى في 1763 أول سكة حديد معروفة - وكانت طرقاً حديدية يسرت إحلال المركبات محل خيول الحمل ف ينقل الفحم والحديد .

وبدأ الآن عصر ساد فيه كبار صناع الحديد المشهورون الذين سيطروا على المسرح الصناعي وأثروا ثراء طائلاً باستخدامهم الحديد في أغراض بدت غريبة تمام الغرابة على ذلك المعدن. مثال ذلك أن جون ولكنسن وأبراهام درابي الثاني أقاما

أول قنطرة حديدية على نهر سفرن 1779 وأضحك ولكنسن إنجلترا حين أقترح بناء سفينة حديدية، وقال بعضهم إنه جن؛ ولكنه وقد اعتمد على المبادئ التي أرساها أرخميدس، ركب بألواح معدنية أول سفينة حديدية عرفها التاريخ (1787). وأقبل رجال الأعمال من الخارج ليشاهدوا ويدرسوا المصانع الكبرى التي أقامها ولكنسن، أو رتشارد كرونشي أو انتوني بيكن .وأصبحت برمنجهام القريبة من طبقات هائلة من الفحم والحديد أهم مراكز لصناعة الحديد في إنجلترا. ومن هذه الورش تدفق إلى ورش إنجلترا ومصانعها الجديد من العدد والآلات الأكثر قوة والأحق بالاطمئنان إليها .

وكان الفحم والحديد ثقيلين إلى النقل إلا بالماء. وأتاح الساحل الغني بالفجوات العميقة للنقل البحري الوصول إلى الكثير من مدن بريطانيا الكبرى. وكان لا بد من إحداث ثورة في وسائل النقل لجلب المواد والمحاصيل إلى المدن البعيدة عن الساحل والأنهار الصالحة للملاحة وظلت حركة البضائع على البر شاقة رغم شبكة الطرق الرئيسية التي بنيت بين 1751 و1771، وقد اشتق اسمها من الأبواب الدوارة المرشوقة بالمناخس التي تعوق المرور حتى تدفع المكوس. وقد ضاعفت طرق المكوس هذه سرعة العبور ونشطت التجارة الداخلية .

وحل محل خيول الحمل عربات تجرها الخيل، وأخلى السفر على ظهور الخيل مكانه لمركبات البريد. على أن الطرق الرئيسية تركت لأصحاب المشروعات الحرة ليصونوها وسرعان ما تدهورت حالها. إذن ظلت حركة التجارة تؤثر الطرق المائية. لذلك ظهرت الأنهار لتحمل السفن الثقيلة، وربطت الأنهار والمدن بالقنوات. وقد تحول جيمس برندلي، الذي لم يكن له حظ من التعليم النظامي أو الفني، من مركب طواحين غير متعلم إلى أشهر مهندس قنوات في جيله، إذ حل بميله الميكانيكي مشاكل تمديد القنوات خلال الأهوسة والأنفاق وفوق السقابات. وفي 1759-61 شق قناة جلبت إلى مانشستر الفحم من مناجم دوق بردجووتر في ورسلي؛ فأنقص هذا إلى

النصف ثمن الفحم في مانشستر، ولعب دوراً رئيسياً في جعل تلك المدينة حاضرة صناعية، وكان من أجمل المناظر في إنجلترا القرن الثامن عشر منظر مركب تمخر مياه قناة برندلي-بردجووتر الممتدة بسقاية تعلو تسعة وتسعين قدماً فوق نهر ايرويل في بارتن .

وفي 1766 بدأ برندلي شق قناة الجراند ترنك التي ربطت نهري ترنت ومرزي ففتحت بذلك طريقا مائياً عبر وسط إنجلترا من البحر الأيرلندي إلى بحر الشمال. وربطت قنوات أخرى نهر ترنت بالتيمز، ومانشستر بلفربول، ولم تنقضي ثلاثون سنة حتى خفضت مئات القنوات الجديدة تكاليف نقل التجارة في بريطانيا تخفيضاً كبيراً .

أما وقد توفر للثورة الصناعية المواد والوقود والنقل، فقد بقي عليها بعد ذلك أن تستكثر من السلع. وكان الطلب على الآلات اللازمة لتعجيل الإنتاج على أشده في المنسوجات. فالناس في حاجة إلى الكساء، والجنود والصبايا كان يجب تموينهم بالأزياء الخاصة بهم. وكان القطن يدخل إنجلترا بمقادير تتزايد بسرعة-ثلاثة ملايين رطل في 1753، واثنان وثلاثون مليوناً في 1789، ولم يكن في طاقة العمل اليدوي أن يصنع بضائع مصقولة في الوقت الذي يلبي فيه الطلب. إن تقسيم العمل الذي كان قد تطور في حرف الكساء أوحى باختراع الآلات وشجعه .

وكان جون كاي قد بدأ ميكنة النسيج بفضل مكوكه الطائر 1733، ولويس بول ميكن الغزل بطريقة البكر 1783. وفي 1765 غير جيمس هرجريفز، وهو من أهالي مدينة بلاكبيرن بلانكاشير وضع عجلة الغزل فجعلها أفقية يدل أن تكون رأسية، وركبة عجلة فوق أخرى، وشغل ثماني منها ببكرة واحدة وسير، ونسج ثمانية خطوط في وقت واحد، ثم أضاف مزيداً من القوة من المغازل حتى استطاع مغزله وجني هو اسم زوجته أن ينسج ثمانين خطاً في وقت واحد. وخشي الغزالون اليدويون أن تفقدهم هذه البدعة حرفتهم وقوتهم، فحطموا آلات هارجريفز فهرب لحياته إلى نوتنجهام حيث أتاح نقص العمال لمغازله أن تركب. فلما حلت سنة 1788

كان عددها في بريطانيا قد بلغ عشرين ألفاً، وكانت عجلة الغزل بسبيلها إلى أن تصبح حلية رومانسية .

وفي 1769 وفق رتشارد آركرايت بناء على اقتراحات ميكانيكيين شتى في تطوير "إطار مائي" تستطيع قوة الماء بواسطته أن تحرك ألياف القطن بين سلسة متعاقبة من البكرات تجذب وتمد الألياف فتجعلها خيطاً أكثر إحكاماً وصلابة. وحوالي عام 1774 جمع صموئيل كرومتن بين مغزل هارجريفز وبكرات آركرايت في آلة هجين لقبها ظرفاء الإنجليز "بلغة كرومتن": فكانت حركة المغازل المتعاقبة إلى الخلف وإلى الأمام بالتناوب تمد الخيط وتفتله وتلفه فتجعله أرفع وأقوى؛ وقد ظلت هذه الطريقة إلى وقتنا هذا المبدأ الذي تقوم عليه أعقد آلات الغزل والنسيج. وكانت المغزلة القديمة (الجني) والإطار المائي يصنعان من الخشب، أما البقية فقد استخدمت البكرات والعجلات المعدنية بعد 1783، وأصبحت من المتانة بحيث تحتمل سرعة التشغيل الآلي وضغطه .

وكانت الأنوال الآلية التي بالكرانك والأثقال تستعمل من قبل في ألمانيا وفرنسا، ولكن حدث في 1787 أن شيد إدموند كارترايت في دونكاستر مصنعاً صغيراً شغل فيه عشرون نولاً بقوة الحيوان المحركة. وفي 1789 استبدل بهذا المحرك آلة بخارية. وبعد عامين اشترك مع بعض أصدقاء من مانشستر في إنشاء كبير يدار فيه أربعمائة نول بالبخار. وهنا أيضاً ثار العمال، فأحرقوا المصنع وسووه بالأرض وهددوا بقتل مؤسسيه. وبنيت في العقد التالي أنوال آلية كثيرة، وحطم المشاغبون بعضها ونجا بعضها وتكاثر، وانتصرت الآلات.

وكان مما أعان إنجلترا على الصناعة توافر القوة المائية المتولدة في أنهار كثيرة يغذيها المطر الغزير. فأقيمت الطواحين والمصانع في القرن الثامن عشر في الريف أكثر مما أقيمت في المدن على أنهار يمكن بناء سدود عليها تحدث مساقط للمياه لها من القوة ما يكفي لإدارة عجلات كبير. هنا قد يتساءل شاعر ألم يكن من الخير لم يحل البخار

قط محل الماء قوة محركة، وان تختلط الصناعة بالزراعة في الريف بدلاً من أن تحشد في المدن. ولكن وسيلة الإنتاج الأكثر فاعلية وربحاً تزيح الوسيلة الأقل، وقد وعدت الآلة البخارية (التي تألقت هي أيضاً-إلى وقت قريب-بوهج رومانسي) بأن تنتج أو تنقل من السلع والذهب أكثر مما شهد العالم في أي زمان مضى .

ولقد كانت الآلة البخارية ذروة الثورة الصناعية لا ثمرة لها تماماً. ولا داعي للرجوع بالذاكرة إلى هيرو الإسكندري (200م؟)، لأن دنتن بابين وصف جميع مكونات ومبادئ آلة بخارية عملية في عام 1690. ثم صنع تومس سافري مضخة يديرها البخار في 1698. وطورها تومس نيوكومن 12-1708 إلى آلة يكثف فيها تيار متدفق من الماء البارد البخاري المولد من الماء المحمي، ويدفع فيها بالتناوب ضغط الهواء كباساً إلى أعلى وأسفل؛ هذه "الآلة الهوائية" ظلت الآلة القياسية حتى حولها جيمس وات إلى آلة بخارية حقيقية في 1765 .

وكان وات بخلاف معظم مخترعي ذلك الجيل طالباً كما كان رجلاً عملياً. كان جده معلم رياضيات، وأبوه معمارياً وبناء سفن وقاضياً في بلدة جرينوك في جنوب غربي إسكتلندة. ولم يحظ جيمس بتعليم جامعي، ولكنه كان ذا تطلع خارق واستعداد ميكانيكي. ويعرف نصف العالم قصته مع عمته التي وبخته قائلة "لم أر قط ولداً خاملاً مثلك... فإنك لم تنطق بكلمة واحدة طوال هذه الساعة، بل نزعت غطاء تلك الغلاية، ثم أعدته إلى مكانه، ثم أمسكت تارة قلنسوة وتارة ملعقة فضية فوق البخار ملاحظاً كيف يتصاعد من البزبوز، وممسكاً بالقطرات محصياً إياها". وفي القصة رائحة الأسطورة، ولكن مخطوطاً خلفه جيمس وات بخط يده يصف تجربة فيها "ثبت الطرف المستقيم لأنبوب على بزبوز غلاية شاي"، وجاء في مخطوطة أخرى: "أخذت أنبوبة زجاجية ملوية وأدخلتها في فم غلاية الشاي، وغمرت الطرف الآخر في ماء بارد".

وحين بلغ وات العشرين 1756 حاول أن يبدأ عمله في جلاسجو صانعاً للأدوات العلمية. أبت عليه نقابات حرف المدينة الرخصة بحجة أنه لم يكمل التلمذة

كلها، ولكن جامعة جلاسجو أعطته ورشة داخل أرضـها. واختلـف إلى محـاضرات الكيميـاء التي يلقيها جوزيف بلاك، وكـسب صـداقته ومـساعدته، واهـتم خاصـة بنظريـة بـلاك في الحرارة الكامنة.

ثـم تعلـم الألمانيـة والفرنـسية والإيطاليـة ليقـرأ الكتـب الأجنبيـة بمـا فيهـا كتـب الميتافيزيقا والشعر. وقد راع السير جيمس روبيسون تنوع معلوماته، وكان يعرفه في تلـك الآونة (1758)، فقال رأيت صانعاً ولم أتوقع أكثر من هذا، ولكنـي وجـدت فيلـسوفاً". وفي 1763 طلبت إليه الجامعة أن يصلح نموذجاً من آلـة نيوكـومن كـان يـستعمل في تـدريس الفيزياء. وأدهشته أن ثلاثة أرباع الحرارة التي تمد بها الآلة تضيع هباء، فبعـد كـل ضربـة كباس تفقـد الأسـطوانة الحـرارة مـن جـراء اسـتعمال المـاء البـارد لتكثيـف كميـة البخـار الجديدة التي تدخل الأسطوانة، فقد كان قدر كبـير مـن الطاقـة يتبـدد حتـى حكـم أكـثر أصحاب المصانع بأن الآلة غير مجزية. واعتزم وات تكثيف البخار في وعاء منفصل لا تـؤثر درجة حرارته المنخفضة في الأسطوانة التي يتحرك فيها الكباس. وزاد هذا "المكثف" كفـاءة الآلة في نسبة الوقود المستعمل إلى العمل المؤدي قرابة ثلاثمائة في المائة. ويضاف إلى هـذا أن الكباس بفضل إصلاح وات للآلة أخذ يحركه تمدد البخار لا الهواء؛ لقـد صـنع وات آلـة بخارية لا مراء فيها .

أما الانتقال من الخطط والنماذج إلى التطبيق العمـلي فقـد أفنـى اثنـي عـشر عاماً من حياة وات. ولكي يصنع عينات ويحـدث تحـسينات متعاقبـة في آلتـه اقـترض أكثر من ألف جنيه، وأكثرها من جوزف بلاك، الذي لم يفقد إيمانه به قط. وتنبأ جـون سميتن، وكان هو نفسه مخترعاً ومهندساً، بأن آلة وات لا يمكن "تعميم استعمالها أبداً لصعوبة تصنيع أجزائها بالدقـة الكافيـة"(15)، وفي 1765 تـزوج وات، وكـان عليـه أن يكسب مزيداً من المال، فنحى اختراعه وعكف على أعمال المساحة والهندسـة، فرسـم تصميمات الثغور والكباري والقنوات. وخلال ذلـك قدمـه لاك إلى جـون روبـك الـذي كان يبحث عن آلة أكثر فاعلية من آلة نيوكومن لضخ الماء من مناجم الفحم التي تمد

بالوقود مصانع الحديد التي يملكها في كارون. وفي 1767 وافق على أن يدفع ديون وات ويزوده برأس المال اللازم لصنع آلات طبق مواصفات وات، وذلك لقاء ثلثي الأرباح التي تتحقق من التركيبات أو المبيعات .ورغبة في حماية استثمارهما طلب وات في 1769 إلى البرلمان براءة اختراع تعطيه دون غيره حق إنتاج آلته، فمنح البراءة حتى عام 1783. وأقام هو وروبك آلة بخارية قرب أدنبرة، ولكن صنعة الحدادين الرديئة تسببت في فشلها؛ وفي بعض الحالات كانت الأسطوانات التي صنعت لوات أكبر في قطرها ثمن بوصة في طرف منها في الآخر .

وباع روبك نصيبه في الشركة إلى ماثيو بولتن 1773 بعد أن فتت النكسات في عضده. وبدأ الآن ارتباط ملحوظ في تاريخ الصداقة كما هو ملحوظ في تاريخ الصناعة. ذلك أن بولتني لم يكن مجرد إنسان يجري وراء الربح، فلقد بلغ اهتمامه بتحسين طرائق الإنتاج وميكانيكياته حداً أفقده ثروته في هذا سبيل. ففي 1760 تزوج وهو في الثالثة والثلاثون من أرملة غنية، وكان في وسعه أن يتقاعد ويعيش على دخلها، ولكنه بدلاً من هذا بنى في سوهو قرب برمنجهام مصنعاً من أكبر مصانع إنجلترا، يقوم بصنع أنواع كثيرة من الأدوات المعدنية من مشابك الأحذية إلى الثريات. وكلن يعتمد على القوة المائية لتشغيل الآلات في مباني مصنعه الخمسة ثم اعتزم أن يجرب قوة البخار. وكان على علم بأن وات أثبت عدم كفاية آلة نيوكومن، وأن آلة وات فشلت بسبب الأسطوانات التي ثقبت بغير دقة، فغامر مغامرة محسوبة مفترضاً أن هذا العيب يمكن التغلب عليه. وفي 1774 نقل آلة وات إلى سوهو، وفي 1775 لحق به وات. ومد البرلمان أجل البراءة من 1783 إلى 1800 .

وفي 1775 أخترع كبير الحدادين ولكنسن قضيب ثقب أسطوانياً مجوفاً مكن بولتن ووات من إنتاج آلات ذات قوة وكفاية لم يسبق لهما نظير، وسرعان ما أخذت الشركة الجديدة تبيع الآلات البخارية لأصحاب المصانع والمناجم في طول بريطانيا وعرضها.

على أن آلات وات البخارية كانت لا تزال ناقصة، وقد جاهد على الدوام لتحسينها. ففي 1781 سجل اختراعاً تحول فيه حركة الكباس المتناوبة إلى حركة دوارة، مما جعل الآلة البخارية صالحة لإدارة المكنات العادية. وفي 1782 سجل آلة بخارية ثنائية العمل، يتلقى فيها طرفا الأسطوانة دفعين من الغلاية والمكثف. وفي 1788 سجل اختراع "ضابط على شكل بلية طيارة" ينظم تدفق البخار ليزيد من السرعة المتماثلة في الآلة. وخلال سنوات التجريب هذه كان مخترعون آخرون يصنعون آلات منافسة، وكان على وات أن ينتظر حلول عام 1783 حتى تسدد مبيعاته ديونه وتبدأ في أن تؤتي ثمراتها .فلما انتهت فترة براءته اعتزل العمل النشيط، وواصل العمل في شركة بولتن ووات أبناؤهما. وتسلى وات بالاختراعات الصغيرة، واستمتع بشيخوخة رضية، ومات 1819وقد بلغ الثالثة والثمانين .

وكان هناك اختراعات أخرى كثيرة في هذا العصر الزاخر الذي يملك كل معلم صناعة فيه تقريباً اختراعاً جديداً من بنات أفكاره، ويدخل كل يوم تحسينات على مخترعات غيره. وتوصل وات نفسه إلى طريقة لاستخراج النسخ المطابقة باستعمال حبر غروي وضغط الصفحة المكتوبة أو المطبوعة على فرخ مبلل من الورق الرفيع وطبق أحد موظفيه المدعو وليم مردوك آلة وات البخارية على الجر، وصنع نموذجاً لقاطرة سرعتها ثمانية أميال في الساعة (1784)، وقاسم مردوك رجلاً فرنسياً يدعى فليب لوبون امتياز استعمال غاز الفحم في الإضاءة، وأنار بهذه الطريقة خارج مصنع سوهو (1798)، والمنظر المحوري للاقتصاد الإنجليزي في نهاية القرن الثامن عشر هو منظر الآلة البخارية تقود المسيرة وتزيد السرعة، وتسخر نفسها للآلات في عشرات الصناعات، وتصرف مصانع الغزل والنسيج عن قوة الماء إلى قوة البخار 1785 وما بعدها، وتغير وجه الريف، وتغزو المدن، وتحجب السماء بغبار الفحم وأبخرته، وتختبئ في أحشاء المراكب لتسبغ قوة جديدة على سيادة إنجلترا على البحار .

واقتضى الأمر عنصرين آخرين لجعل الثورة تامة، المصانع ورأس المال. وكانت مقومات الصناعة-وهي الوقود والقوة المحركة والمواد والآلات والعمال-تتعاون على

خير وجه إذا جمعت في مبنى أو مصنع واحد، وفي تنظيم وضبط واحد، تحت رئيس واحد. لقد كانت المصانع موجودة من قبل؛ ولكنها الآن تكاثرت عدداً وحجماً لأن السوق الموسعة تطلبت الإنتاج المنتظم الواسع النطاق، وأصبح "نظام المصنع" علماً على النظام الجديد في الصناعة. فلما أصبحت الآلات الصناعية والمصانع غالية التكاليف، قوى سلطان الرجال والمؤسسات القادرة على جمع رأس المال أو تقديمه، وتسلطت المصارف على المصانع، وأتخذ المركب كله اسم الرأسمالية-وهو اقتصاد يسيطر عليه الممولون. أما وقد توافرت كل حوافز الاختراع والمنافسة، وتحررت المشروعات الصناعية تحرراً متزايداً من قيود النقابات الحرفية والمعوقات التشريعية، فإن الثورة الصناعية تهيأت لتشكل من جديد كان على صاحب العمل والعامل كليهما أن يغيرا عاداتهما ومهارتهما وعلاقاتهما. فأما صاحب العمل الذي أخذ يتعامل مع عمال لا يفتأ عددهم في ازدياد، وفي دورة أسرع لرأس المال، فقد الصلة الحميمة بهم، واضطر أن ينظر إليهم لا بوصفهم معارف عاكفين على عمل مشترك، بل يشتغلون جزئيات في عملية لا يحكم عليها إلا بالأرباح. وكان معظم الحرفيين قبل في ورش النقابات أو في بيوتهم حيث لا تكون ساعات العمل صارمة لا تلين، وحيث يسمح بفترات للراحة؛ وفي عهد أسبق كانت هناك عطلات دينية تحرم الكنيسة فيها كل عمل يأتي بربح. وعلينا ألا نتمثل حال الرجل من عامة الشعب قبل الثورة الصناعية في صورة مثالية؛ ولكن لا نخطئ إذا قلنا أن المشاق التي تعرض لها آنذاك كانت تخفف منها التقاليد، والتعود، والهواء الطلق في كثير من الحالات. فلما تقدم التصنيع خفف من عناء العامل تخفيض ساعات العمل، وزيادة أجره، واتساع قدرته على الحصول على نصيب من السلع التي ازداد تدفقها من الآلات. ولكن تصف القرن الذي حدث فيه الانتقال من الحرفة والبيت إلى المصنع بعد 1760، كان لعمال إنجلترا نصف قرن حافلاً بالذل اللا إنساني الذي كان أحياناً شراً من العبودية .

كان أكثر المصانع في تلك الفترة يشترط اثنتي عشر ساعة إلى أربع عشرة ساعة من العمل في اليوم على مدى ستة أيام في الأسبوع. وكانت حجة أرباب العمل أنه لا

مفر من الاحتفاظ بالعامل ساعات طويلة لأنه لا يمكن الاعتماد عليه في الحضور بانتظام: ذلك أن عمالاً كثيرين كانوا يسرفون في الشراب يوم الأحد إسرافا يعوقهم عن الحضور إلى المصنع يوم الاثنين؛ وكان هؤلاء-بعد أن يشتغلوا أربعة أيام يلزمون بيوتهم في الثلاثة الباقية. وقد فسر آدن سمث هذه الظاهرة فقال "أن الجهد المفرط خلال أربعة أيام من الأسبوع هو في حالات كثيرة السبب الحقيقي للتبطل في الأيام الثلاثة الباقية"؛ ونبه إلى أن إطالة فترة العمل أو الزيادة في سرعته قد تؤدي إلى الانهيار البدني أو العقلي؛ وأردف "أن الرجل الذي يعتدل في العمل اعتدالاً يمكنه من أن يعمل باستمرار لا يحتفظ بصحته أطول من غيره فحسب بل أنه على مدى السنة يؤدي أكبر قدر من العمل"

أما الأجور الحقيقية فلا يمكن بالطبع قياسها إلا مرتبطة بالأسعار. ففي 1770 كان رغيف الخبز الذي يزن أربعة أرطال في نتنجهام يباع بنحو ستة بنسات، ورطل الجبن أو لحم الخنزير بأربعة، ورطل الزبد بسبعة، وقد حسب آدم سمث حوالي عام 1773 متوسط أجر العامل اللندني بعشرة شلنات، وفي المراكز الأصغر بسبعة، وفي إدنبرة بخمسة. وقال آرثر يونج حوالي عام 1770 أن الأجر الأسبوعي للعامل الصناعي الإنجليزي يتفاوت جغرافياً من ستة شلنات وستة بنسات إلى أحد عشر شلناً. وظاهر أن الأجور كانت أقل بالنسبة للأسعار منها الآن، ولكن بعض العمال اشتغلوا بعض الوقت بالعمل الزراعي. وبعد 1793، حين بدأت إنجلترا حربها الطويلة مع فرنسا الثائرة، ارتفعت الأسعار بأسرع كثيراً من ارتفاع الأجور، وبات الفقر مدقعاً. وأوصى كثير من اقتصاديي القرن الثامن عشر بخفض الأجور حفزاً للتشغيل المتصل.

واستخدمت النساء والأطفال في المصانع، عادة لأداء العمليات التي لا تحتاج إلى مهارة. وكانت بعض النساجات الماهرات يتقاضين أجوراً لا تقل عن أجور أزواجهن، ولكن الأجور العادية لعاملات المصانع بلغت في المتوسط ثلاثة شلنات

وستة بنسات - ولم تزد على نصف أجور العمال إلا فيما ندر. وكانت مصانع الغزل والنسيج وحدها في 1788 تشغل 56.000 امرأة و48000 طفل. وكان السير روبرت بيل يستخدم نيفاً وألف طفل في مصنعه بلانكاشير. ولم يكن تشغيل الأطفال بدعاً في أوربا، فقد كان أمراً مسلماً به في المزارع والصناعة الأسرية. وإذ كان التعليم العام أمراً لم يرض عنه المحافظون لأنه يفضي إلى فائض في المتعلمين وندرة في العمال اليدويين، فإن قلة قليلة جداً من الإنجليز في القرن الثامن عشر هي التي رأت ضيراً في ذهاب الأطفال إلى المصنع بدلاً من المدرسة. وحين كانت الآلات من البساطة بحيث يستطيع الأطفال أن يقوموا عليها، رحب أصحاب المصانع بالغلمان والفتيات ذوي العوام الخمسة أو يزيد. وكان المسئولون في الأبرشيات الذين ضاقوا بالإنفاق على الأيتام أو أطفال الفقراء يجهزونهم لرجال الصناعة مغتبطين، أحياناً في أفواج من خمسين أو ثمانين أو مائة؛ وفي حالات عدة كانوا يشترطون أن يأخذ صاحب العمل طفلاً معتوهاً واحداً في كل عشرين طفلاً. وكان يوم العمل العادي للعمال الأطفال يتراوح بين عشر ساعات وأربع عشرة. وكثيراً ما كانوا يسكنون جماعات، وفي بعض المصانع كانوا يعملون في ورديات من اثنتي عشرة ساعة، بحيث ندر أن توقف الآلات أو خلت الأسرة من شاغليها. وكان النظام يحفظ باللطم أو الركل. وقد وجد المرض ضحايا عاجزين عن درئه في صبيان المصانع هؤلاء؛ وكثير منهم أصابه العمل بتشوهات في جسده أو الحوادث بعاهات مقعدة، ومنهم من قتل نفسه .

وكان في بعض الرجال من رقة الشعور ما يكفي لذم تشغيل الأطفال هذا، على أن هذا التشغيل تقلص لا لأن الناس أصبحوا أكثر رحمة، بل لأن الآلات أصبحت أشد تعقيداً .

وأخضع الأطفال والنساء والرجال في المصانع لظروف ونظم لم يعرفوها من قبل. وكانت المباني في حالات كثيرة تشيد على عجل دون توخ للمتانة، مما أعان قطعاً على كثرة الحوادث وتفشي المرض. وكانت القواعد صارمة، وانتهاكاتها تعاقب

بغرامات قد تفقد العامل أجر يومه. وكانت حجة أرباب العمل أن العناية الواجبة بالآلات وضرورة التنسيق بين مختلف العمليات، والعادات المتسيبة لسكان لم يألفوا النظام أو السرعة-كل هذا يتطلب ضبطاً صارماً إذا أريد ألا تقضي الفوضى والتبديد على الأرباح وترفع سعر المنتجات بحيث تخرجها من السوق في داخل البلاد وخارجها .واحتمل العمال الانضباط لأن الصانع العاطل كان يواجه الجوع والبرد هو وأسرته، وكان العامل المشتغل يعرف أن العمال العاطلين يتوقون إلى أخذ وظيفته، ومن ثم كان من مصلحة رب العمل أن يكون هناك "وعاء" من المتعطلين يأخذ منه البدائل للعمال المقعدين أو الساخطين أو المرفوتين. وحتى العامل الكفء الحسن السير والسلوك كان يواجه الرفت إذا تشبعت السوق المتاحة بـ إنتاج زائد" يفوق قدرتها الشرائية، أو إذا وضع السلام نهاية لاستعداد الجيوش المبارك لطلب مقادير متزايدة من السلع واستهلاكها بأسرع ما يمكن .

وكان العمال في ظل نظام النقابات الحرفية محميين بالأوامر النقابية أو البلدية، أما في حركة التصنيع الجديدة فلم يجدوا حماية تذكر من القانون أو أي حماية إطلاقاً. وكانت دعوة الفزيوقراطيين لتحرير الاقتصاد من التنظيم قد تقدمت في إنجلترا كما تقدمت في فرنسا؛ وأقنع أصحاب الأعمال البرلمان بأنهم لا يستطيعون مواصلة عملياتهم أو التصدي للمنافسة الأجنبية ما لم تترك الأجور لتحكمها قوانين العرض والطلب. وكان قضاة الصلح يحتفظون من قبل ببعض الأشراف على الأجور في مصانع القرى، أما في المصانع بعد 1757، فلم يكن لهم أي إشراف. ولم تر الطبقتان العليا والوسطى مبرراً للتدخل في شئون أقطاب الصناعة، وكان فيض الصادرات المتعاظم يفتح أسواقاً جديدة للتجارة البريطانية؛ وكان الإنجليز القادرون على الشراء مسرورين بوفرة المصنوعات.

ولكن العمال لم يصيبوا قسطاً من هذا الثراء فقد ظلوا - رغم تكاثر السلع بفضل الآلات التي يقومون عليها-فقراء عام 1800كما كانوا قبل قرن. ثم أنهم لم

يعودوا يملكون أدوات حرفتهم، ولم يكن لهم نصيب يذكر في تصميم السلعة المنتجة، ولم ينالوا كسباً من توسع السوق التي يغذونها. وزادوا فقراً على فقر بمواصلة الإنجاب المرتفع الذي يؤتي ثماره في المزرعة؛ ووجدوا أكبر عزاء لهم في الشراب والجنس، وظلت نساؤهم يقومن بعدد من يلدن من الأطفال. وانتشر الفقر المدقع؛ وارتفعت المصروفات المخصصة لإغاثة الفقراء من 600.000 جنيه في 1742 إلى 2.000.000 جنيه في 1784. ولم تستطع الزيادة في الإسكان أن تساير هجرة العمال الصناعيين أو تكاثرهم، وكثيراً ما أكرهوا على العيش في مساكن متداعية تتزاحم في شوارع ضيقة كئيبة. وعاش بعض العمال في أقباء زادت رطوبتها من أسباب المرض. ولم يحل عام 1800 حتى كانت كل المدن الكبرى قد قامت فيها أحياء فقيرة مزدحمة باتت ظروف العيش فيها أسوأ من أي ظروف عرفت في تاريخ إنجلترا السابق .

وحاول العمال تحسين ظروفهم بالمشاغبات أو الاضطرابات أو التنظيم، فهاجموا المخترعات التي تهددهم بالبطالة أو العمل الشاق والأجر الحقير، وقرر البرلمان في 1769 اعتبار تخريب الآلات جناية. ولكن العمال في مصانع لانكاشير تجمعوا رغم ذلك عام 1779 في حشد من الغوغاء تعاظم من خمسمائة رجل إلى ثمانية آلاف؛ ثم جمعوا الأسلحة النارية والذخيرة؛ وصهروا الأطباق البيوترية ليصنعوا منها الأعيرة، وأقسموا أن يدمروا كل آلة في إنجلترا. وفي بولتن حطموا مصنعاً وأجهزته تحطيماً تاماً؛ وفي أولذم اقتحموا عنوة مصنع نسيج روبرت بيل أبي السير روبرت الوزير، وحطموا أجهزته الغالية. وكانوا في طريقهم للهجوم على مصنع آركرايت في كرامفورد حين لحق بهم الجنود المرسلون من لفربول، ففروا للفور مدحورين .وقبض على بعضهم وحكم عليهم بالشنق. وعلل قضاة الصلح هذا بأن "تدمير الآلات في هذا البلد لن تكون إلا الوسيلة لنقلها إلى البلاد الأخرى... مما يؤذي تجارة بريطانيا.

وحرم القانون تأليف الاتحادات العمالية بهدف المساومة الجماعية؛ ومع ذلك وجدت "جمعيات العمال المهرة" التي يرجع بعضها إلى القرن السابع عشر. وفي القرن

الثامن عشر كثر عددها لا سيما بين صناع النسيج. وكانت أولاً أندية أو جمعيات لتبادل المنافع، ولكنها بتقدم القرن أصبحت أكثر عدواناً، ونظمت أحياناً الاضطرابات حين كان البرلمان يرفض ملتمساتها. مثال ذلك أن السنتين 1767-68 شهدتا اضطرابات للملاحين والنساجين وصانعي القبعات والخياطين وطاحني الزجاج؛ وصاحب العديد من هذه الاضطرابات العمالية عنف مسلح من الطرفين.

وأنفذ أصحاب العمل مشيئتهم سواء في المصانع أو في البرلمان؛ ففي 1799قضى مجلس العموم بعدم شرعية أي اتحادات ترمي إلى الحصول على أجور أعلى أو إلى تغيير ساعات العمل، أو إلى إنقاص كمية العمل المطلوبة من العمال .ويعاقب العمال الداخلون في تكتلات كهذه بالسجن ويؤمن المبلغون عن هؤلاء العمال.

نتائج الثورة:

كانت نتائج الثورة الصناعية هي تقريباً كل شيء تلاها في إنجلترا إذا استثنينا الأدب والفن؛

وليس في الاستطاعة إيفاء هذه النتائج حقها من الوصف إلا إذا كتبنا تاريخاً للقرنين الأخيرين .على أننا يجب أن نلفت النظر ولو إلى القمم البارزة لعملية التغير المستمرة والتي لم تنته بعد .

1. تغير الصناعة نفسها بتكاثر المخترعات والآلات- وهي عملية من الكثرة بحيث تختلف طرائقنا الحاضرة في إنتاج السلع وتوزيعها عن طرائق عام 1800 أكثر من اختلاف هذه عن الطرائق التي سادت قبلها بألفي عام .
2. انتقال الاقتصاد من النقابات الحرفية المنظمة والصناعات الأسرية إلى نظام الاستثمار الرأسمالي والمشروعات الحرة. وكان آدم سمث الصوت البريطاني للنظام الجديد، وأسبغ بت الثاني على النظام التكريس الحكومي في 1796 .
3. تصنيع الزراعة-أي الاستعاضة عن المزارع الصغيرة بمساحات كبيرة من الأرض تدار رأسمالياً، وتستخدم الآلات والكيمياء والقوة الميكانيكية على نطاق واسع لإنتاج الطعام والألياف لسوق قومية أو دولية-هذا التصنيع ماض في طريقه اليوم.

والمزرعة التي كانت تفلحها الأسرة تنضم إلى النقابات الحرفية في ركب ضحايا الثورة الصناعية .

4. تشجيع العلم وتطبيقه وبثه. وقد انصب التشجيع أولاً على البحوث العلمية ولكن الدراسات في العلم البحت أفضت إلى نتائج عملية هائلة، ومن ثم فقد مولت البحوث النظرية أيضاً، وأصبح العلم هو الطابع المميز للحياة الحديثة كما كان الدين للحياة الوسيطة .

5. أعادت الثورة الصناعية رسم خريطة العالم بضمنها سيادة بريطانيا على البحار وعلى أكثر المستعمرات جلباً للأرباح على مدى 150 عاماً. وقد عززت الإمبريالية لأنها حملت إنجلترا-ثم غيرهم من الدول الصناعية-على فتح أصقاع أجنبية تستطيع أن توفر الخامات أو الأسواق أو التسهيلات للتجارة أو الحرب. وأكرهت الشعوب الزراعية على التصنيع وتقوية نفسها عسكرياً لتحصل على حريتها أو تصونها، وخلقت روابط اقتصادية أو سياسية أو حربية جعلت الاستقلال وهمياً والتكافل واقعياً .

6. غيرت إنجلترا طابعاً وحضارة بتكثير سكانها، وتصنيع نصفها، وتحريكها شمالاً وغرباً إلى مدن مجاورة لمناجم الفحم أو الحديد، أو للطرق المائية أو البحر؛ وهكذا نمت ليدز وشفيلد ونيوكاسل ومانشستر وبرمنجهام ولفربول وبرستل... وقد حولت الثورة الصناعية مناطق شاسعة من إنجلترا، ومن غيرها من الدول المصنعة، إلى بقع ملطخة من الأرض تنفث دخان المصانع وتختنق بالغازات والغبار، وأرسبت الخبث البشري في أحياء قذرة مدخنة بائسة .

7. مكنت الحرب ووسعتها وجردتها من الطابع الشخصي ورفعت قدرة الإنسان على التدمير أو القتل بدرجة هائلة .

8. فرضت تحسيناً وسرعة في المواصلات والنقل وبهذا يسرت تكتلات صناعية أكبر وسهلت في مناطق أوسع من رأس مال واحد .

9. ولدت الديموقراطية برفعها طبقة رجال الأعمال إلى مكانة الثراء المهيمن، وإلى التفوق السياسي نتيجة تدريجية لذلك. ولأحداث هذا الانتقال الخطير للسلطة ورغبة في حمايته، جندت الطبقة الجديدة تأييد قطاع متزايد من الجماهير، واثقة من أن في الإمكان الاحتفاظ بولائها بالهيمنة على وسائل الإعلام وتلقين المبادئ. ولكن رغم هذه الهيمنة أصبح شعب الدول الصناعية أفضل الجماهير إعلاماً في التاريخ الحديث .

10. وإذا كانت الثورة الصناعية المتطورة تتطلب مزيداً من التعليم في العمال والمديرين، فإن الطبقة الجديدة مولت المدارس والمكتبات والجامعات على نطاق لم يحلم به أحد من قبل. وكان الهدف تدريب الذكاء التقني، وكانت الحصيلة الجانبية توسعاً لم يسبق له نظير في الذكاء العلماني .

11. نشر الاقتصاد الجديد السلع وأسباب الرفاهية بين نسبة من السكان تفوق كثيراً أي نظام سابق لم يكن من سبيل أمامه لصيانة إنتاجيته المطردة الارتفاع إلا بقوة شرائية مطردة الاتساع في الشعب .

12. أرهفت العقل الحضري، ولكنها بلدت الحس الجمالي؛ وأصبحت مدن كثيرة قبيحة المنظر قبحاً يغم النفوس وفي النهاية أقلع الفن نفسه عن نشدان الجمال. وكان من آثار إسقاط الأرستقراطية عن عرشها-زوال حفظة المعايير والأذواق وحكمتها، وهبط مستوى الأدب والفن .

13. رفعت الثورة الصناعية أهمية الاقتصاد ووضعه، وأفضت إلى التفسير الاقتصادي للتاريخ، وعودت الناس على التفكير بلغة العلة والمعلول الماديين، وأفضت إلى

نظريات ميكانيكية النزعة في علم الأحياء فحواها محاولة تفسير جميع عمليات الحياة على أنها أفعال ميكانيكية .

14. تضافرت هذه التطورات في العلم، والنزعات الشبيهة في الفلسفة، مع الأحوال الحضرية والثراء المتسع، على إضعاف العقيدة الدينية .

15. غيرت الثورة الصناعية من الأخلاقية. إنها لم تغير طبيعة الإنسان ولكنها أعطت قوى وفرصاً جديدة لغرائز قديمة نافعة بدائياً، مكدرة اجتماعياً .

اخيرا

عصر التنوير

عصر الأنوار أو عصر التنوير (بالإيطاليـة: L'illuminismo) هـي حركـة سياسـية، إجتماعية، ثقافيـة وفلـسفية واسـعة، تطـورت بـشكل ملحـوظ في القـرن الثـامن عـشر في أوروبا. نشأت في إنجلترا ولكن التطـور الحقيقـي كـان في فرنـسا. وتحـول مفهـوم التنـوير ليشمل بشكل عام أي شكل من أشكال الفكر الذي يريد تنوير عقول من الظـلام والجهـل والخرافة، مستفيدا من نقد العقل ومساهمة للعلوم.

أجاب إيمانويل كانط عن سؤال ما هو التنـوير؟ بقولـه:" إنـه خـروج الإنـسان عـن مرحلة القصور العقلي وبلوغه سن النضج أو سن الرشد ".كما عرَّف القـصور العقـلي عـلى أنه "التبعية للآخرين وعدم القدرة على التفكير الشخصي أو السلوك في الحياة أو اتخاذ أي قرار بدون استشارة الشخص الوصي علينا." ومن هـذا المنظـور جـاءت صرختـه التنويريـة لتقول: "اعملوا عقولكم أيها البشر! لتكن لكم الجرأة على استخدام عقولكم! فـلا تتواكلـوا بعد اليوم ولا تستسلموا للكسل والمقدور والمكتوب. تحركوا وانشطوا وانخرطوا في الحيـاة بشكل إيجابي متبصر. فاللـه زودكم بعقول وينبغي أن تستخدموها. لكن كان هنـاك مـن فهم التنوير نقيضاً للإيمان أو للاعتقاد الديني، وإنما شـدد عـلى أن "حـدود العقـل تبتـدئ حدود الإيمان". كما حذر من الطاعة العمياء للقادة أو لرجال الـدين كـما حـصل في دولـة بروسيا لاحق.

عندما نتحدث عن "عـصر التنـوير" نخـص بالـذكر حقبـة العـصر اليونـاني القـديم وبــالأخص وقــت انتــشار افكــار المــؤلفين السفــسطائيين وذلــك لنقــد القــوانين ذات الأصول الإلهية والتجـسيم الـديني. يمكننـا حـصر التنـوريين في الفيلـسوف ديموقريطـوس، الفلاسفة الذرييون، الفلاسفة الرواقيون والمتـشككين، لا سـيما أبيقـور الـذي يريـد تحريـر الناس مـن الخـوف، الناجمـة عـن الـدين والآلهـة والمـوت.[4] قـد أدرك لـوك أن التنـوير

يرغب في التوفيق بين الفلسفة والفيزياء النيوتونية، مسندا للعقل تحديد إمكانياته والتى تفوق حدوده، بغض النظر عن كل الحقائق التي وجدت بطريقة بديهية أو فطرية.

ويبدو أن الإيمان بالعقل، جنبا إلى جنب مع النموذج التجريبي للعلوم النيوتونية، تجعل من الممكن إكتشاف قوانين ليس فقط للعالم الطبيعي، ولكن أيضا قوانين التطور الاجتماعي. أن الاستخدام الصحيح للعقل، يمكن أن يكون أحد وسائل التقدم غير المحدود للمعرفة والتقنيات والأخلاق: هذا الاعتقاد سوف تتناوله وتعززه المذاهب الوضعية لاحقا.

منذ البداية يعتقد التنويرين أن جزءا كبيرا من البشر، رغم انهم خلقوا أحرار، سعداء ببقائهم قصّر مدى حياة. وبهذة الحالة يعيش الإنسان في خمول وجبن، لعدم وجود الشجاعة للبحث عن الحقيقة. وفي أي حال، نتيجة للهذة الحالة من عدم الاختيار من السهل لمعظم المكرة واصحاب السلطة بناء على هذا الدليل: إذا كنت أمتلك كتاب يفكر لي، ومدير روحي يفكر لي... إذن لم اعد بحاجة للتفكير لي. لست في حاجة للتفكير، إذا كان من الممكن أن أدفع فقط... يهتم المعلمون بسجن الجبناء والكسالى في عربة صغير للأطفال» خوفاً من المخاطر التي قد تحدث لهم اذا حاولوا المشي وحدهم، فلن يتعلم الإنسان المشي دون ان يسقط، ولكن هذا الخوف من السقوط، يبقيهم أطفال طوال حياتهم يجب على التنويرين حماية الإنسان وتعليمه ان يصبح ناضج وقادر على الاعتماد على نفسه، وأن يستخدم عقله للتحرر من المعتقدات الغريزية في الحقائق المعطاه، سواء تلك الفطرية التي تشكلت في ميدان المعرفة، أو تلك المستوحاه من الدين.

يرفض العقل كل شيء لا تنبع منه بهدف إنشاء الحدود الخاصة به: فالعقل يستطيع أن يدرك كل اشكال المعرفة.

هذا سوف يحدث بتطبيق نقد العقل، من خلال التحليل، والنقاش، والجدل في مواجهة تلك التجربة التي ليست فقط وقائع مادية ولكن أيضا اجتماعية

وتاريخية» :من مبادئ العلوم لأساسيات الوحي، من الميتافيزيقيا للقضايا الأساسية للذوق، من الموسيقى إلى الأخلاق، من النزاعات اللاهوتيين الدراسية للقضايا الاقتصادية، من القانون الطبيعي لتلك الوضعي، وباختصار للمشاكل التي تؤثر علينا عن كثب أكثر إلى تلك التي تمسنا مباشرة، كل شيء يناقش, يمكن تحليله

أسطورة الهمجي النبيل

وكان "الهمجي النبيل" أسطورة استناداً إلى الاعتقاد بأن الأنسان كان أصله حيوان طيب ومسالم، ولكن فسد بمرور الوقت بسبب المجتمع والتقدم. في الثقافة التهذيبية في القرن الثامن عشر اعتبرت "الهمجي النبيل" جدير بالأحترام، أكثر نبلا في التعليم المتحضر. وعلى الرغم من أن مصطلح "الهمجي النبيل" قد ظهر بالفعل في 1672 بعد الاستيلاء على غرناطة من قبل جون درايدن (1672)، أعيد أحياء التمثيل المثالي "لسيد الطبيعة" في المذهب الحسي في القرن اللاحق. ويجسد مفهوم "الهمجي النبيل" الاعتقاد بأن قبل الحضارة كان البشر أساسا خيرون، والاسس التي قامت عليها البشرية تعتمد على مذهب خيرية البشرية، والتي عبر عنها انطوني سافتسبوري في العقد الأول من القرن الثامن عشر :"البحث في بساطة الخلق، وهذا السلوك البرئ، الذي يظهر جليا في الهمجيين؛ قبل أن تتلفه تجارتنا". تغذت أسطورة الهمجي النبيل من البعثات التبشيرية اليسوعية، التي بدأت في القرن السابع عشر في أمريكا الجنوبية، لا سيما في باراغواي، وتمثلت في إنشاء مراكز (تبشيرية هندية) لتبشير الشعوب الأصلية بهدف خلق مجتمع بالسمات الخيرية للمجتمع المسيحي الأوروبي، وتخلو من الرذائل والجوانب السلبية. كان الهنود الاكثر ملائمة بصفة لهذا المشروع حيث طبيعتهم تتقبل التعاليم اليسوعية. وما جعلهم يجسدوا الخيرية الأولية للإنسان البدائي ميولهم الفنية للطبيعة وخاصة الموسيقى.

في عصر التنوير عمل روسو على نشر فكرة الهمجي النبيل، مؤكدا في العقد الاجتماعي: ولد الإنسان حرة ولكن قيد بعد ذلك بالقيود. أجابه ڤولتير مثير

للجدل بنوع من السخرية: «عند قرأت الكتاب شعرت برغبة في المشي على أربع، ولكن للأسف فقدت هذه العادة لأكثر من ستين عاماً ولا يمكنني أن أستأنفها الآن»

ما يميز عصر التنوير الأوروبي أنه اعتمد على الفن الروماني، لا الإغريقي القديم الذي كان أكثر حرية؛ وكان النموذج المثالي للتقليد هو إنياذة فرجيل (70-19 ق م) .من هنا أعطى كورناي الأفضلية للموضوعات المستوحاة من ثقافة الإمبراطورية الرومانية وبيزنطة .وقد صبَّ التنويريون اهتمامهم الرئيسي على مسائل الجمال والتناغم والتناسب والتناسق التي هي الجوهر الحقيقي للعالم والإنسان

الخلاصة

بدأت الحركات العصرية في القرن 15 بأوروبا وامتدت للموضوعات العلمية والدينية و الفلسفية في القرن 18. وتبنت البنيات التحررية والعقائدية والعلمية بدلا من المعتقدات التقليدية والخرافية وتسمى هذه الفترة بعصر التنوير. ويعد الفرنسي رينيه ديكارت والألماني غوتفريد لايبنز من رواد هذه الفترة. وقد استهل كلا من اسحاق نيوتن ونيكولاس كوبرنيكوس حقبة جديدة في العلوم بتفسيرات عقلانية نقلت الأحداث الفيزيائية والفلكية. أما رينيه ريكارت وايمانويل كانط فقد أعدوا البنية الفلسفية لهذه التطورات العلمية.

أما الثورة الفرنسية فهي تعد تطورا أثرت به الأفكار الجديدة التي برزت في الفن والدين والعلوم والفلسفة على الحياة اليومية للأشخاص لأول مرة. ان تصنيع المنتجات الاستهلاكية من خلال استخدام قوة الآليات قد نهض فورا بمستوى الرفاهية للشعوب الأوروبية.

لا يزال الدخل القومي مستمرا صعودا وهبوطا على مدار التاريخ حتى القرن 16 . وقد بدأ يتزايد أضعافا مضعفة فجأة. وقد أدى إلى الانفجار السكاني. وبالمقارنة مع قارات أخرى من القارة الأوروبية , فقد ساهم هذا في القوة العسكرية والاقتصادية. وبصفة خاصة في هذه التطورات كان هناك دورا كبيرا للمحركات

البخارية. فقد بدأ استخدام المحرك البخاري من ناحية بدلا من القوة البشرية في المصانع ومن ناحية أخرى قد سمح بتنقل الإنسان والبضائع بشكل أسرع حيث أنه هيأ لتحرك السفن والقاطرات بشكل أسرع.

المراجع

1. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، اسم المؤلف عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت 1976،
2. تاريخ اوروبا في العصور الوسطي اسم المؤلف: سعيد عبد الله
3. معالم تاريخ أوربافي العصور الوسطى اسم المؤلف محمود سعيد عمران
4. نهاية العصور الوسطى إلى بداية القرن التاسع عشر الميلادي اسم المؤلف يوسف جمال
5. تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى المؤلف: موريس بيشوب
6. معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية،المؤلف: محمد سعيد عمران دار النهضة العربية ، بيروت 1982م.
7. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى : الحياة الاقتصادية و الاجتماعية - المؤلف هنري بيرين
8. قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى اسم المؤلف: أشرف صالح محمد سيد
9. "حضارة أوروبا العصور الوسطى" لمؤلفه "موريس كين ،
10. قراءة في تاريخ وحضارة أوربا العصور الوسطى. أشرف صالح محمد سيد تقديم: أ.د. فتحي عبد العزيز محمد القاهرة (2011)

المحتويات

يبحث هذا الكتاب في تاريخ أوروبا فيتناول النظام الإقطاعي، وسلطة الكنيسة، والإمبراطورية الرومانية، ويستعرض حضارة العصور الوسطى من أدب، وعمارة، ووضع النساء، بالإضافة إلى التأثير الإسلامي، ثم ينتقل لعصر النهضة وظهور الدول الحديثة، وظهور مفهوم القومية، وينتهي بعصر التنوير.





مركز الكتاب الأكاديمي
عمّان-وسط البلد-مجمع الفحيص التجاري
ص . ب : 11732 عمّان (1061) الأردن
تلفاكس: 96264619511+ موبايل: 962799048009+
الموقع الإلكتروني: www.abcpub.net
A.B.Center@hotmail.com / info@abcpub.net